محمد فرج

الفتح العربي للعراق وفارس

تقديم

أحمد حسن الباقوري

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

محمد فرج

الفتح العربي للعراق وفارس

تقديم

أحمد حسن الباقوري

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
١٣٨٦ / ١٩٦٦

المطبعة العالمية ١٦ و ١٧ شارع ضريح سعد بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أمي صاحبة الفضل الكبير
مع كل آيات الوفاء والتقدير
وهي ترقد في مثواها الأخير

محمد فرج

قال عمر رضى الله عنه

« ألا إن الله قد أهلك ملك المجوسيـــة وفرّق شملهم ، فليسوا يملـكون من بلادهم شبراً يضر بمسلم ....

ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبنـاءهم لينظر كيف تعملون ...

والله بالغٌ أمره ، ومنجزٌ وعده ، ومتبعٌ آخر ذلك أوّله ، فقوموا فى أمره على رجل يوفِ لكم بعهده ، ويؤتكم وعده ، ولا تبدّلوا ولا تغيّـروا فيستبدل الله بكم غيركم ، فإنى لا أخاف على هـذه الأمة أن تؤتىَ إلا من قِبَـلكم ... »

مقدمة الكتاب

بقلم فضيلة الأستاذ الشيخ

أحمد حسن الباقوري

— ١ —

حين تستيقظ الأمم على فجر جديد ، وتهفو بآمالها إلى غد كريم ، يشتد ظمؤها إلى المثل الهادية ، والنماذج الحية ، من مواقف أبطالها ، وروائع أيامها ، تجد فيها الحافز والمدد ، يرفع من روحها ، ويشد من عزمها ويمنحها القدرة على الكفاح الدائب .

وللأمم الماجدة أعراق ميراث من ماضيها ، تأبى لها أبداً أن تموت ، فهى تظل فى روحها ودمها حية نابضة ، تتربص الفرص لبعث جديد ، حتى إذا واتتها ثارت بالشعب ، تغلى فى دمه ، وتدفعه فى قوة وعنف ، أن يستعيد أمجاده ، ويحقق أحلامه ، وهنا يجىء دور الماضى ، وإمداده بالبطولات الرائدة ، والمواقف الخالدة .

وليس لأمة فى الأرض ما لهذه الأمة العربية من مثل ومواقف فى أيامها الأولى ، تبلغ أحياناً حد المعجزات أو تدانيها .

لقد كانت قبل النبوة نثاراً من قبائل متناكرة ، تنتهبها الصحراء ، وتعتصرها الأحقاد ، وتفنيها الحروب ، فما أن أدركتها عناية الله برسول كريم ، هداها الطريق ، وجمعها تحت لواء ، حتى ورثت الأرض ومن عليها فى أعوام ، وأقامت فيها راية العدل والسلام .

ولم تكن هذه المعجزة الكبرى ، فى ميراثها للأرض وما فيها من تيجان وعروش إلا أثراً طبيعياً لتلك البطولات الخارقة التى آثرت الآخرة على الأولى ، فأعطاها الله الآخرة والأولى معاً .

ولقد غنيت الفترة الأولى من تاريخ هذه الأمة بصور كثيرة رائعة من التجارب الإنسانية العليا ، فى مجالات السياسة والحرب والأخلاق ، وهذه التجارب هى فى الواقع سر العظمة الشامخة التى ارتفعت إليها هذه الأمة فى سرعة خاطفة .

وفى هذه التجارب العميقة مجال واسع للأقلام ، تجلوها ، وتصورها ، وتقدمها للشباب ، غذاء شهياً ، ومدداً قوياً يربط فى صدورها أمجاد الماضى بأوضاح الحاضر .

— ٢ —

والأخ الأستاذ محمد فرج كان فى طليعة الذين أحسوا بمسئولياتهم أمام التاريخ المجيد فى تلك الحقبة المشرقة من تاريخ هذه الأمة ، كما أحسوا بمسئولياتهم أمام جيل النهضة المعاصر ، وأن عليهم أن يقدموا له أمجاد أسلافه فى صوره الحية ، لتغنى مشاعره وتمضى عزائمه ..

فتقدم فى ثقة المؤمن وعمق الدارس ، ووعى الرائد ، يجلى من هذه الصفحات ، ويقدم من تلك البطولات ، وينشر كل يوم من ذلك ما فيه الكفاية من الإمداد والتوجيه .

وإن نظرة واحدة إلى الصفحة الأخيرة من هذا الكتاب لكفيلة بالإعجاب والتقدير لهذا المجهود الكريم ، فإن هذا الكتاب الذى بين أيدينا اليوم هو العاشر فى سلسلة الأبحاث التاريخية التى اختارها جميعها من الأحداث الخالدة فى الفجر الأول من تاريخ هذه الأمة .

— ٣ —

والقارىء للكتاب قد تملكه الدهشة ، وتغلبه الحيرة ، حين يهم بتسجيل بعض مشاعره وانفعالاته ، عن المعارك والمشاهد التى صاحبت فتح العراق وفارس ، فأى المشاعر يسجل ؟ وفى أى مجال يسجل ؟ فى مجال البطولة الحربية وخوارقها ، أم مجال البطولة الإنسانية والأخلاقية ، التى بدت من سلوك المسلمين فى معاملة الأصدقاء والأعداء على السواء ؟

ومن كان يظن أن الجندى المسلم يهجم على الفيل الضخم الهائج المدرب على الحرب ، ليفقأ عينيه ويريح الجيش الإسلامى منه ، لايبالى بقوة الفيل أن تفتك به ؟ . . . ومن كان يظن أن الجنود العرب الذين لم يروا البحر قط ، فضلا عن السباحة ، يندفعون بخيلهم إلى ماء النهر يعبرونه سابحين تحت وابل من النبال تنهال عليهم من جيش الفرس فى الشاطىء الآخر لا يبالون بالغرق ولا بالنبال ؟

وإن أصدق تصوير لهذه البطولة ما قاله الفرس أنفسهم : أنهم إنما يقاتلون جناً لا بشر ... والفضل ما شهدت به الأعداء . .

أما البطولة الإنسانية فى مثلها العليا فإنها أعجب من بطولة الحرب . . فكم من قائد مظفر منتصر ، تأتيه أوامر الخليفة أن ينزل إلى صف الجنود تحت إمرة قائد آخر ، فإذا هو ينزل إلى الصف فى طاعة راضية ، لا يحس بجرح ولا يشعر بحرج ، ولا يذكر نفسه لحظة ، وإنما يذكر المعركة والنصر وحدهما ... وهكذا عاش هؤلاء الناس للمثل والمبادىء دون أى شىء آخر سواهما... فالمثنى بن حارثة ينزل من القيادة ليقاتل جندياً تحت إمرة أبى عبيد الثقفى .. وخالد بن الوليد — سيف الله المسلول — ينزل من قيادته الظافرة إلى جندى يقاتل تحت قيادة ابن الجراح . . . !

بل لقد ارتفعت المرأة فى هذه المدرسة الأولى إلى مستوى المسئولية والتصرف القيادى ، فإن سلمى زوج سعد بن أبى وقاص قائد معركة القادسية ، تتصرف بإطلاق سراح أبى محجن الثقفى من السجن حين سمعته يتوجع من سجنه ورحى القتال تدور من حوله ، ثم تعطيه جواد زوجها لينزل المعركة ، وبعد أن تم النصر عاد أبو محجن ليضع القيد فى رجليه داخل السجن كما كان ... ولما علم القائد بما كان من تصرف زوجه وما كان من أبى محجن من بلاء ثم عودته إلى السجن ، أمر بإخلاء سبيله ، وهكذا تدبر المرأة فى جرأة ، ويفى السجين فى طاعة ، ويرضى القائد فى غبطة . . !

— ٤ —

بقيت كلمة صغيرة عن قصة يوسف ذو نواس وحادث الأخدود فقد روى المؤلف أن يوسف دعا قومه إلى اليهودية فلما لم يستجيبوا أحرقهم فى الأخدود . والقصة بهذه الصورة هى آخر ماروى ابن كثير فى تفسيره لسورة البروج ، وأقرب إلى المنطق والواقع هو ما ذكره ابن كثير فى صدر رواياته من أن يوسف أرادهم أن يتحولوا من النصرانية إلى الوثنية وواضح أن الصورة القرآنية فى سورة البروج تشهد بصحة هذه الرواية .

— ٥ —

وشكر الله للأخ الكريم جهوده فى بعث هذا التاريخ الخالد وما فيه من قيم ومثل هى خير زاد لأمة تريد الحياة وتبنى المجد ، ولئن كان لهذا اللون من الكتابة قيمة ذاتية تجعلها موضع التقدير فى كل وقت ، إنها فى هذا الوقت لأغلى قيمة وأبين نفعاً ، وذلك أن أمتنا العربية محتاجة اليوم إلى أن ينظر الأخلاف إلى الأسلاف وهم يجاهدون الصهيونية والإستعمار .

أحمد حسن الباقورى

مقدمة المؤلف

— ١ —

كانت أمنية غالية تراودنى منذ ما يزيد على العشرين عاماً خلت أن أتفرغ للكتابة عن المدرسة العسكرية الإسلامية . . . فأتناول فى مؤلفات متعددة قادتها ، ونظم الحرب التى وضعتها ، ومبادىء المعركة التى قررتها ، وتطويرها لفكرة الحرب وتهذيبها ، وارتقاءها بمستوى أسبابها ، وغيرها من الأمور التى جعلت المدرسة العسكرية الإسلامية تحتل مكان الصدارة بين المدارس العسكرية الأخرى القديمة والحديثة رغم ما يبذله أعداء الإسلام من جهد متصل لتعطيل نشر كل ما يتعلق بالإسلام رغبة فى ألا يصل إلى أيدى الناس فيعرفون ما خفى عليهم من أموره ، وما يبذلونه أيضاً من جهد متصل لنشر كل ما يسىء إلى الإسلام فلا يبقون له فضلا ولا يجعلون له مجداً . . . . . .

وبدأت السير على الطريق لتحقيق الأمنية ، وأخرجت للمكتبة العربية مؤلفات عدة ، تناولت فى بعضها الحديث عن بعض قادة الإسلام ، وأبنت كيف أنهم خاضوا غمار المعارك بفن وأصول ومبادىء أدت بهم إلى الإنتصارات العظيمة ، وجعلت منهم قادة ميامين لهم مكانتهم المرموقة فى تاريخ الحروب ، ثم تناولت فى بعضها الآخر بالحديث الحرب فى الإسلام ، لماذا قررت ؟ ، وكيف عالج القرآن الكريم شئون المعركة ، وأبنت أن الإسلام لم يقم بالسيف وإنما قام على الإيمان ، وأن الحرب قررت دفاعاً عن الدين وليست رغبة فى تملك أو سيطرة ، ثم أوضحت أن الأسس والمبادىء التى قامت عليها المعركة فى الإسلام مازالت تقوم عليها معارك اليوم .

— ٢ —

وكان من الطبيعي أن أتناول خلال هذه المؤلفات الفتوحات الإسلامية خارج الجزيرة العربية ، ولكن موضوع الفتوحات لم يكن هو أساس الدراسة ولهذا فقد عالجتها في حدود لا تخرج بأي كتاب عن المخطط الذي وُضع له ولكن اللقاءات المتعددة بين الدولة الإسلامية ودولتي الفرس والروم ظلت تشغل تفكيري وتملأ وجداني وتجذبني إلى نشرها ، حتى أضع أمام المسلمين في مختلف بقاع الأرض صوراً حية للإنتصارات العظيمة التي حققها الإسلام خارج حدود الجزيرة في العراق وفارس وبلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا ، وحتى أسلط الأضواء على مواقف البطولة والرجولة لأتباع محمد عليه الصلاة والسلام الذين خرجوا من الجزيرة حاملين سلاحهم وأرواحهم ليظهروا دين الله ولينشروا في الخافقين لواءه ، وحتى أوضح للأجيال التي تعيش اليوم في حدود العالم الإسلامي السبل والطرق التي اتبعها رجال محمد في الماضي ، فمعرفة الماضي تقودنا إلى المستقبل ، وتوجه جهودنا إلى خير الإسلام وخير المسلمين ، وحتى يفهم أعداء الإسلام السر العظيم وراء انتصارات رجاله ، فهم يقولون إنه لولا السيف والتهديد والإكراه ما وجد الإسلام من يؤمن به ويدخل فيه ، بينما الحقيقة التي تظهر من خلال صفحات هذا الكتاب تؤكد أن سر الإنتصار يقبع في عوامل متعددة ... أولها الإيمان المطلق الذي ملأ قلوبهم ، فيسر لهم كل عسير ، وذلل كل صعب ، وجمع كلمتهم وقلوبهم على الجهاد ، وجعلهم يلقون الموت راضين مستبشرين ... وثانيها أنهم ساروا إلى الأمم على شريعة جامعة وقانون محكم لا يعتدون ولا يبغون ولا يبتغون ملكا أو سلطاناً أو جبروتاً أو مالا ... وثالثها أنهم كانوا جماعة نظام وجند رسالة ، ودعاة دين ، ورسل حق وعدل .

— ٣ —

وبدأت الجولة الأولى للمسلمين خارج حدودهم مع العراق ، حيث يعيش الفرس ، وحيث كان العرب منتشرين فى أرجائها ، بل وحيث كانت هناك إمارة عربية فى الحيرة موالية للفرس .

ومن هنا اتجه تفكيرى إلى إعداد هذا الكتاب فأسجل فيه اللقاءات المتعددة بين المسلمين والفرس .

ولقد حرصت وأنا أعد مادة الكتاب على أن أقرأ كل ما وقع تحت يدى من مراجع حتى تكون مادته متكاملة غير منقوصة ، فتتحقق الفائدة التى أرجوها من نشر هذه الصفحات الرائعة من تاريخنا الإسلامى المجيد .

وخلال ثلاث سنوات من الدراسة والبحث انتهيت من إعداد مادة الكتاب ، واستجاب الله تبارك وتعالى لرغبتى فى أن يكون لى مع كل شهر رمضان فى كل عام لقاء ، فبانتهاء شهر رمضان من عام ١٣٨٤ (١٩٦٥) فرغت من إعداد الكتاب مادة وكتابة .

ولقد تفضل أستاذنا الجليل فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقورى مدير جامعة الأزهر ، ورجل الدين الذى ألقيت على عاتقه مسئولية التوجيه الدينى فى مجتمعنا الثورى ومهمة إمداد هذا المجتمع بالعناصر الصالحة ديناً وعلماً ، فأولى كتابى عنايته ورعايته واهتمامه وتشجيعه ، فاطلع عليه ثم تفضل مشكوراً بتقديمه إلى قراء العربية .

— ٤ —

وأخيراً . . . .

ها هو ذا الكتاب بين يدى القارىء الكريم .

وغاية ما أرجوه أن يجد فيه دراسة نافعة ممتعة ، فقد بذلت جهد طاقتى ليخرج الكتاب متكاملا قدر الإمكان مادة وأسلوباً وعرضاً .

وأحمد الله تبارك وتعالى الذى يسر لى إخراج الكتاب فله وحده الفضل والمنة ، وأدعوه تعالى مخلصاً أن يسدد خطانا فيما نحن مقبلون عليه من دراسات إسلامية جديدة ، وأن يهيىء لنا من العزم والتوفيق بما يمضى بنا على الطريق .

محمد فرج

الباب الأول

دراسة تمهيدية

العلاقات بين العرب والفرس

قال رسول الله

هذا يوم انتصفت فيه العرب
من العجم ونصرت عليهم بي

عقب انتصار العرب على الفرس
في يوم ذي قار

مناعة الجزيرة العربية

عاشت الجزيرة العربية (١) فى عصر ما قبل الإسلام — وهو العصر الذى اتفق على تسميته بالعصر الجاهلى — عزيزة الجانب ، بفضل موقعها الجغرافى ، وطبيعة أرضها ، ومناخها ومواردها .

فالجزيرة نجد كبير واسع الأطراف منبسط هادىء التضاريس جبالها هضابية لا تشكل أية عثرة فى الانتقال ، يأخذ فى الانخفاض التدريجى إلى الشرق والشمال الشرقى ، حتى ينتهى إلى أرض الجزيرة والعراق وخليج فارس(٢)، وصحاريها عامة هى النفود شمالا ، وتتصل ببادية الشام والصحراء العربية(٣) بالجنوب ، النفود حصباوية صخرية ، والصحراء العربية رملية ، وسهولها منبسطة طويلة ، ضيقة ، تنحصر بين الجبـــال وشاطىء البحر الأحمر(٤)، خالية من الأنهار ، ما عدا وديان صغيرة ، تجرى من الجبال فى الغرب ، وتجف أيام الجفاف بل تذهب معالمها .

---

(١) التسمية الصحيحة هى شبه جزيرة العرب ، وهى أكبر أشباه الجزائر فى العالم ، ١٤٠٠ ميل ، وعرضها ٨٠٠ ميل ، ومساحتها مليون و١٢٠ ألف ميل مربع ، وشواطئها قليلة الخلجان والموانى الجيدة .

ويذهب المفسرون لاسم الجزيرة ثلاثة مذاهب :

(١) لفظ عرب مشتق من اعراب أى القدرة على التعبير ، وأهل الجزيرة كانوا على جانب من البلاغة وحسن البيان ، فأطلقوا على أنفسهم لفظ عرب ، بينما أطلقوا على غيرهم من الدول لفظ العجم ، أى العجز عن الإفصاح .

(ب) يقال إن أول من نزل بالجزيرة هو يعرب بن قحطان ، ولهذا نسبت الجزيرة إليه .

(جـ) سميت الجزيرة فى أول الأمر باسم عرابة ، ومعناه فى اللغات السامية صحراء وجاء فى سفر التكوين جـ ١ أن كلمة بلاد العرب ذكرت لأول مرة زمن سليمان ، قبل الميلاد بألف عام .

(٢) أقصى ارتفاع لها فى جهة الشرق ١٥٠٠ قدم ، وفى بلاد اليمن ٧٠٠٠ قدم .

(٣) تسمى رمال الأحقاف ، وتسمى أيضاً الربع الخالى .

(٤) يبلغ عرضها من ٤٠ — ٨٠ ميلا مابين الجبال وشاطىء البحر .

ومناخ الجزيرة حار لوقوع أكثرها فى المنطقة الحارة (يمر مدار السرطان بوسط الجزيرة)، وتزيد حرارتها فى الجنوب، ولأنها داخلية لا تصلها الرياح البحرية التى تلطف من شدة الحر، ورغم أن الرياح الموسمية الجنوبية الغربية تجرى إليها صيفاً — وهى فى طبيعتها ممطرة — إلا أن أمطارها فى بلاد العرب لا تكاد تذكر، بينما تسقط أمطارها بغزارة فى الحبشة ... وأكثر جهات الجزيرة أمطاراً هى اليمن، حيث تسقط الأمطار بين منتصف شهر يونيه وشهر سبتمبر .

إذن نستطيع أن نلخص طبيعة الجزيرة العربية، فنقول إنها بلاد صحراوية، تنقص بها المياه نقصاً فاحشاً، ومناخها شديد الحرارة شديد الجفاف، وأنها منطقة جرداء لا تيسر الاستقرار، ولا تجلب الحضارة، ولا تشجع على حياة غير حياة البادية؛ وما تقضى به من الارتحال الدائم وانتجاع مراعى الإبل حيثما تكون .

تخرج من هذا العرض السريع لطبيعة الجزيرة العربية، بحقيقة جوهرية هامة، هى أن هذه الطبيعة، كانت السياج الذى حفظ الجزيرة من الغزو الخارجى، فإن إحدى الدولتين الكبيرتين، اللتين عاصرتاها، وأعنى بهما دولة الفرس ودولة الروم، لم تفكر فى غزوها ونشر نفوذها فى أراضيها، أو فى ضمها إلى أملاكها والسيطرة عليها، رغم ما اشتهرت به كل منهما، من الرغبة الجادة فى زيادة رقعتها، واتساع نفوذها ... هذه الرغبة التى تتمثل تاريخاً وواقعاً فى الحروب الكثيرة التى قامت بين الدولتين (١).

كانت الدولتان تحيطان بشبه الجزيرة، ورغم ما كان لكل منهما من

---

(١) العداوة بين الفرس والروم قديمة ربما تجاوزت القرن الخامس قبل الميلاد وكانت ترجع إلى التنازع على السيادة فى العالم لأنهما كانتا أعظم الدول فى هذه الأونة وأرادت كل منها الاستئثار بالسلطة واتصلت هذه العداوة إلى زمن الاسكندر ثم الرومان ثم إلى أيام الإسلام .

المطامع التوسعية والاستعمارية ، فإن شبه الجزيرة ظلت آمنة من الغزو .

وهذه ظاهرة تبدو غريبة ، ولكن يفسرها كما أوضحنا ، موقع بلاد العرب وطبيعة أرضها ، وأثر هذا الموقع وتلك الطبيعة فى مناعتها ، التى صرفت نظر هاتين الدولتين عنها ، وعصمتها من الغزو الاستعمارى .

ولكن هذا لا يعنى أنه لم يكن هناك إتصال بين العرب وجيرانهم من الفرس والروم ، فإن الإتصال لم ينقطع ، وخاصة مع الفرس ، وقد اتخذ هذا الاتصال ثلاثة مظاهر ، سنتناولها بالحديث وهى :

* قيام مملكة الحيرة .

** إستيلاء الفرس على بلاد اليمن .

*** الحروب التى دارت بين العرب والفرس .

(١) مملكة الحيرة

كانت بعض القبائل العربية تغير على بلاد الفرس ، بقصد النهب والغزو ، وتهديد الأمن فى القرى الزراعية والمراكز التجارية المجاورة لها ، كلما أصابها الجدب ، مما دعا دولة الفرس ، إلى تمهيد السكنى لبعض القبائل العربية ، فى الأراضى القريبة من حدودها ، لتستعين بها على الوقوف فى وجه القبائل العربية الأخرى ، التى تشن غاراتها بين فترة وأخرى .

فقد كان العرب فى العصور القديمة ، يفدون إلى التخوم الشرقية لجزيرتهم حتى إذا وصلوا وادى الفرات ، أقاموا فى ربوعه ... وفى أوائل القرن الثالث ؛ بدأت قبائل من تنوخ — وهى من أصل يمنى — تفد إلى المنطقة ، واتخذت لها مساكن فى المنطقة الخصبة الواقعة إلى الغرب من الفرات .

ووافق قدومهم وسكناهم هذه المنطقة ؛ قيام الدولة الساسانية فى بلاد العراق وفارس ؛ على يد أردشير بن بابك ؛ وحاول أردشير طرد العرب من تخوم دولته ، ولكنه لم يستطع ، ثم رأى من حسن السياسة أن ينتفع بهم فأسس لهم إمارة الحيرة[1] (٢٤٠ م) ، وعين عمرو بن عدى أميراً عليها . . وظلت أسرة عمرو تتقلد زمام الحكم فى الإمارة ، حتى دخلت فى حوزة الإسلام ، فى عهد الخليفة الأول أبى بكر الصديق .

---

(١) تقع على ثلاثة أميال من مكان الكوفة ، فى موضع يقال له النجف ، على ضفة الفرات الغربية ، فى حدود البادية بينها وبين العراق ، واشتهرت بصحة هوائها ، حتى قيل « يوم وليلة فى الحيرة خير من دواء سنة » .

وسميت الحيرة بمعنى الضلال ، لأن من بلغ موضعها ضل دليله وتحير . . . وقيل إن مالكا حين نزلها جعلها حيرا أى بستانا . . وقيل إن لفظها سريانى بمعنى الحصن أو المعتقل حوله خندق .. وقيل إنها سميت كذلك من الحوار أى البياض لبياض أبنيتها .

وكانت العلاقة بين الدولة والإمارة قائمة على أساس استقلال الإمارة إستقلالا تماماً فى جميع شئونها وأحوالها ، بشرط أن يقدم أهلها (عرب الحيرة) الطاعة والولاء لكسرى فارس ، وأن يقوموا بصد كل إغارة على بلاد العراق وفارس من نواحيهم ، فى مقابل إعفائهم من دفع الأتاوة ، واتخذت الدولة الإمارة عوناً لها فى حربها ضد الروم(١) .

إلا أن ملوك فارس ، فى أواخر القرن السادس الميلادى ، وأوائل القرن السابع ، رغبوا فى أن تكون الإمارة تابعة لهم ، وليست مستقلة ، فأخذوا يتداخلون فى شئونها ، وخاصة فى تولية ملوكها ، كما حدث فى تولية النعمان بن المنذر ، وإياس بن قبيصة ، فقد توليا الإمارة بناء على أوامر كسرى أنو شروان .

ولقد ساعدت إمارة الحيرة ، دولة الفرس ، فى حروبها ضد الدولة الرومانية ... فقد حارب المنذر الثالث بن أمرىء القيس ، الملقب بابن ماء السماء (تولى الحكم سنة ٥٢٠م) ، أمبراطور الروم جستنيان ، وحليفه الحارث ابن أبى شمر الغسانى ، وأوقع بهما الهزيمة ، واضطر الأمبراطور الرومانى إلى عقد صلح سنة ٥٢٢ م ، قبل بموجبه ، أن يدفع مبلغاً من المال للملك الفرس وللمنذر ، وعاد القتال بينهما مرة أخرى فى ٥٤١ م ، وانتهى بقتل المنذر فى موقعة مرج حليمة(٢) .

---

(١) قامت دولة مماثلة على حدود الدولة الرومانيـة فى بلاد الشام إذا سارت قبائل من قضاعة إلى الشام ، وسكنت فى شمال غرب الجزيرة العربية ، فيما يسمى الآن الأردن ، لخصوبة أرضها ، واستعان بهم الرومان لصد هجمات العرب من جهة ، وللقيام ضد الفرس من جهة أخرى ، وسميت هذه الدولة باسم دولة الغساسنة ، وأقام الرومان عليها جفنة بن عمرو ملكا وبقيت الدولة قائمة حتى جاء الإسلام ، وأصبحت جزءاً من دولته بعد موقعة اليرموك سنة ١٣ هجرية .

(٢) سميت الموقعة بيوم حليمة ، لأن الحارث دعا ابنته حليمة ، وكانت من أجمل النساء ، وأعطاها طيباً ، وأمرها أن تطيب من مر بها من جنده ، فكانوا يمرون بها =

وحارب إياس بن قبيصة ، ومعه جند الفرس ، قبيلة بكر بن وائل ، يتقدمها هانىء بن مسعود الشيبانى ، فى موقعة ذى قار[1] ، وانتصر فيها العرب على قوات الدولة والإمارة ، مما دعا كسرى إلى محاولة تدعيم سلطانه فى الحيرة ، فجعل الولاة عليها من الفرس ، وكان أولهم يقال له إزاذبة ، ولكن المناذرة استطاعوا أن يستعيدوا سلطانهم فى الحيرة ، حين ضعف شأن الفرس ، وقامت بينهم الفتن والثورات ، وكان المنذر بن النعمان أبو قابوس أول من تولى شئون الإمارة وبقى عليها حتى فتحها خالد بن الوليد .

تولى ملك الحيرة خمسة وعشرون ملكا ، كان أولهم مالك بن فهم ، الذى كان يسمى ملك تنوخ ، وفى عهده أصبحت الحيرة مدينة ، بعد أن كانت مجرد حصن من أيام بختنصر ، وملك مالك عشرين عاماً ، ومات من رمية أحد خواصه الذين تربوا فى نعيمه ، ويسمى سلمة بن مالك ، ولما عرف مالك أن سلمة هو قاتله قال :

جزانى لا جزاه الله خيراً ‏ ‏ ‏ سليمة إنه شراً جزانى
أعلمه الرماية كل يوم ‏ ‏ ‏ فلما اشتد ساعده رمانى
وكم علمته نظم القوافى ‏ ‏ ‏ فلما قال قافية هجانى

وخلفه أخوه عمرو بن فهم ، ثم جذيمة الأبرش[2] .

= وتطييبهم ، ثم نادى « يافتيان غسان من قتل ملك الحيرة زوجته ابنتى » ، فقال لبيد بن عمرو الغسانى لأبيه « يا أبت أنا قاتل ملك الحيرة ، أو مقتول دونه لا محالة ، ولست أرضى فرسى ، فأعطنى فرسك » فأعطاه فرسه ، فلما زحف الناس واقتتلوا ساعة ، شد لبيد على المنذر ، فضربه ضربة ، وألقاه عن فرسه ، وقطع رأسه ، ثم أقبل بها إلى الحارث ، فألقاها بين يديه ، فقال له الحارث « شأنك بابنة عمك فقد زوجتكها » ، ولكن لبيدا عاد إلى القتال ، وقاتل وقتل .

(١) سنتحدث عن موقعة ذى قار بالتفصيل بعد قليل .

(٢) تكتب فى بعض المراجع الأبرص ... وجذيمة هو آخر ملك من تنوخ قضاعة وهو ابن مالك بن فهم ، وقيل فى بعض المراجع ابن أخته وكان من أفضل الملوك رأياً وكان له جيش منظم .

ومن أشهر ملوك الحيرة عمرو بن عدى[١] ، الذى اتخذ الحيرة عاصمة لملكه ، وتولى الملك بالاتفاق مع أرد شير كسرى الفرس ، وهو صاحب القصة المشهورة مع الزباء[٢] .

وتولى أمرؤ القيس بن عمرو الملك بعد أبيه ، واتسعت حدود الإمارة فى عهده، إذ ضم إليه بهرام بن هرمز[٣] ، بادية العراق والجزيرة والحجاز ، وقد طال ملكه إلى أيام سابور الثانى ، وكان أول من تنصر من ملوك الحيرة .

ثم تولى بعده إبنه النعمان ، صاحب الخورنق والسدير[٤] ، وهما قصران بالحيرة ، وقيل فى سبب بنائهما أن يزدجرد ابن بهرام بن سابور[٥] كان لا يعيش له ولد ، فسأل على مكان صحيح الهواء فقيل له ظهر الحيرة ، فدفع إبنه بهرام جور إلى النعمان ، وأمره ببناء الخورنق سكناً له ، فبنى الخورنق رجل من الروم يسمى سنمار ، فلما فرغ من بنائه تعجبوا من حسنه وإتقان عمله ، فقال « لو علمت أنكم توفونى أجرى ، وتصنعون بى ما أنا أهله ، بنيته بناء يدور مع الشمس حيثما دارت» ، فقال النعمان «وإنك لتقدر على أن تبنى ما هو أفضل منه ثم لم تبنه ؟ » ، وأمر به ، فطرح من أعلاه[٦] ، وفى ذلك قال أحد الشعراء :

---

(١) عمرو بن عدى ربيعة بن نصر اللخمى ... كان جده من ملوك اليمن .

(٢) يمكن الوقوف على تفاصيل القصة فى مروج الذهب جـ ١ ص ٢٩٠/٢٩١ وفى تاريخ العرب القدامى جـ ١ ص ٣١/٣٢ .

(٣) هرمز بن سابور الأول بن أردشير .

(٤) الخورنق معناه موضع الأكل والشرب وأصلها بالفارسية خورنقاه السدير معناه البيت ذو القباب .

(٥) قيل إنه كان سيء الخلق ، كثير الشر ، قليل الخير ، بقى فى الملك ٢١ عاما ، وقتله فرسه .

(٦) قيل فى رواية أخرى أن سنمار قال « أنا أعرف فيه حجراً ، متى أخذ من موضعه ، تداعى البناء» فخاف النعمان إن هو لم ينصفه فى أجره ، أن يفعل ذلك، فقتله ، وسار ما صنعه النعمان بسنمار سير الأمثال « جزاه جزاء سنمار » [الطبرى جـ ٢ س٧٢] . ومما يذكر عن النعمان أنه كان له جيش منظم من خمس كتائب هى الرهائن ، والصنائع ، والوضائع، والأشاهب ، والدواسر .

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر   وحسن فعل كما يجزى سنمار

وذكر الأصفهانى ، واتفق معه الطبرى[١] ، أن النعمان ، بعد أن قضى ثلاثين سنة فى الملك ، أشرف من الخورنق على النجف وما يليه من نخيل وبساتين وأنهار وجداول مما يلى المغرب ، وعلى الفرات مما يلى المشرق ، فأعجبه ما رأى ، وسأل وزيره « أرأيت مثل هذا المنظر وحسنه ؟» ، .. فقال « ما رأيت مثله لو كان يدوم» ، فسأله «وما الذى يدوم ؟ » ، أجابه « ما عند الله » ، فأعاد سؤاله « فيم ينال ذلك ؟ » ، أجابه « بترك هذه الدنيا وعبادة الله والتماس ما عنده» ، فترك النعمان ملكه ، ولم يعد وقيل أنه التحف بكساء وساح فى الأرض ولم يره أحد . . . وفى ذلك يقول الشاعر عدى بن زيد يخاطب النعمان :

وتدبَّرْ رب الخورنق إذ   أشرف يوما وللهُدى تفكير

سرَّه حاله وكثرة ما يملك والبحر مُعرضاً والسدير

فارعوى قلبه فقال : وما غبطة حىٍّ إلى الممات يصير ؟

ثم بعد الفلاح والملك والأمة[٢] وارتهم هناك القبور

ثم أضحوا كأنهم ورق جف فألوت به الصَّبا والدَّبور[٣]

وتولى بعده ابنه المنذر الحكم ، وكان ملكا قوياً شديد البأس ، قيل أنه هو الذى تولى تربية بهرام جور ، حين دفع به إليه والده يزدجرد[٤].. وللمنذر دور كبير فى تولية بهرام الملك ، فقد أبى الفرس أن يتولى بهرام أمرهم ، بحجة أنه نشأ فى بيئة عربية ، ولا يعرف شيئاً عن قومه الفرس ،

---

(١) تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ص ٥٦٨
تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ ص ٧٣

(٢) أى النعمة .

(٣) الصبا والدبور ريحان . . الأولى تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل بالنهار والثانية تقابل الأولى (الطبرى جـ ٢ ص ٧٢) .

(٤) فى بعض الروايات أن النعمان هو الذى قام بتربية بهرام .

فاستغاث بهرام بالمنذر الذى جهز جيشاً من أربعين ألفاً من فرسان العرب، وأرهب الفرس ، وأقنعهم بقبول تولى بهرام الملك خلفا لأبيه ... وللمنذر أيضاً دور هام فى حماية ملك بهرام، فقد هاجم الروم بلاد الفرس،واحتلوا نصيبين ، فاستغاث بهرام بالمنذر ، فجهز جيشاً ، وقاتل الروم ، وانتصر عليهم ، ثم تعقبهم فى داخل سورية ، حتى طلب ملك الروم الصلح .

ومن أشهر ملوك الحيرة المنذر بن ماء السماء(١) ، الذى تولى الملك فى عهد الملك قباذ ، ففى عهده ظهر مزدك صاحب الديانة المزدكية ، وآمن قباذ بدعوته ، وطلب أن يؤمن بها المنذر، فرفض وغضب عليه قباذ ، وعزله وولى مكانه الحرث بن عمرو بن حجر ملك كندة . وقامت ثورة فى فارس، واختفى المنذر حتى هلك قباذ ، وتولى بعده كسرى أنو شروان ، فأعاد المنذر إلى ملكه ، وفر الحرث وعادت المجوسية بعد أن قتل مزدك .

وفى عهده وقع يوم عين أباغ(٢) ، فقد سار المنذر حتى بلغ عين أباغ ، وأرسل إلى الحارث الأعرج ملك العرب بالشام، وقال له «إما أن تعطينى الفدية فانصرف عنك بجنودى وإما أن تأذن بحرب» ، فطلب منه الحارث مهلة يبحث فيها الأمر مع قومه ، ثم جمع عساكره وأرسل إلى المنذر « إنا شيخان فلا تهلك جنودى وجنودك ، ولكن يخرج رجل من ولدى ويخرج رجل من ولدك ، فمن قُتل خرج عوضه ، فاذا فنى أولادنا ، خرجت أنا إليك فمن قتل صاحبه ذهب بالملك » . وتعاهد الاثنان على ذلك . . . وأخرج المنذر رجلا من شجعان أصحابه ، ولم يُخرج إبنه ، وقتل الرجل ولدين للحارث ، وأغضب

(١) قيل إنه سمى بماء السماء كناية عن كثرة عطاياه .

وقيل إنه نسب إلى أمه ماء السماء ماوية بنت عوف من بنى النمر بن قاسط وأنها سميت بماء السماء لأنها كانت مليحة .

وقيل إنه كان يلقب أيضاً بذى القرنين لضفيرتين كانتا له من شعره .

(٢) واد وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشام .

ذلك شمر بن عمرو الحنفى — وهو من رجال المنذر — فقال له « أيها الملك إن الغدر ليس من شيم الملوك ولا الكرام ، وقد غدرت بابن عمك دفعتين » فغضب منه المنذر وطرده ، فانضم إلى الحارث ، ودار القتال بين الطرفين ، وقتل المنذر ، وهزمت جيوشه ، وحمل الحارث إبنيه القتيلين على بعير ، وجعل المنذر فوقهما ، وسار إلى الحيرة وأحرقها ، ودفن إبنيه بها ، وبنى الغريين عليهما[١] . . . وقال ابن الرعلاء الضبانى فى هذا اليوم :

كم تركنا بالعين عين أُباغ   من ملوك وسوقة أكفاء
أمطرتهم سحائب الموت تترى   إن فى الموت راحة الأشقياء
ليس من مات فاستراح بميت   إنما الميت ميت الأحياء

وانتقل المُلك فى الحيرة من المناذرة ، حين ولى كسرى إياس بن قبيصة الطائى عليها [٢] بعد أن قتل النعمان بن المنذر . . . وفى عهد إياس وقعت واقعة ذى قار ، وهزم فيها الفرس أمام العرب ، فغضب كسرى ، ولكنه أبقى إياساً دون أن يعزله ، فظل على ملكه حتى جاء خالد بن الوليد إلى العراق فصالحه إياس على مائة وستين ألف درهم ، فلما علم بذلك كسرى غضب عليه وعزله .

وبعزله عاد المناذرة إلى الملك ، فتولى المنذر بن النعمان بن المنذر ، الذى عرف بالمغرور ، وبقى ملكا حتى قدوم خالد إلى الحيرة .

وقتل المنذر بالبحرين فى يوم جواثاء ، فقد ارتد أهل البحرين بعد وفاة الرسول الكريم إلا بنو بكر ، فقد بقوا على إسلامهم ، وحاصر المرتدون المسلمين فى جواثاء ، فأرسل اليهم أبو بكر العلاء بن الحضرمى ، فهزم المشركين .

---

(١) بناءان بالكوفة قيل إن الذى بناهما هو النعمان بن المنذر .
والغريان مثنى غرى ، وهو البناء الحسن .

(٢) عين كسرى مع إياس رجلا فارسياً شاركه فى شئون الحكم إسمه النخيرجان .

وأُسر المنذر، فأعلن إسلامه، ولكنه عاد نخان المسلمين، وهرب، فتبعوه وقبضوا عليه، وقتلوه.

وبقتله انتهت دولة المناذرة بعد أن بقيت خمسمائة سنة.

ولا يفوتنا أن نشير فى ختام الحديث عن دولة الحيرة أن أهلها كان لهم أثر كبير فى الحضارة العربية، فقد جابوا أرجاء الجزيرة بالتجارة، واشتغلوا بتعليم القراءة والكتابة، وساعدوا على نشر النصرانية فى بلاد العرب، على أثر اعتناق بعض ملوكهم الدين المسيحى بعد تركهم الوثنية، وكان أهلها واسطة بين الفرس والعرب، وعلى أيديهم انتقلت الحضارة الفارسية الى بلاد العرب.

(٢) استيلاء الفرس على بلاد اليمن

قلنا إنه فى الوقت الذى قامت فيه إمارة الحيرة ، قامت أيضاً على حدود دولة الروم إمارة عربية ، هى إمارة الغساسنة .

ومن قبل هاتين الإمارتين قامت فى اليمن ثلاث دول ، إحتلت مكاناً كبيراً مرموقاً فى التاريخ العربى ، وساعد على قيامها ، أن هذه البقعة من الجزيرة العربية (نقصد اليمن) ، لم تكن كسائر شبه الجزيرة صحراوية جرداء ، لا تلفت الأنظار ، ولا تجعل لدولة من صداقتها فائدة ، ولا لمستعمر فيها مطمع ، بل كانت أرضها خصبة ، وأمطارها منتظمة ، وكانت موطن حضارة مستقرة ، ذات مدائن ومعابد ، كما كان قومها ذوى فطنة وذكاء وعلم .

كانت اليمن تنقسم إلى محافد[1] ، من أشهرها غمدان ، وناعط ، وصرواح ، وظفار ، وكان يحدث فى بعض الأحيان ، أن تنضم عدة محافد ، ويتولى شئونها حاكم يسمى قيل[2] ، ويُطلق على مجموع المحافد لفظ مخلاف . وكان أضخم هذه المخاليف وأخصبها مخلاف صنعاء حتى أن رؤساءه كانوا يلقبون بالملوك .

إن الدول الثلاث التى قامت فى اليمن هى :

— دولة معين .

---

(١) جمع محفد ، وهو يشمل عدة قصور تشبه الحصن أو القلعة ، ويحيط به سور ، ويقيم فيه شيخ أو أمير يعرف بلفظ ذو أى صاحب ، ويضاف هذا اللفظ إلى إسم المحفد .

(٢) مفرد أقيال وسمى بذلك لأنه ذو القول : أى الذى إذا قال لم يرد أحد قوله .

— دولة سبأ

— دولة حمير

قامت دولة معين فى منطقة الجوف الجنوبى شرقى صنعاء ، وتشمل قتبان وحضرموت وإقليم ملخ ، وكانت قارنا [١] عاصمة الدولة ، وكانت رياسة الدولة تنتقل من الأب إلى الإبن ، وكان من الجائز أن يشترك الاثنان معاً فى الحكم ، واستطاع بعض الباحثين أن يهتدوا إلى معرفة ستة وعشرين من ملوك هذه الدولة ، ولو أنهم لم يتوصلوا إلى معلومات عن أعمال هؤلاء الملوك ، ومدد حكمهم ، إلا أنهم استدلوا من النقوش التى كشفت فى جنوب الجزيرة ، ومما كتبه مؤرخو اليونان ، أن نفوذ هذه الدولة إمتد شمالا حتى الخليج الفارسى وأعالى بلاد الحجاز مما يلى سواحل البحر الأحمر ، ويقول المؤرخون إستناداً إلى النقوش ، وإلى ماورد فى التوراة ، وإلى ما كتبه مؤرخو اليونان ، أن معين ظهرت فى الألف الثانى قبل الميلاد ، وأنها كانت على جانب عظيم من القوة والثروة ، وأن أهلها هاجروا مع غيرهم من القبائل من العراق واتخذوا من اقليم الجوف فى اليمن مقراً لهم ، وشيدوا هناك القصور والمحافد ، على مثال ما شاهدوه فى بابل .

أما أبنـــاء دولة سبأ ، فقد عاشوا بجوار المعينين ، واختلطوا بهم ، واقتبسوا منهم لغاتهم وعاداتهم ، ثم قوى أمرهم ، فأخذوا يتوسعون على حساب المعينين ، وكانت دولة صرواح هى عاصمتهم ، وبعد أن اشتد ساعدهم قضوا على دولة معين ، وأسسوا دولتهم ، وامتد نفوذها من ساحل الخليج الفارسى شرقاً إلى البحر الأحمر غرباً ، وآلت إليها السيادة على الجزء الجنوبى من بلاد العرب ، وكانت الدولة ذات طابع تجارى جعلها تتمتع بثروة عظيمة .

(١) أصلها القرن ويسميها اليونانيون كرناً أوقارناً .

مرت دولة سبأ بعصرين . . عصر انتهى فى ٦٥٠ ق . م ويسمى مكرب سبأ[١] ، وتلقب بهذا اللقب سبعة عشر ملكا ، وعصر انتهى فى ١١٥ ق . م وكان الحكام يلقبون بـ ملك سبأ ، وكانت مأرب[٢] هى عاصمة الدولة فى العصر الثانى ، وذكرها استرابون — وهو رحالة يونانى فى القرن الأول قبل الميلاد — فقال أنها كانت فى زمانه مدينة عجيبة سقوف أبنيتها مطعمة بالذهب والعاج والحجارة الكريمة .

وكانت الدولة ذات تجارة واسعة النطاق ، تتبادلها مع مصر وسورية وبابل ، وكانت تتجر فى البخور والبهار ، وكان لها سطول بحرى ، وقوافل تخترق الصحراء .

ومن أشهر ما عرفت به دولة سبأ سد مأرب ، الذى حول اتجاه المياه الطبيعى تحويلا تقتضيه حياة الحضارة والاستقرار ، فقد كانت الأمطار تنزل بجبال اليمن ، ثم تنحدر فى واد عرضه أربعمائة متر تقريباً شرق مدينة مأرب وتضيع المياه دون استغلالها ، بما لا يعود بفائدة ما ، ورأى أهل مأرب إقامة سد ، يحفظ لهم هذه الكميات الضخمة من المياه ، وتوزيعها إلى حيث تروى الأرض ، فتزيد إنتاجاً وإثماراً ، وبنى فعلا السد بالحجر عند مضيق الوادى .

---

(١) يتضمن هذا اللقب معنى الكهانة ، أى أن حاكم سبأ كان ملكا وكاهناً .

(٢) تقع مأرب على بعد ١٠٠ ك . م شرق صنعاء ، وعلى ارتفاع ٣٩٠٠ قدم .
ومأرب لفظ مركب من ماء و راب ، أى الماء الكثير
ويقول أوليرى O Leary فى كتابه « العرب قبل محمد » أن حاضرة سبأ هى مريابة وتقع جنوب شرق مأرب .Arabis before Mohamed (p. 90)
ويقول بعض المؤرخين أن سبأ هى مارب ، ولكن فيليب حتى Hitti فى كتابه « تاريخ العرب » History of the Arabs (p. 55). يقول إن سبأ هو الإسم الذى يطلق على البلاد والشعب وليس على المدينة .

ومع ما كان لدولة سبأ من تقدم فى الحضارة والتجارة ، لم تكن لها قوة حربية بدليل أن ملكتها بلقيس استسلمت لسليمان إثر تسلمها رسالة منه .

وكما كان سد مأرب هو غاية الحضارة فى دولة سبأ ، فقد كان سبب انهيارها وزوالها ، فقد أهمله الملوك ، فتصدعت جوانبه ، ولم يعد يحتمل تدفق السيول والمياه المحجوزة خلفه ، فتصدع وانهار ، وغمرت مياهه ما حوله من القرى والمزارع ، واضطر الناس إلى الرحيل والمهاجرة إلى الجهات الشمالية ، فهاجر بنو غسان إلى حوران ، وبنو لخم إلى الحيرة ، وجعل الغساسنة انهيار السد بداية لعهد جديد لهم ، وصاروا يؤرخون به حوادثهم .

وكانت حمير وكهلان من قحطان[١] يتنازعان الرياسة ، ويتنافسان على الملك ، وقسموا البلاد إلى مخاليف . . . وتقع مملكة حمير بين سبأ والبحر الأحمر فى منطقة قتبان ، واتسعت حدودها فشملت سبأ وريدان[٢] ، وكان رئيس الدولة يسمى ملك سبأ وذو ريدان ، ثم أصبح بعد ذلك يسمى ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويَمْنات .

وظهرت المملكة فى ١١٥ ق . م ، واستمرت حتى ٦٤٠م ، وأصبحت ريدان هى العاصمة بدلا من مأرب ، وكانت المملكة تهتم بالفتوح ، ونبغ حكامها كقادة حرب ، وسعوا إلى اتساع رقعة دولتهم ، وتغلبوا على بعض البلاد المجاورة ، وذكرت بعض المراجع أن شمر يرعش — وهو أشهر ملوك حمير — وطىء أرض العراق وفارس وخرسان وفتح مدائنها ، وخرب مدينة الصغد وراء جيحون ، وبنى هناك مدينة عرفت باسمه هى سمرقند[٣] ، كما ذكرت بعض الروايات أن أسعد أبو كرب — وهو من ملوك

---

(١) من العرب القحطانيين .

(٢) سميت ريدان فيما بعد باسم ظفار .

(٣) كتاب التيجان فى ملوك حمير لابن هشام الحميرى ص ٢٢٢ ، ص ٢٩٤/٢٩٦ .

حمير أيضاً — غزا أذربيجان ، وهزم ملك الفرس ، وملك سمرقند ، وتوغلت جيوشه فى بلاد الصين ، وحاصر روما والقسطنطينية التى أدت له الجزية .

وكانت المملكة موضع تنافس بين الدولتين الساسانية فى فارس والرومانية الشرقية ، واستخدمت الدولة الرومانية سلاح الدين لبسط نفوذها ، فنشرت المسيحية فى بلاد الحبشة ، وأدخلتها فى بلاد اليمن ، وكانت الدولة الساسانية تعمل على عرقلة جهود الدولة الرومانية . . .

ومن أهم ملوك حمير يوسف ذو نواس[١] ، وكان يحكم بلاد نجران ، وكانت هذه البلاد تدين بالمسيحية ، إلا أنه اعتنق اليهودية ، فقد كان ميالا إلى دين موسى راغباً عن المسيحية التى تورط فيها قومه ، وكان قد أخذ هذا الدين عن اليهود الذين هاجروا إلى اليمن وأقاموا بها .

ودعا يوسف قومه إلى ترك المسيحية ، واعتناق اليهودية[٢] ، فعارضوه بقوة ، ووقفوا منه موقفاً حازماً ، فاضطهدهم وأبادهم عن آخرهم ، إذ حفر

---

(١) قال ابن اسحق « ذو نواس هذا إسمه زرعة بن تبان أسعد الحميرى وكان أيضاً يسمى يوسف وكان له غدائر من شعر تنوس أى تضطرب فسمى ذو نواس » .

(٢) قيل إن سبب تعصبه لليهودية ، يرجع إلى خوفه من أن يمتد نفوذ الدولة الرومانية إلى بلاد اليمن ، فتستولى عليها ، وتنشر الدين المسيحى الذى تؤمن به فيها . . والمعروف أن الدولة الرومانية هى التى نشرت الدين المسيحى فى الحبشة أولا ثم فى اليمن بعد ذلك .

وقد ذكر فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقورى فى مقدمته تفسيراً لقصة يوسف ذو نواس وحادث الأخدود يختلف مع ما رويناه . . ففضيلته يرى أن يوسف أراد لقومه أن يتحولوا من النصرانية إلى الوثنية على ما ذكره ابن كثير فى صدر رواياته ويرى فضيلته أن هذا أقرب إلى المنطق والواقع . . وبالرجوع إلى بعض كتب التفسير والسيرة وجدنا أن أغلبها يؤيد وجهة نظرنا فى أن يوسف دعا قومه إلى اعتناق اليهودية لا الوثنية ويمكن الرجوع فى ذلك إلى تفسير القرطبى (جـ ١ ص ٢٩٠ طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠) وتفسير ابن كثير (جـ ٤ ص ٤٩٢ طبعة عيسى البابى الحلبى) وكتاب قصص القرآن (ص ٢٩٤ الطبعة الأولى ١٩٣٧) .

لهم الخنادق ، وأشعل فيها النيران ثم ألقى بهم فيها(١) ؛ ومن لم يمت بالنار ، قتله بالسيف ، حتى قدر عدد الهالكين بعشرين ألفاً(٢) .

وأفلت من الموت رجل مسيحى اسمه دوس ، فأسرع بالهرب ، وتوجه إلى قيصر الروم جستنيان يستصرخه على ذى نواس ويستنصره ، فقال له « بعدت بلادك منا ، ولكن سأكتب لك إلى ملك الحبشة ، فإنه على هذا الدين ، وهو أقرب إلى بلادك » ، وكتب القيصر إلى ملك الحبشة يأمره بنصره ، ويطلب منه أن يأخذ بثأر المسيحيين ، فأرسل النجاشى سبعين ألفاً يقودهم أرياط وأبرهة الأشرم(٣) ، ونزل الجيش الحبشى بساحل اليمن ، والتقى بجيش ذو نواس ، فانهزم ذو نواس ، وهرب بفرسه إلى البحر حيث اختفى .

وأصبحت الأمور فى بلاد اليمن فى يد الأحباش ، الذين أذلوا رجالات حمير ، وهدموا حصون الملك بها . . . ثم اختلف أبرهة وأرياط ، فقتل أبرهة أرياط ، وتولى شئون الحكم فى اليمن ، فاستبد وطغى ، وعمل على استغلال أراضى اليمن واستعمارها ، واهتم بنشر المسيحية ، وبنى فى صنعاء كنيسة كبيرة ضخمة وفخمة ، وكان يطمع فى أن يتحول الحجاج

---

(١) ورد ذكر هؤلاء فى القرآن الكريم فى سورة البروج ١/٦ « والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود » .
وقد سماهم القرآن أصحاب الأخدود .

(٢) ذكر وهب بن منبه أنهم اثنى عشر ألفاً .
وذكر الكلبى « كان أصحاب الأخدود سبعين ألفاً » .

(٣) ذكرت بعض المراجع سبباً لغزو الأحباش لليمن وخلاصته أن إمبراطور الروم كان يطمع فى غزو اليمن للاستفادة من ثرواتها وخصبها فبعث عامله على مصر (اسمه ايلياس) جيشاً غزا به اليمن إلا أن الأمراض فتكت به ثم بعث بجيوش أخرى فشلت فى مهمتها فعز على النجاشى أن ينهزم الروم الذين يدينون بالمسيحية مثله أمام اليهود فى اليمن فقرر الثأر للرومانيين المسيحيين وجهز حملته إلى اليمن .

العرب إليها ، ولهذا أرسل جيشاً ليهدم الكعبة ، وسمعت العرب بخبر هذا الجيش الذى يتقدمه فيل عظيم ، فخافت العاقبة .

وقام رجل من أشراف أهل اليمن ، ودعا قومه إلى محاربة أبرهة وصده عما يريد من هدم بيت الله ، ولكن أبرهة هزمه وأسره ، وكذلك حاول نفيل بن حبيب الخثعمى ، فجمع قبيلتى شهران وناهس ، ولكنه هزم أيضاً وأسر .

وبلغ أبرهة مكة ، وبعث برجل من جيشه على فرسان له ، فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش ، ومن بينها بعير لعبدالمطلب بن هاشم ، وبعث أبرهة فى طلب سيد قريش وشريفها ، وقال رسوله لعبد المطلب « إن الملك لم يأت لحرب قريش ، وإنما جاء ليهدم هذا البيت ، فإن لم يعرضوا له دونه فإنه لا يحاربهم ، فإذا كان سيد قريش لا ينوى محاربة الملك ، فإنه يدعوه لزيارته » وقال عبد المطلب « لا نريد حربه ، ومالنا بذلك منه طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله ابراهيم عليه السلام ، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه » .

والتقى بعد ذلك أبرهة وعبد المطلب ، الذى سأله عن حاجته ، فأجاب « حاجتى أن يرد الملك علىّ إبلى » ، فتعجب أبرهة وقال له « لقد أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها منك ، وتترك الكعبة وقد جئت لهدمها » ، فقال له « أنا رب الإبل ، وإن للبيت رباً يحميه » ... فرد أبرهة إليه إبله .

وحاول عبد المطلب أن يمنع أبرهة عن قصده وغايته ، وأغراه بثلث ثروة تهامة ولكن أبرهة رفض ، فأمر عبد المطلب أن تخرج قريش إلى الجبال ، وتوجه إلى الكعبة ، وأخذ بحلقة بابها وأنشد :

لا هم إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك

لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبداً محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك

وتوجه أبرهة إلى الكعبة . وأمامه الفيل ، فما أن اقترب منها ، حتى عاد مذعوراً خائفاً ، وحاول الناس أن يوجهوه إلى الكعبة فما استطاعوا ، ثم أرسل الله عليهم طيراً تحمل أحجاراً صغيرة ، فيها جراثيم الجدرى والحصبة ، فأخذت تلقيها على أبرهة وجنده حتى أهلكتهم ، كما ثارت فى ذات الوقت ريح من ناحية البحر تحمل جراثيم الوباء ، وأصيب أبرهة بالعدوى ، فأمر الجيش بالعودة[1] إلى اليمن ، وكان المرض قد تمكن منه ، فمات عقب عودته ، ولحق بالعدد الكبير الذى مات من رجاله ، وأرخ أهل مكة بعام الفيل ، وخلده القرآن الكريم فى سورة الفيل .

وتولى الأمر فى اليمن بعد أبرهة ولداه يكسوم ثم مسروق ، وسار الإثنان على سياسة أبيهما ، فأذلا أهل اليمن ، وأساءا معاملتهم ، حتى ضج أهل اليمن ، وتمنوا زوال حكمهما الواحد بعد الآخر ، وخروج الأحباش من أرضهم إلى الأبد .

وجاء الخلاص على يدى يمنى يدعى سيف بن ذى يزن الحميرى ، كان أبرهة قد انتزع والدته من أبيه ذى يزن ، فولدت له ابنه مسروق ، خرج سيف إلى قيصر الروم ، وطلب منه أن يعاون فى إخراج الأحباش من اليمن ، على أن يكون له الملك ، فلم يجبه القيصر إلى طلبه ، بدعوى أن الحبشة تدين بدين النصارى الذى تدين به دولته قائلا «الحبشة على دين النصارى» .

وكان لابد لسيف من أن يتخذ خطوة إيجابية ينقذ بها أهله وبلده ، فاتجه ناحية الفرس ، حيث التقى بالمنذر بن ماء السماء أمير الحيرة ، فشكا

---

(١) قال نفيل بن حبيب وهو يرى انسحاب الجيش :
أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

إليه ظلم الأحباش ، وسوء حالة العرب من أهل اليمن ، وطلب أن يتوسط لدى كسرى ليقدم لشعب اليمن عونه ومساعدته ، على أن يكون له ملك اليمن .

والتقى سيف بكسرى وعرض عليه الأمر ، فأجابه كسرى « بعدت أرضك عن أرضنا ، أو هي قليلة الخير ، وإنما بها الشاة والبعير ، ولا حاجة لنا بذلك » ثم أمر له بكسوة ، وأجازه عشرة آلاف درهم فارسى ، فخرج سيف من عنده غاضباً ، ورمى الدراهم فتخاطفها الخدم ، ولما علم بذلك كسرى غضب ، وأمر باستدعائه إلى مجلسه ، وقال موجهاً إليه الحديث « عمدت إلى حباء[1] الملك الذى حباك به تنثره للناس » ، فأجابه سيف « ما أصنع بالذى أعطانى الملك ، ما جبال أرضى التى جئت منها إلا ذهب وفضة ، وإنما جئت لتمنعنى من الظلم » ، وشاور كسرى أهل دولته ، وأشار إلى ما جاء فى قول سيف عن الذهب والفضة ، وطمع فى الاستيلاء على اليمن طمعاً فى ذهبه وفضته ، وقرر أن يقبل الدعوة ، وأن يقوم بالغزو المطلوب ، على أن يجند فى هذه الحملة كل من فى سجونه ، فإن هلكوا يكون قد تخلص منهم ، وإن ملكوا يكسب ملكا جديداً يضيفه إلى أملاكه .

وأخرج كسرى من السجون ثمانمائة ، وولى أمرهم القائد وهرز ، وأبحر الجيش فى ثمان سفن ، غرقت منها إثنتان ، ووصل إلى أرض اليمن سبعمائة جندى ، فلم علم أهـــل اليمن بوصولهم ، انضموا إليهم ضد قوات الأحباش الموجودة فوق أرضهم .

وأولم وهرز وليمة لرجاله ، ثم أحرق أثناءها السفن ، وخطب بعد ذلك فى جنده ، فقال « إنما أحرقت ذلك لئلا يأخذه الأحباش إن ظفروا بكم ، وإن نحن ظفرنا فسنأخذ أضعافه ، وليس أمامكم إلا إحدى إثنتين :

---

(١) أى عطاء .

إما القتال بشجاعة حتى الظفر ، وإما الإستكانة والتخاذل ، وحينذاك يلحقكم العار والخزى العظيم » .

ونشب القتال بين الطرفين ، وفقد وهرز ابنه نوذاذ ، فغضب وأراد الثأر له ، فسأل عن مسروق ، فقالوا له « ترى رجلا على الفيل ، عاقداً تاجه على رأسه ، بين عينيه ياقوتة حمراء » ، فأمر بحاجبيه فعُصبا له[١]، ثم اخترق الصفوف بحثاً عنه ، حتى وجده فرماه بسهم ، صك الياقوتة بين عينيه ، وتغلغل فى رأسه ، وخرج من قفاه فمات .

وهُزم الأحباش ، وكتب وهرز إلى كسرى « إنى قد ضبطت لك اليمن وأخرجت من كان بها من الحبشة » ، فأمره كسرى أن يولى سيف بن ذى يزن على اليمن وأرضها ، على أن يؤدى للدولة جزية سنوية فولاه وغادر اليمن[٢] .

وبعد أن استتب الأمر لسيف فى اليمن ، قتل عدداً ضخما من الأحباش، إلا أن رجلا حبشياً استطاع أن يغتاله[٣] ، فلما علم بذلك كل كسرى ، أرسل وهرز مرة أخرى فى أربعة آلاف ، وأمره أن يقتل كل حبشى يعيش فى اليمن .

وتمت مهمة وهرز بنجاح ، وتولى الأمر فى اليمن حتى مات ، فخلفه ابنه المرزبان ، فلما مات ، خلفه خرخسره بن البينجان بن المرزبان ، الذى

---

(١) قيل إن جفنيه انطبق أحدهما على الآخر ، حتى أنه كان يرى بصعوبة .

(٢) الطبرى ج ٢ ص ١١٧ .

(٣) أقام سيف على اليمن أربع سنين ، أساء خلالها إلى الأحباش ، فكان يقتل ، ويبقر بطون النساء ، حتى إذا لم يبق منهم إلا القليل ، جعلهم خدماً يسعون بين يديه بالحراب ، فخرج يوماً وهم يسعون بين يديه ، وعند ما انفردوا به عن الناس ، رموه بالحراب ، فقتلوه .

غضب عليه كسرى ، فاستدعاه ، وولّى مكانه باذان ، وهو آخر ولاة اليمن من قبل كسرى ، وعاش إلى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وأعلن إسلامه وأسلم معه قومه(١) .

(١) سيأتى ذكر ذلك فى الجزء الأخير من هذا الباب .

(٣) الحروب بين العرب والفرس

قلنا إن العلاقات بين عرب الحيرة والفرس ، كانت تقوم على الاحترام والتقدير والمعاونة المتبادلة ، وأن هذه العلاقات لم تتأثر ، إلا حين هُزمت قوات الحيرة والفرس فى يوم ذى قار .

وكانت العلاقات بين الفرس واليمن — وسكانها عرب — تقوم على التعاون والفائدة التى يجنيها كل من الطرفين ، من وراء هذه العلاقات ، فالفرس تصد عن اليمن الأخطار التى تتهددها من جانب الأحباش ، وأهل اليمن يدفعون جزية سنوية لكسرى ، ثم تطورت هذه العلاقات ، واتخذت صورة أخرى ، حين خضعت اليمن للحكم الفارسى ، وأصبح واليها فارسياً يعينه كسرى .

أما العلاقات بين الفرس وسائر القبائل العربية ، فلم تكن ودية ، وسبق القول أن القبائل العربية كانت تشن غاراتها على مدن وقرى فارس ، وأن فارس أقامت دولة الحيرة على حدودها لتقيها شر هذه الغارات .

ولقد ساءت العلاقات بين العرب والفرس مرتين ، دارت فيهما معركتان ، كانت الأولى يوم الصفقة[1] ، وكانت الثانية معركة كبرى ، هى يوم ذى قار ، التى انتصر العرب فيها انتصاراً عظيما ، حتى أن الرسول الكريم سعد به وقال « هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم ونصرت عليهم بى»[2] .

---

(١) يسمى يوم الصفقة لأن كسرى أصفق الباب على بنى تميم فى حصن المستقر .
ويسمى أيضاً يوم المشقر وهو حصن بالبحرين بناه رجل من أساورة كسرى يسمى يسك ابن ماهبوذ .

(٢) مروج الذهب للمسعودى ج ١ ص ٢٣٦
فى بعض المراجع « ... وبى نصروا » .

(أ) يوم الصفقة

بعث كسرى أنو شروان بن قباذ ملك الفرس ، إلى وهرز عامله على اليمن ، بعير تحمل نبعاً ، وهو شجر للقس وللسهام ينبت فى قلة الجبل ، وكانت عير كسرى تخرج من المدائن إلى الحيرة ، فيحرسها رجال النعمان ابن المنذر ، حتى تصل إلى هوذة بن على الحنفى باليمامة ، فيتولى حراستها ، حتى تصل إلى تميم ، فتسير هذه بها ، حتى تبلغ اليمن ، وتسلم إلى وهرز .

وعندما وصلت العير إلى اليمامة ، قال هوذة بن على للأساورة[1] الذين يرافقون العير « انظروا الذى تجعلونه لبنى تميم فأعطونيه ، وأنا أكفيكم أمرهم ، وأسير بها معكم حتى تبلغوا مأمنكم » ، فأجابه الأساورة إلى طلبه .

وخرج معهم هوذة من هَجَر[2] ، فلما وصلوا إلى نِطَاع[3] ، عرف بنو تميم ما فعله هوذة فغضبوا ، وساروا إلى الجمع ، ووضعوا أيديهم على ما كان معهم ، وقتلوا عامة الأساورة ، وسلبوهم ، وأسروا هوذة الذى استطاع أن يشترى نفسه بثلثمائة بعير ، فساروا معه إلى هجر ، حيث أخذوا منه الفداء ، وفى ذلك يقول الشاعر :

ومنا رئيس القوم ليلة أوجروا ... بهوذة مقرون اليدين إلى النحر
وردنا به نخل اليمامة عانياً ... عليه وثاق القد والحلق السمر

وبعد أن أطلق بنو تميم هوذة ، سعى إلى أن يطلق الأساورة ، ثم كساهم ، وانطلق بهم إلى كسرى ، وقص عليه ما كان من أمر تميم ، وكان هوذة رجلا جميلا محدثاً ، فأعجب به كسرى ، ودعا بكأس من ذهب ، فسقاه

(١) جمع أسوار ، وهو القائد من الفرس .
(٢) أرض بالبحرين .
(٣) وادى باليمامة .

فيها ، ثم أعطاها له ، ومنحه ثوباً منسوجاً بالذهب واللؤلؤ ، يسمى القباء ويُلبس فوق الثياب ، وقلنسوة قيمتها ثلاثون ألف درهم ، وعقداً من در عُقد على رأسه .

وسأل كسرى هوذة عن حقيقة علاقته بتميم ، فأجابه « بيني وبينهم حساء الموت[1] ، هم قتلوا أبي » ، فقال له كسرى « لقد أدركت ثأرك ، فكيف لي بهم ؟ » ، فقال هوذة « إن أرضهم لا تطيقها أساورتك ، وهم يمتنعون بها ، ولكن أحبس عنهم الميرة ، فإذا فعلت ذلك بهم سنة أرسلتَ معي جنداً من أساورتك ، فأقيم لهم السوق ، فإنهم يأتونها ، فتصيبهم عند ذلك خيلك » .

وراقت الفكرة لكسرى ، فحبس الميرة عن بني تميم في سنة مجدبة ، ثم قال لهوذة « إيت هؤلاء فاشفني منهم واشتف » ، وأرسل معه ألفاً من الأساورة يقودهم عامله على البحرين يقال له آزاذ فردز بن جشنس ، وكان العرب يسمونه المُكَعبِر ، لأنه كان يقطع الأرجل ، وقيل أنه قرر ألا يدع من بني تميم عيناً تطرف ، وفعل .

وسار الجيش حتى نزل المشَقَّر ، وبعث هوذة إلى الناس قائلا « إن كسرى قد بلغه ما أصابكم في هذه السنة ، وقد أمر لكم بميرة ، فتعالوا فامتاروا » ، واندفع الناس وكان أكثرهم من بني سعد[2] ، وتجمعوا أمام باب المشقر ، وأخذوا يدخلون واحداً وراء الآخر ، بعد أن يضعوا سلاحهم قبل الدخول ، فكان المكعبر إذا ما دخل رجل منهم ضرب عنقه .

واستمر الناس يدخلون ولا يخرجون ، ولاحظ ذلك خَيْبرى

---

(١) تجرع الموت .

(٢) بطن من تميم .

ابن عبادة(١) فقال « ويلكم ! أين عقولكم ؟ فوالله ما بعد السلب إلا القتل » ثم تناول سيفه ، وضرب سلسلة كانت على باب الحصن ، وقطع يد رجل كان يقف بجانبها ، فانفتح الباب ، وشاهد الرجال يُقتلون ، فثارت بنو تميم .

وطلب هوذة من المكعبر أن يطلق مائة من خيار القوم ، فوهبهم له يوم الفصح ، وفى ذلك قال الأعشى مادحاً هوذة :

سائل تميما به أيام صفقتهم ... لما رآهم أسارى كلهم ضرعا
وسط المشقر فى غبراء مظلمة ... لا يستطيعون بعد الضر منتفعا
فقال الملك أطلق منهم مائة ... رسلا من القول مخفوضاً وما رفعا
ففك عن مائة منهم إسارهم ... وأصبحوا كلهم من غلة خلعا
بهم تقرب يوم الفصح ضاحية ... يرجو الإله بما أسدى وما صنعا
فلا يرون بذاكم نعمة سبقت ... إن قال قائلها حقاً بها وسعا

---

(١) هذه هى رواية العقد الفريد لإبن عبد ربه .

أما الطبرى فيذكر أن الذى لاحظ ذلك رجلا من تميم يدعى عبيد بن وهب ، وانه هو الذى قطع السلسلة ، وأنه أنشد بعد قطعها الأبيات التالية :

تذكرت هنداً لات حين تذكر ... تذكرتها ودونها سير أشهر
حجازية علوية حل أهلها ... مصاب الخريف بين زور ومنور
ألا هل أتى قومى على النأى أننى ... حميت ذمارى يوم باب المشقر
ضربت رتاج الباب بالسيف ضربة ... تفرج منها كل باب مضبر

(ب) يوم ذى قار

أصاب أيوب بن محروف[١] دماً فى قومه بنى امرىء القيس بن زيد مناة ، وهرب حتى لحق بأوس بن قلام الحارثى بالحيرة[٢] ، فرحب به ، وأكرمه ، وأنزله داره ، وعندما جاءته الوفاة ابتاع له موضعاً فى الجانب الشرقى من الحيرة ، وأعطاه مائتين من الإبل وفرساً وقينة[٣] ، فتحول أيوب إلى داره بعد وفاة أوس .

وكان لأيوب ولد هو زيد ، تزوج من امرأة من آل قلام ، فولدت له حماداً ، وخرج زيد يوماً للصيد مع أصحابه فى حفير[٤] ، وانفرد فى الصيد ، وتباعد من أصحابه ، فلقيه رجل من بنى امرىء القيس ، الذين كان لهم عند أبيه ثأر ، وعرفه الرجل ، فاستدرجه ، ثم قتله برمية سهم وضعه بين كتفيه ففلق قلبه .

وتعلم ابنه حماد الكتابة ، فكان أول من كتب من بنى أيوب ، ثم أصبح كاتب النعمان بن امرىء القيس[٥] حاكم الحيرة ، وولد له ابنه زيد ، من امرأة تزوجها من طيىء فلما جاءته الوفاة ، أوصى بابنه إلى صديق له من الدهاقين[٦] يسمى فرّوخ ماهان ، فعلمه الفارسية ، وكان من قبل قد أجاد الكتابة بالعربية ، وتمكن الدهقان من إقناع كسرى بأن يجعل

---

(١) قيل أنه أول من سمى من العرب أيوب وكان شاعراً فصيحاً من شعراء الجاهلية لا يعد من الفحول وكان قروياً وليس بدوياً وكان نصرانياً .

(٢) قيل إنه كان بينهما نسب من قبل النساء .

(٣) أى أمة .

(٤) موضع بالحيرة .

(٥) حكم الحيرة ثمانية وعشرين عاما .

(٦) جمع دهقان وهو التاجر .

زيداً على البريد فى حوائجه[١].

ثم أقنع الدهقان أهل الحيرة بعد وفاة النعمان ، بإسناد المملكة إلى زيد ، حتى يعقد كسرى الأمر لرجل ينصبه ، وظل زيد على الحيرة ، إلى أن ملّك كسرى المنذر بن ماء السماء .

وتزوج زيد من نعمة بنت ثعلبة العدوية ، فولدت له عدياً ، الذى تولى الدهقان تربيته مع ابن له اسمه شاهان مرد ، وتعلم الإثنان الكتابة والكلام بالفارسية ، وأصبح عدى أفهم الناس وأكتبهم بالعربية والفارسية ، وعرض الدهقان خدماته على كسرى « إن عندى غلاماً من العرب مات أبوه وخلفه فى حجرى فربيته فهو أفصح الناس وأكتبهم بالعربية والفارسية والملك محتاج إلى مثله » ، فلما رآه كسرى — وكان جميل الوجه[٢] رائع الحسن ظريف الحديث حاضر الجواب — عينه فى ديوانه ، وأصبح بعد ذلك مقرباً إلى كسرى ، بل أصبح سفيره إلى ملك الروم ، وتزوج عدى هند بنت النعمان بن المنذر ، فولدت له زيداً .

نجح عدى فى تنصيب النعمان بن المنذر ملكا على الحيرة ، فغضب لذلك أبناء المنذر الآخرين ، أخوة النعمان ، وفى مقدمتهم عدى بن مرينا ، الذى قرر الإنتقام من عدى بن زيد ، وأعد خطة الإنتقام ، فكان لا يخلى النعمان يوماً من هديته ، واستمال أصحاب النعمان وخواصه ، وحملهم على أن يرددوا أمامه أن عدى بن زيد يقول عنه إنه عامله ، وأن فضل توليه يرجع إليه . . . وكثر الكلام ، وازداد ترديده على مسامع النعمان ، حتى غضب على عدى ، ونجحت خطة الإنتقام ، فدعاه إلى الحيرة ، ثم أمر به فسجن ، ومنع الاتصال به ، ورفض أن يستمع إليه .

---

(١) لم يكن كسرى يفعل ذلك إلا بأولاد المرازبة وهم الفرسان الشجعان المقدمون على القوم .

(٢) كانت الفرس تتبرك بالوجه الجميل .

وحاول عدى وهو في سجنه، أن يقنع النعمان بخطئه دون فائدة، فأخذ يستعطفه، ويذكر له حرمته، لأنه مربيه[١]، ويعظه بذكر الملوك السابقين، فلم يجد ذلك نفعاً، وذلك لأن أبناء بنى مرينا[٢]، كانوا يرددون على مسامع النعمان «إن أفلت قتلك وكان سبب هلاكك».

ولما طال سجن عدى كتب إلى أخيه أُبَى — وهو مع كسرى — أبياتاً من الشعر جاء فيها[٣]:

أبلغ أُبَيـــاً على نأيه وهل ينفع المرء ما قد علم
بأن أخاك شقيق الفؤاد كنت به واثقاً ما سَلِمْ
لدى ملك موثق فى الحديد إما بحق وإما ظُـــلم

فكلم أُبَى كسرى فى أمر أخيه، وعرفه خبره، فكتب كسرى إلى النعمان، يأمره باطلاقه، ووجه إليه رسولا يحمل كتابه، ومر الرسول على عدى فى سجنه[٤]، وأنبأه بالكتاب الذى يحمل الإفراج عنه، فقال له عدى «أعطنى الكتاب أبعثه ولازمنى، ولا تخرج من عندى، فإنك والله إن خرجت لأقتلن»، فرفض الرسول قائلا «لن يجترىء على كسرى، ولا أستطيع إلا أن آتى النعمان بالكتاب، فأوصله إليه»، وعرف النعمان أن الرسول اتصل بعدى، فبعث بجماعة دخلت عليه وخنقته، ورشا النعمان الرسول، ليخبر كسرى بموت عدى قبل وصوله.

وندم النعمان على قتله عدى، فدعا ابنه زيد، وقربه إليه، ثم كتب إلى كسرى يصفه ويزكيه للعمل فى ديوانه، فقبله كسرى وأعجب به حين رآه، فقربه إليه.

---

(١) نشأ النعمان فى حجر آل عدى بن زيد، فهم الذين أرضعوه وربوه.
(٢) بنو مرينا قوم من أهل الحيرة.
(٣) جعل عدى يقول الشعر وهو فى الحبس ويبعث به إلى النعمان دون أن يستجيب إليه.
(٤) قيل إن أخا عدى رشا الرسول وأمره أن يبدأ بعدى.

ولم ينس زيد أن النعمان هو قاتل أبيه ، فقرر أن يثأر لأبيه ، وجاءته الفرصة حين دخل على كسرى يوماً ، فوجده يتحدث فى طلب نساء لهن صفة معينة ، مكتوبة عند ملوك العجم ، وكان الملوك يبعثون فى طلب من يكن على هذه الصفة من النساء ، فى كل البلاد إلا فى أرض العرب ، ظناً منهم أن هذه الصفة فى النساء غير موجودة هناك ، ووجد زيد الفرصة مهيأة للانتقام ، فتحدث إلى كسرى قائلا « إنى رأيت الملك قد كتب فى نسوة يُطلبن له ، وقرأت الصفة ، وقد كنت بآل المنذر عارفاً ، وعند عبدك النعمان من بناته وإخوته وبنات عمه وأهله أكثر من عشرين امرأة على هذه الصفة » ، ثم أضاف « إن شر شيء فى العرب وفى النعمان خاصة ، أنهم يتكرمون عن العجم ، فأنا أكره أن يغيبهن عمن تبعث إليه ، أو يعرض عليه غيرهن ، وإن قدمتُ أنا عليه ، لم يقدر على ذلك ، فابعثنى ، وابعث معى رجلا من ثقاتك ، يفهم العربية حتى أبلغ ما تحبه » .

وخرج زيد ومعه رسول كسرى إلى الحيرة ، وكان الرسول رجلا جلداً فهماً وجعل زيد يكرمه ويلطفه حتى بلغا الحيرة ودخلا على النعمان ، ونقلا إليه طلب كسرى ، قال زيد «إن كسرى احتاج إلى نساء لنفسه وولده وأهل بيته ، وأراد كرامتك بصهره ، فبعث إليك ؟» ، فسأله النعمان « ما هؤلاء النسوة ؟ » ، وأجاب زيد « هذه صفتهن قد جئنا بها » ، ثم أخذ يلقى على مسامعه بالصفة المطلوبة(١) « ... معتدلة الخلق ، نقية اللون والثغر ، بيضاء ، قمراء ، وطفاء (غزيرة الأهداب وشعر الحاجبين) ، كحلاء ، دعجاء (شديدة سواد العين شديدة بياضها) ، حوراء عيناء ، قنواء ، (ارتفاع فى أعلى الأنف) شماء (ارتفاع قصبة الأنف) برجاء (جميلة) ، زجّاء (دقيقة الحاجبين) أسيلة الخد ، شهية المقبّل ، جثلة الشعر (كثيفة الشعر) ،

(١) كان المنذر الأكبر قد أهدى إلى أنوشروان جارية ، وكتب إليه يصفها ، وبقيت هذه الصفة إلى أيام كسرى بن هرمز .

عظيمة الهامة ، بعيدة مهوى القرط ، عيطاء (طويلة العنق) عريضة الصدر ، كاعب الثدى ، ضخمة مشاش المنكب والعضد ، حسنة المعصم ، لطيفة الكف ، سبطة البنان ، ضامرة البطن ، خميصة الخصر ، غَرْثى الوشاح (رقيقة الخصر) رَدَاح الأقبال (ثقيلة الأوراك) رابية الكفَل ، لفّاء الفخذين ، ريّا الروادف ، ضخمة المأكمتين (اللحمتان اللتان على رءوس الوركين) ، مفعمة الساق (ممتلئة الساق) ، مشبعة الخلخال (سمينة) ، لطيفة الكعب والقدم ، قطوف المشى (متقاربة الخطو) ، مكسال الضحا (أى لا تبرح مكانها) ، بضة المتجرَّد ، سموعا للسيد ، ليست بخنساء ، ولا سفعاء (سوداء) ، رقيقة الأنف ، عزيزة النَّفْس ، لم تُغذَّ فى بؤس ، حييَّة ، رزينة ، حليمة ، ركينة ، كريمة الخال ، تقتصر على نسب أبيها دون فصيلتها ، وتستغنى بفصيلتها دون جماع قبيلتها ، قد أحكمتها الأمور فى الأدب ، فرأيها رأى أهل الشرف ، وعملها عمل أهل الحاجة ، صَنَاع الكفين ، قطيعة اللسان (ليست سليطة) ، رهوة الصوت (رقيقة) ، ساكنته ، تزين الولىّ ، وتشين العدو ، إن أردتها اشتهت ، وإن تركتها انتهت ، تُحملق عيناها ، وتحمرّ وجنتاها ، وتذبذب شفتاها ، وتبادرك الوثبة إذا قمتَ ، ولا تجلس إلا بأمرك إذا جلستَ »[1] .

ولما سمع النعمان هذه الصفة قال لزيد ، والرسول حاضر سامع لقوله « أما فى مها السَّواد وعين فارس ما يبلغ به كسرى حاجته » ، فسأل الرسول زيداً بالفارسية عن ماهية المها والعين ، فأجابه بأنها البقر ، ووجه زيد الحديث إلى النعمان «إنما أراد الملك كرامتك ، ولو علم أن هذا يشق عليك ، لم يكتب إليك به » .

وبعد يومين قضاهما زيد وصاحبه عند النعمان ، تسلما رده إلى كسرى وفيه يقول « إن الذى طلب الملك ليس عندى » .

---

(١) الأغانى ج٢٠ ص ١٢٣

وحمل الرجلان الرسالة إلى كسرى ، الذى قرأها ، ثم اتجه بمسامعه إلى زيد وهو يقول « كنت خبّرتك بضنّتهم بنسائهم على غيرهم ، وإن ذلك من شقائهم ، واختيارهم الجوع والعرى على الشبع والرياش ، وإيثارهم السّموم والرياح على طيب أرضك هذه ، حتى انهم ليسمونها السجن ، فسل هذا الرسول الذى كان معى عما قال ، فإنى أكرم الملك عن مشافهته بما قال » وقال الرسول متمما الحديث مصدقاً عليه «أيها الملك ، إنه قال : أما فى بقر السواد وفارس ما يكفيه حتى يطلب ماعندنا » ، فغضب كسرى غضباً شديداً ، وبلغ ذلك النعمان ، فاضطرب وتوقع شراً .

وبعد أشهر وردت إلى النعمان دعوة من كسرى بالحضور إليه ، فقد تسلم رسالة جاء فيها « أقبل فإن للملك حاجة إليك » ، وأدرك النعمان أن كسرى سيقتله ، فحمل سلاحه ، واتجه إلى طيء ، وطلب أن يمنعوه ، فأبوا خوفاً من كسرى ، وقالوا له « لولا صهرك لقتلناك ، فإنه لا حاجة بنا إلى معاداة كسرى ، ولا طاقة لنا به » .

وطاف النعمان على قبائل العرب فلم تغثه قبيلة ، وعرض بنو رواحة بن قطيعة بن عبس أن يقاتلوا معه ، فأبى قائلا « ما أحب أن أهلككم ، فإنه لا طاقة لكم بكسرى » .

وأخيراً نزل النعمان بذى قار فى بنى شيبان ، واستجار بهانىء بن مسعود فأجاره[1] ، وقال له « قد لزمنى ذمامك ، وأنا مانعك مما أمنع نفسى وأهلى وولدى منه ، ما بقى من عشيرتى الأدنين رجل ، وإن ذلك غير نافعك ، لأنه مهلكى ومهلكك ، وعندى رأى لك ، لست أشير به عليك لأدفعك عما تريد من مجاورتى ، ولكنه الصواب ... إن كل أمر يجمل بالرجل أن يكون عليه ، إلا أن يكون بعد الملك سوقة ، والموت نازل بكل واحد ، ولأن

(١) قيل فى بعض الروايات أن النعمان لجأ إلى هانىء بن قبيصة بن هانىء بن مسعود وليس إلى هانىء بن مسعود .

تموت كريماً ، خير من أن تتجرع الذل ، أو تبقى سوقة بعد الملك ، هذا إن بقيت ، فامض إلى صاحبك ، واحمل إليه هدايا ومالا ، وألق بنفسك بين يديه ، فإما أن صفح عنك فعُدت ملكا عزيزاً ، وإما أن أصابك فالموت خير من أن يتلعّب بك صعاليك العرب ، ويتخطفك ذئابها ، وتأكل مالك ، وتعيش فقيراً مجاوراً ، أو تقتل مقهوراً » .

وطمأن هانىء النعمان على حريمه ، قائلا له « هنّ فى ذمتى ، لا يخلص إليهن حتى يخلص إلى بناتى » وقبل النعمان ما عرضه عليه هانىء قائلا « هذا وأبيك الرأى الصحيح ، ولن أجاوزه » .

وجمع النعمان هدايا متعددة ، وبعث بها إلى كسرى مع رسول من عنده ومعهما كتاب اعتذار ، يخبره فيه بأنه قادم إليه .

وعاد مبعوث النعمان ، وأبلغه أن كسرى قد قبل جميع هداياه ، وأنه (أى المبعوث) لم ير له عند كسرى سوءاً ، فهدأت نفس النعمان ، واستودع هانىء بن مسعود أهله وولده وسلاحه ، ثم اتجه إلى المدائن[١] ، حيث لقيه زيد بن عدى على قنطرة ساباط[٢] ، فقال له « انجُ نُعَيم إن استطعت النّجاء » ، فقال له النعمان « أفعلتها يا زيد ؟ ، أما والله لئن عشتُ لك ، لأقتلنك قتلة لم يُقتلها عربى قط ، ولألحقنّك بأبيك » ، فاستهزأ به زيد ، وقال « امض لشأنك نعيم ، فقد أخّيّت لك أخيّة[٣] ، لا يقطعها المهر الأرن »[٤] .

وعند ما علم كسرى بقدوم النعمان ، أمر به ، فقيد ، ثم سجن ، وبقى فى

---

(١) الموضع الذى كان سكناً للأكاسرة

(٢) موضع بالمدائن لكسرى أبرويز

(٣) عروة تربط إلى وتد مشقوق وتشد فيها الدابة .

(٤) أى النشيط

سجنه حتى مات بالطاعون(١)، ورثاه زهير فقال :

ألم تر للنعمان كان بنجدة — من الشر لو أن امرأ كان باقيا
فلم أر مخذولا له مثل ملكه — أقل صديقاً أو خليلا موافيا
خلا أن حيا من رواحة حافظوا — وكانوا أناساً يتقون المخازيا
فقال لهم خيراً وأثنى عليهم — وودعهم توديع ألا تلاقيا

وهكذا انتقم زيد لأبيه ، رغم أن النعمان ندم على قتله إياه ، وقرّب إليه زيداً ، بعد أن اعتذر إليه من أمر أبيه ، وأعطاه الكثير ، وسيره إلى كسرى ، ورشحه للخدمة فى ديوانه ، وأثنى عليه ، ووصفه فى كتاب إلى كسرى قائلا « إن عدياً كان ممن أُعين به الملك فى نصحه ولبه ، فأصابه ما لا بد منه ، وانقطعت مدته ، وانقضى أجله ، ولم يصب به أحد أشد من مصيبتى ، وأما الملك ، فلم يكن ليفقد رجلا ، إلا جعل الله له منه خلفاً ، لما عظم الله من ملكه وشأنه ، وقد بلغ ابن له ، ليس بدونه رأيته يصلح لخدمة الملك ، فسرحته إليه ، فإن رأى الملك أن يجعله مكان أبيه فليفعل » وبذلك يكون النعمان ، هو الذى مهّد لزيد طريق الثأر ، قدّمه إلى كسرى ، وزكّاه ، وأحسن الثناء عليه ، حتى إذا أصبح فى الموضع الذى يستطيع منه نيل مآربه ، لم يتردد ، بل أقدم ، بكل مشاعره وجوارحه ، ونجح فى خطته ، وانتقم لأبيه ، وكأن النعمان قد أحس بما دبره زيد ضده ، فتوعده بالقتل إن بقى على الحياة ، ولكن زيداً كان قد دبر أمره بإحكام ، فلم يفلت النعمان من القتل .

ولم ينته الأمر بقتل النعمان أو موته ، وإنما بدأت بنهايته مشكلة كبرى

---

(١) اختلفت الروايات بالنسبة لموقف كسرى من النعمان ، قالت البعض إنه سجنه حتى أصيب بالطاعون ، وقالت الأخرى إنه أمر فألقى تحت أرجل الفيلة ، فوطئته ، ومات ، ثم ألقى به إلى الأسود فأكلته .

بين العرب والعجم ، فقد عين كسرى إياس بن قبيصة الطائى على الحيرة خلفاً له ، وطلب منه أن يجمع كل ما خلفه النعمان ، ويرسله إليه .

وبعث إياس إلى هانىء بن مسعود ، يطالبه بما استودعه النعمان ، وصاحب مطالبته له تهديد واضح صريح « لا تكلفنى أن أبعث إليك ، ولا إلى قومك بالجنود ، تقتل المقاتلة وتسبى الذرية » ، ورفض هانىء التهديد ، وبعث إليه برد جاء فيه « إن الذى بلغك باطل ، وما عندى قليل ولا كثير ، وإن يكن الأمر كما قيل ، فأنا أحد رجلين ، إما رجل استودع أمانة فهو حقيق أن يردها على من أودعه إياها ، ولن يسلم الحر أمانة ، أو رجل مكذوب عليه ، فليس ينبغى أن تأخذه بقول عدو أو حاسد » .

وغضب كسرى على هانىء ، ثم امتد غضبه فشمل بكر بن وائل كلها ، وقرر حربها ، واستشار فى ذلك إياس ، فقال له « إن تطعنى لم تعلم أحداً لأى شىء عبرت وقطعت الفرات ، فيروا أن شيئاً من العرب قد كرّبك ، ولكن ترجع وتضرب عنهم ، وتبعث عليهم العيون حتى ترى غِرّةً منهم ، ثم ترسل حلْبة(١) من العجم فيها بعض القبائل التى تليهم ؛ فيوقعون بهم رقعة الدهر ، ويأتونك بطلبتك » .

ولم يقتنع كسرى بوجهة نظر إياس ، واتهمه بأنه يتعصب لهم ؛ لأنهم أخواله .

واستشار كسرى النعمان بن زرعة الثعلبى ، وهو يكره بكراً ، فقال له « أمهلنا حتى نقيظ ، فإنهم لو قد قاظوا تساقطوا على ماء ، يقال له ذو قار ، تساقط الفراش فى النار ، فأخذتهم كيف شئت ، وأنا عندك إلى أن أكفيكهم » ، ووافقه كسرى على رأيه .

---

(١) أى دفعة من الخيل تجمع للاغارة .

وجاءت بكر بن وائل ونزلت بمكان قريب من ذى قار يسمى الحِنْو ، على مسيرة ليلة منها ، وعقد كسرى للنعمان بن زرعة على تغلب والنمر ؛ ولخالد بن يزيد البهرانى على قضاعة ، وإياد ، وللإياس بن قبيصة على العرب ، وأمده بكتيبتيه الشهباء والدوسر[١] ، وللهامرز على ألف من الأساورة ، ولخنّابزين على ألف ، وأمرهم بأن يعرضوا على بكر ثلاث خصال : إما أن يعطوا بأيديهم فيحكم فيهم الملك بما شاء ، وإما أن يعرّوا الديار ، وإما أن يأذنوا بحرب .

وعندما علمت بكر بتحرك جيش كسرى ، اجتمع رجالها لبحث الموقف ، فقال بعضهم « إن اللّخى[٢] أهون من الوهى ، وإن فى الشر خياراً ، ولأن يفتدى بعضنا بعضاً خير من أن نصطلم جميعاً » ، وأغضب هذا الاتجاه حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلى ، فقال « قبح الله هذا رأياً ، لا تجرّ أحرار فارس أرجلها ببطحاء ذى قار ، وأنا أسمع هذا الصوت » ، ثم أمر بضرب قبته بوادى ذى قار وقال « لا أرى غير القتال ، فإنّا إن ركبنا الفلاة مِتْنا عطشاً ، وإن أعطينا بأيدينا تقتل مقاتلتنا ، وتسبى ذرارينا » وأعلن أنه لن يفر حتى تفر القبة ، ثم توجه إلى هانىء بن مسعود — وكان قد تحرك بجيشه إلى ذى قار — وخاطبه قائلا « يا أبا أمامة ، إن ذمتكم ذمتنا عامة ، وإنه لن يوصل إليك حتى تفنى أرواحنا ، فأخرج هذه الحلقة ، ففرّقها بين قومك ، فإن تظفر فتردّ عليك ، وإن تهلك فأهون مفقود » ، ففعل هانىء ما أشار به حنظلة ، وأخرج الحلقة ، ففرقت فى القوم .

وأقبل النعمان بن زرعة ، ونزل على ابن أخته مرة بن عمرو ، وقال

---

(١) كتيبتان مجهزتان للحرب جعلهما كسرى تحت قيادة ملوك الحيرة ورجال الشهباء من الفرس ورجال دوسر من عرب تنوخ

(٢) أى أن إعطاء المال خير من الحرب التى فيها الهلاك .

« إنكم أخوالى وأحد طرفى ، وإن الرائد لا يكذب أهله ، وقد أتاكم مالا قبل لكم به من أحرار فارس وفرسان العرب ، والكتيبتان الشهباء والدوسر ، وإن فى الشر خياراً ، ولأن يفتدى بعضكم بعضاً ، خير من أن تصطلموا(١) ، انظروا هذه الحلقة فادفعوها ، وادفعوا رهناً من أبنائكم ، بما أحدث سفهاؤكم »

وانبرى له حنظلة ، الذى اقنع القوم بالمقاومة والكفاح والبذل والقتال ، وقال له « لولا أنك رسول ، لما أُبْت إلى قومك سالماً » .

وتباحث القوم من جديد فى تكتيكات المعركة ، ودارت دراسات عميقة لما يجب أن يكون عليه لقاء العدو ، فقال التُّجيبي « لا تستهدفوا لهذه الأعاجم ، فتهلككم بنشابها(٢) ، ولكن تكردسوا كراديس(٣) ، فإذا أقبلوا على كردوس شدّ الآخر » ، وتهدف هذه الخطة إلى تقسيم الجيش إلى قطاعات ، يقوم بينها تعاون متبادل ، وتقوم أساساً على الدفاع ، ثم الهجوم المضاد ، أما حنظلة ، فكان رأيه مخالفاً للرأى الأول ، ويوضح هذا الرأى فى قوله « إن النشّاب الذى مع الأعاجم يفرقكم ، فإذا أرسلوه لم يخطئكم ، فعاجلوهم اللقاء ، وابدءوهم بالشدة » وهذا الرأى يرى أن الهجوم هو خير وسائل الدفاع ، وإن واجب العرب أن يهاجموا عدوهم ، دون أن يبقوا فى أماكنهم ينتظرون هجومه .

وقطع حنظلة وضين راحلة امرأته ، ثم قطع وَضُن(٤) النوق كلها ، وخطب فى الناس فقال « ليقاتل كل رجل منكم عن حليلته » .

---

(١) تستأصلوا

(٢) النبل

(٣) جمع كردوس ΚΙΛΙΟΣΙ ، وهى كلمة يونانية ، معناها الكتلة أو الكتيبة .

(٤) جمع وضين وهو بطان عريض من السيور أو الشعر .

وقام من بعده هانىء به مسعود ، فخطب فى الناس قائلا « ياقوم مهلك مقدور خير من نجاء معرور ، وإن الحذر لا يدفع القدر : وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنيَّة ولا الدنيَّة ، واستقبال الموت خير من استدباره ، والطعن فى الثغر أكرم من الطعن فى الدبر ، يا قوم جدُّوا فما من الموت بد، فتح لو كان له رجال ، أسمع صوتاً ولا أرى قوماً ، ويا آل بكر شدُّوا واستعدُّوا ، وألا تشدوا تُرَدوا »(١) .

وواضح أن رأى هانىء يتفق مع رأى حنظاله فى فكرة الهجوم ، ونلاحظ أنه فى قوله ، يهتم اهتماماً بالغاً بمعنويات المقاتلين ، فيقوى عزمهم، ويزيد حماسهم ، ويهون شر المعركة ، ويحبذ الموت الكريم خلال القتال ، ويدعو إلى الجلد والصبر فى النزال .

وخطب شريك بن عمرو فقال « ياقوم ، إنما تهابونهم أنكم ترونهم عند الحفاظ أكثر منكم ، وكذلك أنتم فى أعينهم ، فعليكم بالصبر ، فإن الأسنة تروى الأعنة ، يا آل بكر ، قدما قدماً » ، وهو بذلك يهتم بالكيف أكثر من اهتمامه بالكم ، فالمقاتل الشجاع يصرع عن أعدائه كثيرين ، والإقدام يحقق النصر ويجلبه .

وأراد حنظلة أن يثير حماسة الناس فأنشدهم :

قد جدَّ أشياعكم فجِدُّوا ما علتى وأنا مُؤدٍ جلد
والقوس فيها وتر عُرُد مثل ذراع البكر أو أشد
قد جعلتْ أخبار قومى تبدو إن المنايا ليس منها بد
هذا عمير حيّه ألد يقدمه ليس له مرد

(١) جاء فى رواية أخرى « ياقوم هالك معذور خير من ناج فرور إن الجزع لا يرد القدر وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية خير من الدنية ، واستقبال الموت خير من استدباره ، فالجد الجد فما من الموت بد » .

حتى يعود كالكميت الورد   خلّوا بنى شيبان فاستبدّوا
نفسى فداكم وأبى والجد

وأنشد إبنه يزيد هذه الأبيات :

من فرَّ منكم فرَّ عن حريمه   وجاره وفرَّ عن نديمه
أنا ابن سيَّار على شكيمه   إن الشراك قُدَّ من أديمه
وكلهم يجرى على قديمه   من قارح الهُجْنَة أو صميمه

وقال عمرو بن جبلة اليشكرى :

يا قوم لا تغرركم هذى الخرق
ولا وميض البيض فى الشمس برق
من لم يقاتل منكم هذا العنق
فجنبوه الراح واسقوه المرق

ونلمس مما أوردناه أن بنى شيبان :

أولا ... قد التقطوا القفاز الذى ألقاه كسرى فى وجههم ، وكان ورجاله يتوقعون استسلامهم ، وخاصة أنهم يعيشون على ذكرى انتصارهم على بنى تميم فى يوم الصفقة .

ثانياً ... قد استعدوا للحرب مادياً، وجمعوا خلاصة رجالهم وكبارهم .

ثالثاً ... قد استعدوا للحرب معنوياً ، حتى أن الرجال عزموا على النصر او الموت .

رابعاً ... قد وضعوا خطة الحرب على أساس الهجوم ، وهذا يتفق مع مبادىء الحرب الحديثة ، إذ أن الهجوم هو خير وسائل الدفاع .

خامساً... قد صحبوا نساءهم فى المعركة ، ليكنَّ حافزاً لهم على القتال دفاعاً عنهن ، حتى أن إمرأة من عجل (بطن من شيبان)

كانت ترتجز وقت المعركة :

إن تهزموا نعانق ونفرش النمارق
أو تهزموا نفارق فراقَ غيرِ وامق

سادساً ... قد عزموا على الصبر فى القتال حتى إحراز النصر رغم الـكثرة العددية التى كان يتميز بها جيش كسرى .

سابعاً ... قد أعدوا قواتهم للمعركة ، فجعلوا بنى عجل فى الميمنة فى مواجهة خنابزين ويقودهم حنظلة بن ثعلبة ، وبنى شيبان فى الميسرة فى مواجهة الهامرز ويقودهم بكر بن يزيد بن مسهر وبكراً فى القلب بقيادة هانىء بن مسعود .

ثامناً ... قد استغلوا عنصر المفاجأة ، إذ أعدوا كميناً يقوده يزيد ابن حمار السكونى .

تاسعاً ... قد استغلوا عنصر الحشد ، فجعلوا القوات كلها تهجم على العدو فى وقت واحد ، حتى تكون الضربة قاصمة وعاجلة .

وبعد هذا الاستعداد الضخم من الجانبين للمعركة ، خرج مقاتل من كتيبة الهامرز يتحدى الناس للنزال ، فخرج له يزيد بن حارثة ، وشدّ عليه بالرمح ، وطعنه ، ثم خرج الهامرز يدعو للنزال ، فخرج له الحارث ابن شريك ، وقتله .

وقعت قبل الالتحام مفاجأة كبيرة ، فإن العرب الذين كانوا ضمن جيوش كسرى ، عزّ عليهم أن يقاتلوا إخوانهم العرب ، وطغت عليهم مشاعر القومية ، والأصل ، واللغة ، وكانت إياد أسبقهم ، فبعثت سراً إلى بكر رسولا يقول لهم « أى أمرين أعجب إليكم ، أن نطير تحت ليلتنا فنذهب ، أو نقيم ، ونفر حين تلاقون القوم » ، ورأت بكر أن يقيموا « فإذا التقى الناس انهزمتم بهم » .

وعرض يزيد بن حمار السكونى رأياً « أطيعونى وأكمنوا لهم كميناً » ، فوافقوه ، وجعلوه على رأس الكمين ، فى مكان الخبىء .

وبدأ القتال والتحم الجمعان .

وهجم العرب على جيش الفرس ، دفعة واحدة ، من جميع الجهات ، على ميسرته وميمنته ، وخرج الكمين من مخبئه ، وشن هجومه على قلب الجيش ، الذى كان متورطاً فى القتال .

ونفذت إياد وعدها ، فولت منهزمة ، وأسقط فى يد الفرس ، ودارت عليهم الدائرة وانهزمت جيوشهم هزيمة منكرة ، وفر مقاتلوها ، وتعقبتهم بكر ، يقتلون من يقع فى أيديهم ، حتى بلغوا فى طلبهم حدود السواد .

وكان كسرى فى قصره ، قلقاً على جيشه ، فكان لا يأتيه أحد بهزيمة جيشه ، إلا نزع كتفيه ، فلما وصله إياس بن قبيصة — واليه على الحيرة — كذب عليه خوفاً على نفسه ، فقال له « هزمنا بكر بن وائل ، وآتيناك بنسائهم » ، فأسعد قوله كسرى ، وسره ، فأمر له بكسوة ، ثم استأذنه إياس قائلا « إن أخى قيس بن قبيصة مريض بعين التمر فأردت ان آتيه » فأذن له كسرى ، فلحق بأخيه ، ثم وصل رجل من الحيرة ، ونقل نبأ الهزيمة إلى كسرى ، فأمر بنزع كتفيه .

وهزت هزيمة الفرس أعصابهم وهدمت معنوياتهم ، فقد كانت الهزيمة بداية لما سيلقاه الفرس بعد ذلك على يد العرب ، حين ينشر الإسلام نوره فى الجزيرة ، ثم يمتد هذا النور إلى ربوع العراق .

وعلى الجانب الآخر كان الانتصار رائعاً ، أسعد قلوب العرب ، وأعاد إليهم الإحساس بالقـــوة ، والشعور بالكيان ، والادراك الصحيح للبطولة العربية .

وانطلقت ألسنة الشعراء العرب ، تعبر عن هذا النصر العظيم ، وقيل

شعر كثير ، وننشر أبياتاً من قصيدة لأعشى قيس ، كنموذج لما قيل من الشعر ، فى يوم ذى قار :

أما تميم فقد ذاقت عداوتنا ... وقيس عيلان مسّ الخزى والأسف

وجند كسرى غداة الحنو صبَّحهم ... مناغطاريف ترجو الموت وانصرفوا

لقوا مُلملمة(١) شهباء يقدمها ... للموت لا عاجز فيها ولا خَرِف

فرع نمته فروع غير ناقصة ... موفق حازم فى أمره أَنِف

فيها فوارس محمود لقاؤهم ... مثل الأسنة لا ميل ولا كُشُف

بيض الوجوه غداة الروْع تحسبهم ... جنان عين عليها البيض والزغف(٢)

لما رأينا كشفنا عن جماجمنا ... ليعلموا أننا بكر فينصرفوا

قالوا : البقية والهندىّ يحصرهم ... ولا بقية إلا السيف فانكشفوا

لو أن كل مَعد كان شاركنا ... فى يوم ذى قار ما أخطأهم الشرف

لما أتونا كأن الليل يقدمهم ... مطبق الأرض تغشاها بهم سُدف

بطارق وبنو ملك مرازبة ... من الأعاجم فى آذانها النطف

من كل مرجانة فى البحر أحرزها ... تيارها ووقاها طينها الصدف

وظعننا خلفنا تجرى مدافعها ... أكبادها وجلا مما ترى تجف

كأنما الآل فى حافات جمعهم ... والبيض برق بدا فى عارض يكف

يحسرن عن أوجه قد عاينت عبراً ... ولاحها عبرة ألوانها كسف

ما فى الخدود صدور عن وجوههم ... ولا عن الطعن فى اللّبات منحرف

لما أمالوا إلى النُّشَّاب أيديهم ... ملنا ببيض فظل الهام يقتطف

وخيل بكر فما تنفك تطحنهم ... حتى تولوا وكاد اليوم ينتصف

---

(١) أى كتيبة مجتمعة .

(٢) إى الدروع .

(٤) دعوة كسرى إلى الإسلام

ظهر الإسلام فى الجزيرة العربية ، وبدأ نوره يغمر أجزاءها ، حين تلقى الرسول الكريم الأمر الإلهى « يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » .

ودعا الرسول الكريم العرب إلى الدين الجديد ، وخرجت دعوته فى عصر عاش الناس فيه فى الظلام ، وعبدوا الأصنام التى لا تضر ولا تنفع ولا تخلق ولا ترزق ، فقلب أوضاع المجتمع ، وهدم الأصنام ، وأعاد الناس إلى الصواب ، وقادهم إلى حيث النور ، ونبههم إلى ما هم فيه من ضلالة وغى ، وحارب فيهم الوثنية والشرك ، والضلال والفساد . والرذائل والمنكرات ، والأهواء الضالة ، والأوهام الضارة ، والشهوات الجامحة ، والخرافات الكاذبة ، والتقاليد البالية ، ودعا إلى التوحيد المطلق ، وقرر مبادىء العدالة ، والحرية ، والمساواة ، والإخاء ، وأثار لديهم يقظة الضمير ، والشعور بالمسئولية ، والتقدير للعهود والحرمات ، وارتفع بهم من عبادة الأصنام ، إلى عبادة الله الواحد القهار .

واستجابت الأمة العربية ، بعد فترة من الجهاد المتصل ، والكفاح النبيل ، والصبر الجميل ، إلى الدعوة الجديدة ، وآمنت برسالة محمد، ودخلت فى الإسلام ، الذى ارتضاه الله ديناً لخلقه ، واجتمعت كلها تحت لواء واحد من هدى الله ، وفى ظل رسالة كاملة هى شريعة الله .

ورأى الرسول الكريم أن يخرج بدعوته عن حدود الجزيرة العربية ، وأن يبلغها إلى الأمم والدول التى تجاور أمة العرب .

وكان هذا الاتجاه من جانب الرسول ، نقطة تحول هامة فى تاريخ

---

(١) سورة المدثر ١/٧

العرب ، فقد تطورت علاقة العرب بالدول خارج حدودهم ، تطوراً كبيراً خطيراً ، أدى إلى إخضاع العرب لهذه الدول ، واتساع رقعة الدولة العربية الإسلامية ، اتساعا ارتفع بالأمة العربية ، إلى مستوى الأمم الكبيرة العظيمة .

كان هرقل وكسرى على رأس دولتى الروم والفرس ، أقوى دول العصر ، وصاحبتى التوجيه فى سياسة العالم وفى مصاير أممه ، وكانت الحرب سجالا بين الدولتين ، وفازت الفرس فى أول الأمر ، ثم دارت عليها الدائرة ، واستردت دولة الروم وجودها وكيانها ، وكان لكل من الدولتين مكانة مرموقة ، جعلت الدول الأخرى تسعى إلى طلب ودها ، ولم تفكر دولة مهما بلغ شأنها أن تتعرض لإحداهما ، وكان من الطبيعى أن يكون ذلك هو شأن الجزيرة العربية ، فقد كانت محصورة فى دائرة نفوذ الإمبراطوريتين ، وكانت حياة أهلها وقفاً على التجارة مع اليمن التى تخضع للفرس ، ومع الشام الخاضعة للروم ، فكان العرب بذلك فى أشد الحاجة إلى مراضاة كسرى وهرقل ، حتى لا يفسدا بسلطانهما تجارتهم .

هذا فوق أن العرب ، كانوا قبائل متنازعة ، تشتد الخصومة بينها حيناً ، وتهدأ حيناً آخر ، لا رابطة بينها تجعل منها وحدة سياسية ، تستطيع أن تفكر فى مواجهة نفوذ الدولتين الكبيرتين ، ومن هنا تبرز أهمية اتجاه الرسول إلى الدولتين ، وتوجيه الدعوة إلى ملكيهم ، للدخول فى الإسلام ، والإيمان بالرسالة التى أوحى إليه بها .

جمع الرسول الكريم أصحابه ، وقال لهم « أيها الناس إن الله قد بعثنى رحمة للناس كافة ، فأدوا عنى يرحمكم الله ، فلا تختلفوا علىّ ، كما اختلف

الحواريّون(١) على عيسى بن مريم » ؛ فسأله أصحابه « وكيف اختلف الحواريّون يارسول الله » ؟ ، فقال « دعاهم إلى الذى دعوتكم إليه ، فأما من بعثه قريباً فرضى وسلم ، وأما من بعثه بعثاً بعيداً ، فكره وجهه وتثاقل »(٢).

ثم صرح الرسول عليه الصلاة والسلام ، بأنه سيوجه رسله إلى هرقل ، وكسرى ، والمقوقس ، والحارث الغسانى ملك الحيرة ، والحارث الحميرى ملك اليمن ، ونجاشى الحبشة ، يحملون إليهم الدعوة إلى الدخول فى الدين الجديد ، وأجابه أصحابه إلى ما أراده .

وسنتناول فى هذا الموضع ، رسالة الرسول الكريم إلى كسرى ملك الفرس ، لأنها ترتبط بموضوع الكتاب ، ولقد كانت هذه الرسالة ، ذات أثر كبير ، فى العلاقات القائمة بين العرب والفرس .

فى السنة السادسة للهجرة ، بعث الرسول عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى ، ومعه هذه الرسالة(٣) « من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ... سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وأدعوك بدعاية الله عز وجل ، فإنى رسول الله إلى الناس كافة ، ولأنذر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين ، واسلم تسلم ، فإن توليت ، فإن إثم المجوس عليك »(٤).

---

(١) فى رواية أخرى « كاختلاف الحواريين » .

(٢) فى بعض الروايات « دعا إلى مثل مادعوتكم إليه ، فأما من قرب منه فأحب وسلم وأما من بعد به فكره وأبى ، فشكا ذلك منهم عيسى إلى الله عز وجل ، فأصبحوا من ليلتهم تلك وكل رجل منهم يتكلم بلغة القوم الذين بعث إليهم ، فقال عيسى هذا أمر قد عزم الله لكم عليه ، فامضوا » .

(٣) صبح الأعشى ج ٦ ص ٣٧٦/٣٨٠

(٤) وردت الرسالة بنص آخر فى كتاب « الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية » ليوسف ابن إسماعيل النبهانى (ص ١٦٦) ... وقد أثبت الطبرى هذه الرسالة كالآتى : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله ، إلى كسرى عظيم فارس ... سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله ، وحده =

تلقى كسرى الرسالة وعرف مضمونها ، وكان من الطبيعي — وهو الملك الذى ورث الحق المقدس عن أجداده من آل ساسان — أن يرفض الدعوة ، حتى لا يكون تابعاً لسلطة دينية فى يد العرب ، هذا فوق أنه كان يخشى من الدين الجديد ، على شخصه وعرشه وسلطانه ، وقد كانت كلها موضع قداسة الشعب .

ثم إن الفرس ، كانوا يحكمون اليمن والحيرة ، وكانت لهم السيادة على عرب المنطقتين ، وهؤلاء ، لا يقلون فى نظرهم عن عرب الحجاز .

وفى ضوء هذه الاعتبارات ، رفض كسرى الدعوة ، وثار ثورة كبيرة ، واستشاط غضباً ، فمزّق كتاب الرسول .

ثم تجرأ وقد ركبه الغرور ، فكتب إلى عامله على اليمن ، رسالة يقول له فيها « ابعث إلى هذا الرجل[1] الذى بالحجاز ، رجلين من عندك ، جلدين ، فليأتيانى به »[2] .

ولما بلغت النبي مقالة كسرى ، ومافعل بكتابه ،قال عليه الصلاة والسلام « مزّق الله ملكه » .

وبعث باذان حاكم اليمن من قبل كسرى ، برسولين من عنده ، معهما كتاب ، إلى الرسول الكريم ، يأمره فيه ، أن ينصرف مع الرسولين إليه.

وخرج الرسولان حتى قدما الطائف ، فسألا رجالا من قريش عن

= لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله عز وجل ، فإنى رسول الله إلى الناس كلهم ، لأنذر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين ، اسلم تسلم فإن توليت فعليك إثم المجوس » [حـ ٢ ص ٢٩٦] .

(١) يقصد الرسول الكريم .

(٢) ذكرت بعض المراجع أن كسرى طلب إلى باذان ، أن يبعث إليه برأس الرسول .

الرسول ، فأجابوهما أنه بالمدينة ، ولما عرفوا سبب قدومهما ، استبشروا ، وقال بعضهم « أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك ، كفيتم الرجل » .

ووصل الرجلان إلى حيث كان الرسول ، وقالا له « إن كسرى قد بعثنا إليك ، لتنطلق معنا » ، فأمهلهما الرسول حتى الغد ، وأتاه صلى الله عليه وسلم ، خبر من السماء ، أن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله ، وتولى بدله الملك ، وكان كسرى ابرويز قد طغى وبغى وعتا وظلم وجار ، وأخذ أموال الناس ، وسفك دماءهم ، فمقته الناس ، وخلعوه وحبسوه ، وملكوا عليهم ابنه شيرويه ، الذى دس على أبيه من قتله فى حبسه(١).

فلما جاء الرجلان إلى الرسول فى الغد ، أخبرهما نبأ كسرى ، وطلب منهما ، أن يبلغا باذان النبأ « اخبراه ذلك عنى ، وقولا له إن دينى وسلطانى سيبلغ مابلغ ملك كسرى ، وقولا له إنك إن أسلمت أعطيتك ماتحت يديك ، وملكتك على قومك من الأبناء »(٢).

ورجع الرجلان ومعهما خبر كسرى ودعوة صريحة من النبى الكريم إلى الإسلام ، فقال لها باذان « والله ما هذا بكلام ملك ، وإنى لأرى الرجل نبياً كما يقول ، ولننظرن ماقد قال ، فلئن كان هذا حقاً ، فانه لنبى مرسل ، وإن لم يكن ، فسنرى فيه رأينا » .

وبعد فترة تلقى باذان رسالة من شيرويه ، يقول فيها « أما بعد ، فإنى قد قتلت كسرى ، ولم أقتله إلا غضباً لفارس . لما استحل من قتل أشرافهم ،

---

(١) قتل شيرويه سبعة عشر من إخوته ، ولم يستقم ملكه ، ولم يصلح حاله ، وعاجلته المنية ، فتولى الأمر من بعده إبنه أردشير .

(٢) المقصود بالأبناء قوم من الفرس سكنوا البلاد العربية ، واختلطوا بالعرب بالمصاهرة وقال السمعانى أن المقصود بالأبناء كل من ولد باليمن من أبناء فارس .

فإذاجاءك كتابي هذا ، فخذ لى بالطاعة من قبلك ، وانظر الرجل[١] الذى كان كسرى كتب فيه إليك ، فلا تهجه ، حتى يأتيك أمرى منه » .

وصدق باذان مابعث به إليه الرسول ، فآمن به نبياً ، وقال « إن هذا الرجل لرسول » ثم أعلن دخوله فى الإسلام عن إيمان وعقيدة وإحساس ، وآمن معه القوم جميعاً ، كما آمن أهل اليمن ، وقد عرفوا ماحل بفارس من هزائم ، وشعروا بانحلال سلطانها عليهم .

وقبل الرسول إسلام باذان ومن معه من أهل اليمن ، وأمره بأن يبقى على ماهو عليه ، وأن يكون أول عامل مسلم على اليمن .

وهكذا تقلص ظل فارس فى الجزيرة العربية ، وانتهى أمرها بها .

وهكذا تنتهى مرحلة هامة فى العلاقات العربية الفارسية ، لتبدأ مرحلة أخرى أكثر أهمية ، ما أن تأتى إلى نهايتها ، حتى تكون فارس جزءا من الأمة العربية ، تدين بالإسلام ، وتؤمن بمحمد نبياً ورسولا .

---

(١) يقصد الرسول الكريم .

الباب الثاني

التمهيد لفتح العراق

على يد القائد العربي المثنى بن حارثة

يا خليفة رسول الله
استعملني على قومي فإن فيهم إسلاماً
أقاتل بهم أهل فارس وأكفيك
أهل ناحيتي من العدو

المثنى بن حارثة
في حديث مع أبي بكر الصديق

بنو شيبان

بدأ الصراع بين العرب المسلمين وبين الفرس على يد القائد العربى المثنى ابن حارثة الشيبانى ، وكان المثنى وقومه بنو شيبان ، طلائع الفتح العربى الإسلامى فى العراق .

والمثنى بن حارثة ، ينتمى إلى بنى شيبان ، وهم من العرب المستعربة[١]... هم فى أصلهم من العدنانيين ، وهؤلاء كانوا يعيشون فى نجد . . . تزوج سعد بن عدنان بنت الحارث بن مضاض الجرهمى[٢]، فولدت له نزاراً ، الذى ولد له أربعة ، كان منهم مضر وربيعة .

وكان مضر أهل الكثرة من بنى عدنان ، وكانت لهم رئاسة بمكة ، وكانت ديار ربيعة ما بين الجزيرة والعراق ، ومن ربيعة جاء أسد ، ومنه جديلة ، ومن جديلة بكر وتغلب إبنا وائل بن قاسط ، ومن بكر جاء ثعلبة ، الذى كان له ثلاثة أولاد هم شيبان وقيس وذهل ، وشيبان هو الجد الأكبر للمثنى ، (المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعيد بن مرة بن ذهل ابن شيبان)[٣].

عاش المثنى مع قبيلته فى منطقة البحرين[٤] ، وهى منطقة قريبة من أرض العراق ، وكان كثير من أبناء الفرس يستوطنون هذه المنطقة.

---

(١) جعل المؤرخون العرب طبقات ثلاث هى العرب البائدة والعاربة والمستعربة وأزاد الألوسى طبقة رابعة هى العرب المستعجمة وقسم ابن خلدون العرب إلى عاربة ومستعربة وتابعة للعرب .

[بلوغ الأدب فى معرفة أحوال العرب ج ١]

(٢) ذكرت بعض الروايات أنه تزوج بنت أحد أولاد الحارث.

(٣) كتاب المثنى بن حارثة للمؤلف ص ١٥ .

(٤) البحرين إسم جامع لبلاد على ساحل الخليج العربى بين البصرة شمالا وعمان جنوباً .

[معجم البلدان ج ٢ ص ٧٢]

ويعيشون فى ربوعها ، وكانت فارس تمدهم بنفوذها وبقواتها ، كلما خشيت ثورة العرب عليهم ، أو محاولتهم القضاء على سلطانها هناك ، ومن هنا وقع الصدام بين بنى شيبان وبين الفرس .

ذكر ابن الأثير أن الإسلام جاء « وليس فى العرب أعز داراً ، ولا أمنع جاراً ، ولا أكثر حليفاً ، من شيبان »[٤]، وكانت شيبان إحدى القبائل العربية التى سمعت بالدين الجديد ، منذ بدأ الرسول الكريم يدعو إليه ، وتتبعت شيبان أخبار الدعوة والدين ، واستعرض رجالها أوصاف الرسول ، وتجاذبوا الحديث عن أخباره وانتصاراته المتوالية ، وكانت قلوبهم تتفتح للدين الجديد ، واعتقادهم فيه يقوى ، وإيمانهم به يزيد ، إلا أنهم وغيرهم من القبائل العربية المنتشرة فى أرجاء الجزيرة ، كانوا يترددون فى إعلان إسلامهم ، فى انتظار موقف قريش ، لأنها كانت ذات مكانة مرموقة بين العرب ، فوق أن أهلها كانوا أهل الحرم ، فلما انتهى الأمر بالنسبة لقريش فى مكة ، ودخلها الرسول الكريم ظافراً منتصراً ، سار وفد من بنى شيبان فى العام التاسع الهجرى ، إلى الرسول ، وأعلنوا إسلامهم ، وكان المثنى بن حارثة ضمن هذا الوفد ، وكذلك كانت امرأته سلمى بنت حفصة .

المثنى بن حارثة

كان المثنى قبل إسلامه قد التقى بالرسول الكريم حين قدم عليه الصلاة والسلام قبل الهجرة على جماعة من بنى شيبان ، وفى هذا اللقاء ، تلا الرسول قول الله تبارك وتعالى « قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم » و « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » ، فتقدم المثنى من الرسول وقال « قد سمعت مقالتك ، واستحسنت قولك ، وأعجبنى ماتكلمت به ، ولكن علينا عهد من كسرى لانحدث حدثاً ، ولا نؤوى محدثاً ، ولعل هذا الأمر الذى تدعونا إليه مما يكرهه الملوك ، فإذا أردت أن ننصرك ونمنعك مما يلى بلاد العرب ، فعلنا »

فقال له الرسول « إنه لا يقوم بدين الله ، إلا من حاطه بجميع جوانبه » .

ولقد نال المثنى شرف الصحبة ، ولكنه لم يشترك فى القتال الذى خاض الرسول غماره .

وكان للمثنى موقف جليل خلال الردة ، فقد بقى على دينه ، وثبت عليه ، وأسهم مع العلاء بن الحضرمى فى القضاء على المرتدين ، كما وصل بقواته إلى دلتا الفرات ، مهدداً الفرس ، الذين كانوا يسندون قوات المرتدين ، بقيادة الحطم بن ضبيعة .

وللمثنى شقيقان ، نشآ معه ووقفا بجانبه فى جهاده فى بلاد العراق ، وشاركاه القتال ، وأخذا بنصيب كبير فى المعارك التى خاضها ، وهما . . . المعنى ، الذى تولى قيادة الجردة[١] ، ومن أشهر مواقعه إستيلائه على حصن المرأة[٢] . . . ومسعود ، قائد المشاة ، وصاحب البلاء الحسن فى الجسر ، والبطل الشهيد فى البويب .

وكان عمران بن مرة ، خال المثنى ، مثلا يقتدى إذ كان موضع فخر بنى شيبان ، لبطولته وقوته وبسالته ، قال عنه أعشى همدان ، أنه ساد فى الجاهلية ، وساد فى الإسلام .

وعاشت سلمى بنت حفصة ، زوجا وفياً للمثنى ، شاركته جميع مواقعه ، وعاشت معه حياة الجهاد فى الميدان ، تشد من أزره ، وتعاونه ، وتفخر ، ببطولته ، وبقيت إلى جانبه حتى مات ، قبل القادسية ، وتزوجها من بعده سعد بن أبى وقاص .

أرض السواد

يقصد بأرض السواد أرض العراق ، وسميت كذلك ، لأن العرب

(١) الكتيبة من الخيالة التى لا مشاة معها .

(٢) حصن قرب البصرة لإمرأة فدعى كامورزاد .

كانوا إذا خرجوا من أرضهم التى لازرع بها ولا شجر ، وقعت أبصارهم على خضرة الزرع والأشجار والنخيل فى أرض العراق ، فكانوا يطلقون عليها اسم أرض السواد ، لخضرتها ، وكان العرب يسمون الأخضر سواداً[١]، وكانوا يرون فى أرض السواد بلاداً أسبغ الله عليها من الماء والخضرة ما صيرها بهما جنة الفردوس ، وكانوا يطلقون عليها جنة الأرض ، لكثرة غلاتها ووفرة خيراتها .

وكان العرب يحددون أرض السواد من حديثة الموصل ، إلى عبدان طولا ، ومن العذيب إلى حلوان عرضاً[٢].

وكانت أرض السواد مستعمرة فارسية ، رغم كثرة العرب الذين يعيشون فوقها ، ولهذا كانوا يرونها عربية ، يجب أن تتبع العرب دون الفرس ، ومن هنا بدأ التفكير فى إنقاذها ، وتخليصها من يد الفرس وجعلها خالصة للعرب ، دون غيرهم .

وانتهز المثنى فرصة معاونة الفرس للمرتدين فى منطقة البحرين ، فقرر أن يغير بقواته على أرض السواد ، ومهّد له سبيل الإغارة ، ماتلقاه من معلومات عن المنطقة . . .

* فالعرب الذين يعيشون فيها يقاسون الكثير من ظلم الحكام .
* والفرس منقسمون على أنفسهم ، وفروع البيت المالك فى نزاع مستمر ، وكل أمير يسعى إلى قتل الجالس على العرش ، ليأخذ مكانه، حتى أن تسعة من الأمراء ، تولوا العرش خلال أربع سنوات .

---

(١) فى هذا المعنى يقول العباس بن عتبة بن أبى لهب ، وكان أسوداً :

وأنا الأخضر من يعرفنى أخضر الجلدة من نسل العرب

(٢) حديثة الموصل ... بلدة على دجلة .
العذيب ... موضع قرب القادسية .
حلوان ... آخر حدود السواد ، وهى تتبع اليوم لإيران ، وتقع شرق خانقين .

* وسلطان الفرس قد ضعف ، نتيجة لانتصار هرقل عليهم ، وفقدهم لجيوشهم فى نينوى ودستجرد ، ومما يؤكد ضعفهم ، أن باذان أعلن إسلامه هو ورجاله وأهل اليمن جميعاً ، دون أن يحرك الحكام ساكناً لاستردادها .

التقدم

تقدم المثنى بقواته شمالا من البحرين ، وتحت قيادته ثمانية آلاف مقاتل من خيرة الأبطال ، ووضع يده على القطيف ، وهجر ، وبلغ مصب دجلة والفرات فى الخليج العربى ، ثم هاجم مدينة دهشتا باذاردشير ، وهى إحدى المدن العتيقة ، واستولى عليها وخربها ، بعد أن غنم أموالها ، وأطلق عليها العرب اسم الخريبة[1] .

ثم هاجم المثنى مدينة الأبلة[2] ، وانتصر على قوة فارسية كبيرة كانت تعسكر بها ، وأسر عدداً كبيراً من رجالها .

وعطف المثنى على الحيرة ، ووقعت مناوشات كثيرة بينه وبين سكانها ، وكانت شجاعة وبطولة رجاله ، من العوامل التى أثارت روح النفور والتمرد فى القبائل العربية ، ضد الحكم الفارسى ، حتى بلغ الأمر ببعض هذه القبائل ، أن حملت السلاح فى وجه حكامها .

تقدير الموقف

بلغت أخبار تقدم المثنى أبا بكر ، وكان وقتها يفكر فى توجيه الجيوش

---

(١) سميت كذلك لكثرة ما أصابها من الخراب .
وبنيت مكانها مدينة البصرة القديمة أيام عمر بن الخطاب ، واهتم بها المسلمون ، حتى أصبحت أهم بلاد العراق ، وسميت خزانة العرب .

(٢) فى موقع البصرة الحالية ، ويقول الدينورى فى الأخبار الطوال « ... كانت الأبلة مرفى سفن البحر من عمان والبحرين وفارس والهند والصين » .

العربية إلى خارج الجزيرة ، فتساءل « من هذا الذى تأتينا أخبار وقائعه قبل معرفة نسبة ؟ » ، فأجابه قيس بن عاصم بن سنان المنقرى[١] « هذا رجل غير خامل الذكر، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد ... هذا المثنى بن حارثة الشيبانى »[٢] .

وكان المثنى قد رأى أن يشرك الحكومة المركزية فى العمليات الحربية فى هذه المنطقة ، وذلك لاعتبارات متعددة هى ...

* ليس من المستطاع لقواته ، أن تستولى وحدها على مملكة عظيمة مترامية الأطراف .
* ليس فى مقدرة المثنى تعويض الخسائر فى الرجال .
* الحرب ضد الفرس ليس لها طابع رسمى ، وإنما هى جهد فردى له حدوده وطاقاته وإمكانياته .
* الخوف من الهزيمة ، فتقع مسئوليتها على عاتقه وحده ، وتكون مشجعاً للفرس ، على متابعة الإنتصار ، وعلى استرداد نفوذهم الذى فقدوه فى البحرين وما جاورها .

اللقاء مع أبى بكر

وحضر المثنى إلى المدينة ، ليتصل بأبى بكر[٣] ، وليسأله أن يؤمره على

(١) من تميم قدم مع وفد على رسول الله فلما رآه الرسول قال « هذا سيد أهل الوبر » وقيل للاحنف بن قيس « ممن تعلمت الحلم ؟ » أجاب « من قيس بن عاصم » ،
[أسد الغابة ج ٤ ص ٢١٩)

(٢) البلاذرى ص ٢٤٢ .

(٣) نفت بعض المراجع ذهاب المثنى إلى المدينة وقالت إنه ظل فى أرض العراق يقاتل الفرس حتى وصلت أنباء تحركاته إلى أبى بكر فسأل عنه ثم أمر خالداً ليخف لنجدته وتؤيد هذه المراجع روايتها بأن المثنى لم يكن فى حاجة إلى مدد لأنه كان منتصراً وأن انتصاره هو الذى شجع أبا بكر على التفكير فى غزو العراق هذا فوق أنه لم يفقد عدداً كبيراً يستحق التعويض .

رجاله ، يهاجم بهم الفرس فى العراق ، وأن يمده بقوات تكون عوناً له فى هذه المهمة الخطيرة والجليلة ، فى ذات الوقت ، وعندما تم اللقاء قدم المثنى لأبى بكر صورة واضحة المعالم عن أرض السواد ، وحدثه بتفاصيل غاراته ووقائعه ، ونقل إليه وصفاً دقيقاً للحالة الداخلية فى فارس ، فحدثه عن اضطراب الأمور بها وانهيار كل قوة أو منعة فيها ، ومازال المثنى يهون على الخليفة أمر العراق ويغريه بها .

قال المثنى « يا خليفة رسول الله استعملنى عن قومى ، فإن فيهم إسلاماً أقاتل بهم أهل فارس وأكفيك أهل ناحيتى من العدو »(١).

واستجاب أبو بكر للمثنى ، وكتب له بذلك عهداً ، وعاد المثنى إلى بلاد العراق ، واستمر يهاجم أهلها ، ويشن غاراته .

مسيرة خالد

عاد المثنى فبعث بأخيه مسعود إلى أبى بكر ، يسأله المدد ، وكان رأى أبى بكر قد استقر نهائياً ، على توجيه حملة قوية ، إلى أرض العراق ، يتولى قيادتها خالد بن الوليد ، وأمر أبو بكر خالداً بأن يجمع بقية جنده فى اليمامة ، ويسير بهم إلى العراق ، على رأس عشرة آلاف(٢) ، كما أمر أبو بكر ، عياض بن غنم ، بالسير إلى دومة الجندل ، فإذا فرغ منها ، تحرك شرقاً إلى العراق ، لمعاونة الجيش الإسلامى بقيادة خالد .

(١) أسد الغابة ج ٤ ص ٢٩٩

وفى رواية أخرى « أقرنى على من قبلى من قومى أقاتل من يلينى من أهل فارس وأكفك ناحيتى »

[كتاب الصديق أبو بكر ص ٢٣١]

(٢) هناك رواية أخرى للطبرى والبلاذرى تقول إن خالداً سار من المدينة ؛ وليس من اليمامة ، وقد تكون وجهة نظرها ، أن تكليف خالد بمهمة شاقة وهامة كفتح العراق ، أمر يحتاج إلى اتصال مباشر شخصى مع أبى بكر ، فى عاصمة الدولة ، أى فى المدينة ، لبحث المهمة ، ودراسة ظروفها ، وكيفية تجهيزها وإعدادها .

ولما وصل خالد إلى العراق ، كتب إلى المثنى ليأتى إليه ، وكان مع قواته فى معسكر خفان[١] ، ودفع إليه بكتاب من أبى بكر ، يأمره فيه بالسمع والطاعة له ، فسارع المثنى ومعه ثمانية آلاف إلى مقر قيادة خالد ، وعمل تحت إمرته كأى جندى مسلم ، يجاهد فى سبيل الله ، وقاتل المثنى تحت قيادة خالد ، فى كل معاركه فى العراق ، تارة تحت قيادته المباشرة ، وتارة قائداً مستقلا لمجموعة من الجند أو لقطاع من الجيش ، وكان خالد يقدر المثنى غاية التقدير ، ويعتمد عليه اعتماداً كبيراً .

---

(١) موضع قريب من الكوفة ، وفوق القادسية .

الباب الثالث

بداية الفتح العربي
على يد القائد العربي خالد بن الوليد

اللهم . .
إن لك علي إن منحتنا أكتافهم
ألاّ أستبقي منهم أحداً قدرنا عليه
حتى أجري نهرهم بدمائهم .

خالد بن الوليد
قبيل أن يخوض معركة أليس

القائد خالد

قرر أبو بكر ، الخليفة الأول ، أن تسهم الحكومة المركزية فى المدينة ، فى العمليات الحربية فى العراق ، وأن تجيش الجيوش ، وتحركها إلى هناك ، ورأى أن يعهد بقيادة هذه العمليات ، إلى قائد شجاع همام من قادة العرب ، ووقع إختياره على خالد بن الوليد . .

وخالد ، هو ابن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، من قريش ، التى تتفرع عند مرة بن كعب ، إلى فروع ثلاثة ، يبدأ أحدها بيقظة بن مرة ، وينتهى بخالد بن الوليد ، ويبدأ الثانى بكلاب ، وينتهى بالرسول الكريم ، أما الثالث ، فيبدأ بتيم ، وينتهى بأبى بكر .

وبنو مخزوم ، بطن من بطون قريش ، كانت إليهم القبة والأعنة[1] ، من مظاهر الشرف فى قومهم ، وفيهم عدد كبير من ذوى العقول الراجحة ، مثل المغيرة بن عبد الله بن عمر ، وكان معروفاً بالجود واشتهر به ، وأبى وهب بن عمرو ، وهو خال أبى رسول الله ، وقد قال فيه الشاعر :

ولو بأبى وهب أنخت مطيتى   غدت من نداه رحلها غير خائب
أبىّ لأخذ الضيم يرتاع للندى   توسط جداه فروع الأطايب

وأبوه ، هو الوليد بن المغيرة ، سيد من سادات قريش ، جواداً من أجوادها ، كان يلقب بالوحيد ، وكانت قريش تتحاكم إليه ، وتدعوه ريحانتها وعدلها[2] ، وكان ينهى أن توقد نار فى منى غير ناره ، وكان قد حرم على نفسه شرب الخمر ، ووقف موقفاً عدائياً من الرسول ، حين نادى بالدين

(١) كانوا يضربون القبة يجمعون فيها مايجهزون به الجيش ، والأعنة هى قيادة الفرسان فى الحرب .

(٢) كان يعدل قريشاً وحده فى كسوة الكعبة ، فيكسوها من ماله سنة ، وتكسوها قريش مجتمعة سنة .

الجديد ، وهو صاحب القول المعروف « أينزل على محمد وأترك أنا كبير قريش وسيدها ، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى ، سيد ثقيف ، ونحن عظيما القريتين » ، وفيه نزل قوله تعالى « وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »(١) ، وهو الذى وصف الرسول لقريش ، فقال « .... أصلح ما قيل فيه ساحر ، لأنه يفرق بين المرء وأخيه وزوجته »(٢) ، وهو الذى نزلت فيه بعض الآيات الكريمة من سورة المدثر « ذرنى ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا ممدوداً ، وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيـــداً ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيداً ، سأرهقه صعوداً ، إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر »(٣) .

وأم خالد ، إسمها عصماء ، وهى لبابة الصغرى بنت الحارث بن حرب ، وأخت لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب ، وميمونة أم المؤمنين زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان لخالد ثلاث إخوة ، هم الوليد وكان أسبق الأخوة إلى الإسلام ، وكانت له يد مذكورة فى إسلام خالد ، وعمارة ، وكان شاباً جميلا مشت به قريش إلى أبى طالب ، ليأخذه ويخلى بينهم وبين الرسول ليقتلوه ، فأجابهم « أنعطونى إبنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم إبنى تقتلونه » ، والثالث هو هشام .

وتفرغ خالد فى شبابه لأعمال الفروسية وركوب الخيل واستعمال السيف والعدو ، ولم يحترف حرفة تدر عليه ربحاً مادياً ، فوالده كان من أغنى أغنياء قريش .

---

(١) سورة الزخرف ٣١

(٢) ابن الأثير فى الكامل ج ٢ ص ٢٨

(٣) سورة المدثر ١١/٢٤ .

وكان خالد يتولى قيادة الرجال فى الحرب ، بل كان يقوم بعمل الأستاذ ، وقت السلم ، فيدرب الرجال ويعلمهم شئون الحرب وفنونها .

ولم يعلن خالد إسلامه إلا متأخراً ، ووقف موقفاً عدائياً من الإسلام ، وكان شديد الخصومة ، شديد الحرص على النكاية بالمسلمين ، ولعله كان فى موقفه هذا ، متأثراً بموقف أبيه .

ولم يتردد إسم خالد فى غزوة بدر ، ولكنه لمع فى غزوة أحد ، وبرز فنه العسكرى فى هذه الغزوة ، بصورة حولت هزيمة قريش إلى نصر ، أعاد لها اعتبارها بعد هزيمتها فى بدر ، فقد كان خالد على ميمنة جيش قريش فى الخيل ، وكان الرسول الكريم ، قد خصص قسما من الرماة ، على رأسهم عبدالله بن جبير ، لحماية ظهر المسلمين ، وقال لهم « قوموا على مصافكم هذه ، فاحموا ظهورنا ، فإن رأيتمونا قد غنمنا ، فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نقتل ، فلا تنصرونا » ، وقال لعبد الله « إنضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كان لنا أو علينا ، فاثبت مكانك ، لا نؤتين من قبلك » ولكن الرماة — وقد رأوا انتصار المسلمين — تركوا أماكنهم ، ليشاركوا فى جمع الغنائم ولاحظ خالد خلاء الجبل ، فكر بالخيل ، وضرب قوات المسلمين من الخلف على حين غرة منهم ، وانتقضت صفوف المسلمين واستدارت رحاهم .

وفى غزوة الخندق ، كان خالد على رأس كتيبة من المشركين ، وهاجم مواضع المسلمين بشدة ، حتى شغلهم عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء .

وفى الحديبية ، تقدم خالد إلى كراع الغميم ، ليحول بين المسلمين وبين مكة .

وتلقى خالد رسالة من أخيه الوليد — وكان قد سبقه إلى الإسلام — وفيها دعوة إلى الإسلام ، فوقعت منه موقعاً حسناً ، فقرر الهجرة ، والدخول فى الإسلام ، وقدم إلى المدينة ، ومعه عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة ، فى اليوم الأول من صفر سنة ثمان ، وأسلم الثلاثة ، وشهدوا شهادة الحق ، وقال له الرسول « قد كنت أرى لك عقلا ، رجوت الا يسلمك إلا إلى خير » ، وقال الرسول لأصحابه « ألقت إليكم مكة افلاذ كبدها » .

وكان إسلام خالد كسباً عظيما للمسلمين ، فقد أصبح أحد جنودهم وشهر سيفه فى وجه قريش ، يحمى الدعوة ويصونها ، فاشترك فى مؤته ويرجع إليه فضل إنقاذ جيش المسلمين من الهلاك ، بعد أن قتل قادته الثلاث زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبدالله بن رواحة ، فقد تولى قيادة الجيش ، وقاتل قتالا شديداً ، فلما أظلم الليل ، غير نظام جيشه ، وظل يناوش الروم سبعة أيام ، كان خلالها يسحب بعض قواته إلى الخلف ، دون أن يشعر الروم بذلك ، حتى عاد بقواته إلى المدينة سالماً .

وشارك خالد أيضاً فى غزوة الفتح ، وكان على ميمنة قوات المسلمين ، ودخل مكة من أسفلها ، ولم يحدث قتالا إلا فى جبهته بالخندمة ، وقتل خالد خلال القتال ثمانية وعشرين رجلا .

وأرسل الرسول خالداً لهدم العزى ، ثم إلى بنى جذيمة هادياً وداعياً إلى الإسلام .

وأسهم خالد فى حنين ، والطائف ، وبنى المصطلق ، وهدم ودّ فى دومة الجندل ، وعلى يديه أعلن بنو الحارث بن كعب بنجران إسلامهم .

ولعب خالد دوراً هاماً فى حروب الردة ، فقد نجح فى هزيمة طليحة ، وقتل مالك بن نويرة ، وقاتل مسيلمة الكذاب حتى قتل .

وبينما هو فى اليمامة ، تلقى أمراً بالتوجه إلى العراق ، ومن هناك تحرك إلى الشام ، حيث قاد المسلمين فى أعظم انتصاراتهم على الروم ، فى اليرموك .

وعاش خالد بقية حياته جندياً بسيطاً ، حتى مات بحمص سنة واحد وعشرين هجرية .

التحرك إلى العراق

أصدر الخليفة الأول أبو بكر الصديق ، رسالة جاء فيها ، بعد حمد الله والثناء على نبيه « لقد أمرت خالد بن الوليد بالسير إلى العراق ، حتى يأتيه أمرى ، فسيروا معه ، ولا تثاقلوا عنه ، فإنه سبيل يعظم الله فيه الأجر ، لمن حسنت نيته ، وعظمت فى الخير رغبته ، فإذا قدمتم العراق ، فكونوا بها حتى يأتيكم أمرى » .

وأمر أبو بكر خالداً بأن يتحرك من اليمامة ، ومعه جنده الذين يرغبون فى الجهاد ، وألا يستكره أحداً من الناس ، وألا يستعين بمرتد ، فسار خالد فى ألفى رجل ، وانضمت إليه ثمانية آلاف من ربيعة ومضر ، وانضم إليه أيضاً المثنى ومعه ثمانية آلاف ، وأصبح مجموع جيشه الذى لقى به عدوه فى أول معركة ، ثمانية عشر ألفاً ، وكان معه من الأمراء المثنى ، ومذعور ، وسلمة ، وحرملة .

كاظمة

أعاد خالد تنظيم قواته ، فقسم الجيش إلى ثلاثة فرق ، ولم يحملهم على

طريق واحد ، فجعل المثنى على رأس فرقة هى المقدمة ، وعدى بن حاتم وعاصم بن عمرو على رأس فرقة أخرى ، تلى فرقة المثنى ، وخرج هو على رأس الفرقة الثالثة ، وحدد للفرق الثلاثة مكاناً للتجمع فى الحفير[١] ، وسارت الفرق بفاصل يوم واحد .

كان أمير المنطقة من قبل العراق يسمى هرمز ، وهو ممن تم شرفهم [٢] بين أمرائها ، وهو من أبرز قادة الفرس ، كان يحارب العرب فى البر والبحر[٣] ، وكان من أسوأ الأمراء معاملة العرب ، حتى لقد بلغ من حقدهم عليه ، أن جعلوه مضرب المثل فى الخبث ، فقالوا «أخبث من هرمز» و « أكفر من هرمز » .

وكتب خالد إلى هرمز ، يدعوه إلى واحدة من ثلاث . . . الإسلام ، أو عقد الذمة ، أو القتال « أما بعد فاسلم تسلم ، أو أعتقد لنفسك وقومك الذمة ، وأقرر بالجزية ، وإلا فلا تلومن إلا نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبون الموت ، كما تحبون الحياة » .

فلما تلقى هرمز كتاب خالد ، كتب إلى أردشير يخبره بمسيرة خالد ، ويستمده ، ثم أسرع إلى الكواظم[٤] ، فوصلها قبل خالد ، ثم سبقه إلى الحفير ، ونزل على الماء فيها ، فاضطر خالد إلى أن ينزل بجيوشه على

---

(١) تقع بالقرب من خليج فارس على حدود الصحراء وعلى مقربة من ثغر كاظمة .
هى أول منزل من البصرة لمن يريد مكة .

(٢) كان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قدر أحسابهم فى عشائرهم فمن تم شرفة فقلنسوته مائة ألف .
وكانت قيمة قلنسوة هرمز مائة ألف .

(٣) ابن الأثير ج ٢ ص ١٤٨ .

(٤) على سيف البحر فى طريق البحرين من البصرة وقد مدحها الشعراء فقال أحدهم :
ياحبذا البرق، من أكناف كاظمة   يسعى على قصرات المرخ والعشر
[معجم البلدان ج ٧]

غير ماء[١] ، واتخذ هنـــاك تشكيلات القتال ، فجعل أولاد الملك قباذ وأنو شجان على ميمنته وميسرته ، واقترن وأصحابه بالسلاسل ، حتى لا يفروا[٢] .

وطلب هرمز خالداً للمبارزة ، مبيتاً للخيانة والغدر ، إذ اتفق مع أصحابه على الغدر به ، وبرز له خالد ، ومشى نحوه راجلا . وتضاربا ، فاحتضنه خالد ، ولكن حامية هرمز حملت عليه غدراً ، فلم يكترث خالد ، وقتل هرمز وسلبه ، وحمل القعقاع بن عمرو على الفرس ، حين رأى خيانة حامية هرمز ، فردهم ، وانهزم أهل فارس من أول لقاء ، وفر قباذ وأنو شجان ، فطاردهم المسلمون بقيادة المثنى ، حتى جاء الليل[٣] ، وكلف معقل بن مقرن المزني بالسير إلى الأبلة ليجمع مالها ، ففعل .

وأرسل خالد إلى أبي بكر ينبئه بالنصر ، وبعث إليه بالخمس ، وبفيل ، كان الفرس يستخدمونه في القتال ، وبقلنسوة هرمز ، فأعاد إليه أبو بكر القلنسوة . والفيل ، لأنه لا نفع فيه للعرب .

المذار

كان أردشير قد أعد جيشاً بقيادة قارن بن قريانس ، وهو أمير تم تشريفه ، ليكون مدداً لجيش هرمز ، والتقى هذا الجيش بفلول الجيش الهارب ، فضمها إلى جيشه ، وعسكر بقواته في المذار[٤] حيث التقى بقوات خالد .

---

(١) قال خالد لرجاله « ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين ، حطوا أثقالكم ، ثم جالدوهم على الماء » .

(٢) سميت بذات السلاسل ، وسماها بعض المؤرخين بموقعة كاظمة .

(٣) عهد إلى جماعة من فرسانه أن ينقضوا على خالد ويقتلونه ، إذا رأوه يخرج إليه .

(٤) الطبري ج ٢ س ٥٥٦ .

ودعا قارن خالداً للبراز ، فخرج له ، ومعه معقل بن الأعشى ، إلا أن معقلا كان أسبق من خالد إليه ، فقتله .

وعندما التحم الجيشان ، ودارت المعركة ، تمكن المسلمون من أعدائهم وقتلوا منهم ثلاثين ألفاً ، سوى من غرق ، وحاول المسلمون مطاردتهم ، ولكن المياه حجزتهم(١) .

الولجة

أرسل أردشير جيشين يقودها الاندرزغر وبهمن جاذويه ، اجتمعا فى الولجة ، وتدارس القائدان الموقف ، وقررا السير إلى حيث خالد ، ولكنه كان قد خلف سويد بن مقرن المزنى فى الحفير ، وتقدم بقواته إلى الولجة .

وقسم خالد جيشه إلى ثلاثة فرق ، سار هو على رأس واحدة منها ، وجعل من القسمين كميناً ، يقوده يسر بن أبى رهم ، وسعيد بن مرة .

وعندما بدأ القتال واجه خالد قوات الفرس وحده ، فلما اشتد القتال ، خرج الكمين ، وأحاط بقوات الفرس ، فولت الأدبار ، ومات الاندرزغر عطشاً .

أليس

أمر أردشير بهمن جاذويه ، أن يتقدم بجيشه إلى أليس(٢) ، وانضمت إليه جموع من فارس ومن نصارى العرب .

---

(١) موقع بينه وبين البصرة مقدار أربعة أيام ، وفيه قبر عبد الله بن على بن أبى طالب .

(٢) موضع فى أول أرض العراق من البادية وهى قرية من قرى الأنبار .

وأناب بهمن أحد قادته ، ويدعى جابان ، وأمره بالسير بالجموع إلى أليس ، قائلا له « كفكف نفسك وجندك عن قتال القوم حتى ألحق بك ، إلا أن يعجلوك »[١] ، وعند وصول جابان ، إنضم إليه نصارى من بكر ، واجتمعت إليه المسالح[٢] .

ووصلت قوات خالد فى وقت كانت قوات الفرس تتناول طعامها ، فأمر خالد بمهاجمتها ، فتركوا طعامهم ، وقاتلوا بشدة ، والتجأ خالد خلال القتال إلى ربه ، الذى وعد المؤمنين النصر ، وقال « اللهم إن لك على ، إن منحتنا أكتافهم ، ألا أستبقى منهم أحداً ، قدرنا عليه ، حتى أجرى نهرهم بدمائهم » ، وضيق خالد الخناق عليهم ، حتى هزموا ، فنادى فى الناس « الأسر .. الأسر .. لا تقتلوا إلا من امتنع » ، ثم جمع أسراه ، وأمر بضرب أعناقهم ، واستمر يضرب الأعناق فى النهر يوماً وليلة ، دون أن يجرى دما ، فقال له البعض « لو أنك قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤهم ... إن الدماء لا تزيد على أن ترقرق ، فأرسل عليها الماء تبر يمينك » ، وأمر خالد فأعيد الماء إلى النهر ـ وكان قد صده ـ فجرى دماء ، وسمى نهر الدم .

وكانت موقعة أليس أشد ما لقى خالد فى قتال الفرس ، وفى ذلك يقول « لقد قاتلت يوم مؤته ، فأنقطع فى يدى تسعة أسياف ، وما لقيت من أهل فارس قوماً كأهل أليس »[٣] .

أمغيشيا

ما أن انتهت موقعة أليس ، حتى أسرع خالد إلى أمغيشيا ، فأصاب فيها المسلمون ما لم يصيبوا مثله ، لأن أهلها تفرقوا فى السواد ، وتركوا كل

---

(١) قيل أن بهمن سار إلى أردشير فوجده مريضاً فبقى إلى جانبه وترك الأمر لجابان .

(٢) جمع مسلحة وهى التوم ذوسلاح .

(٣) فى رواية أخرى « ... وما لقيت من أهل فارس قوماً كأهل أليس » .

شيء من أثاث وعتاد وأموال، وبلغ سهم الفارس خمسمائة وألف درهم سوى الأنفال.

ولما علم أبو بكر بانتصارات خالد، قال «عجزت النساء أن يلدن مثل خالد»، وصوّر أبو مقرن الأسود انتصار خالد فى أليس وأمغيشيا، فقال:

لقينا يوم أليس وأمغى ويوم المقر أساء النهار
لم أر مثلها فضلات حرب أشد على الجحاجحة الكبار
قتلنا منهم سبعين ألفاً بقية حربهم نخب الأسار
سوى من ليس يحصى من قتيل ومن قد غال جولان الغبار

وأعلن أبو بكر انتصارات خالد على الناس قائلا «يا معشر قريش عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله».

الحيرة

قدّر صاحب الحيرة، وكان مرزبانا يدعى أزاذبه، أن خالداً سيقدم عليه، وأنه سيركب إليه النهر[١]، فأمر إبنه أن يسد قناطر الفرات، ليحول دون مسيل الماء فيما وراءها، فيعوق بذلك سير السفن، فلا تصل إليه، ثم خرج بجنوده، وعسكر خارج الحيرة.

وحمل خالد رجاله فى السفن، فسارت بهم شمالا فى اتجاه الحيرة، ولكنه فوجىء بالسفن تجنح وترتطم بقاع النهر، فغضب، وسأل عن علة ذلك، فقال له الملاحون «إن الفرس قد فجروا الأنهار، فسلك الماء غير طريقه» فخرج فى كتيبة من الفرسان، نحو إبن صاحب الحيرة. وباغته على فم العتيق[٢]، هو ورجاله، وهم آمنون من الإغارة، فاقتتلوا، وقتل إبن

---

(١) قدر أن خالداً سيركب النهر بالسفن التى أستولى عليها فى أمغيشيا.

(٢) يقصد به مصب الفرات الأصلى.

صاحب الحيرة ، وأعاد خالد الحياة إلى النهر ، فسارت السفن إلى الخورنق ، حيث تمت الاستعدادات بسرعة عجيبة لفتح الحيرة .

وبلغ المرزبان ما نزل بإبنه وجيشه من القتل والهزيمة ، فخارت قواه ، وضعفت عزيمته ، ولم يقو على لقاء جيوش خالد الظافرة ، وزاد فى فزعه ما أوصلته من أخبار موت أردشير ملك فارس ، وإختلاف أهل مملكته ، فيمن يولونه عليهم مكانه ، فأطلق لنفسه عنان الهرب من غير قتال ، واضطر أهل الحيرة إلى التحصن داخل قصورهم .

ووصل الجيش الإسلامى إلى الحيرة ، فوجد أهلها فى قصورهم ، فأمر خالد بحصارهم ، وعين لكل قصر قائداً من قادته ، على رأس كتيبة من جنده ، فكان ضرار بن الأزور على حصن القصر الأبيض وفيه إياس ابن قبيصة ، وكان ضرار بن الخطاب على قصر العدسيين وفيه عدى بن عدى ، وكان ضرار بن مقرن المزنى على قصر بنى مازن وفيه جيرى بن أكال ، وكان المثنى على قصر إبن قبيلة وفيه عمرو بن عبد المسيح .

وطلب خالد من قادته أن يدعوا المحاصرين إلى الإسلام ، فإن أجابوا قبلوا منهم ، وإن أصروا أجلوهم يوماً ، ثم قاتلوهم ، وقال لهم « لا تمكنوا عدوكم من آذانكم ، فيتربصوا بكم الدوائر ، ولكن ناجزوهم ولا تردوا المسلمين عن قتال عدوهم » .

ودعا أمراء المسلمين زعماء الحيرة إلى واحدة من ثلاث : الإسلام ، أو الجزية ، أو المنابذة ، واختار زعماء الحيرة المنابذة ، فأمر خالد بذبحهم ، ففض الجند عليهم قصورهم ، وأكثروا القتل فيهم .

وكان بالحيرة عدد من القسيسين والرهبان ، فنادروا عندما شاهدوا المذبحة « يا أهل القصور ما يقتلنا غيركم » ، فنادى أهل الحيرة — وقد

رأوا أن المقاومة عبث — « يا معشر العرب قد قبلنا واحدة من ثلاث ، فكفوا عنا تُبلغونا خالداً » .

واجتمع خالد بأهل كل قصر ، وقال لهم « ويحكم !! ما أنتم أعرب ؟ فما تنقمون من العرب؟ أم عجم؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل؟ » ، فأجابوه « بل عرب عاربة ، وأخرى متعربة » ، وقال لهم خالد « لو كنتم كما تقولون ، لم تحادونا ، وتكرهوا أمرنا » ، فأجابوه « ليدلك على ما نقول ، أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية» ، فقال خالد « فاختاروا واحدة من ثلاث : أن تدخلوا فى ديننا ، فلكم مالنا ، وعليكم ما علينا ، إن نهضتم وهاجرتم ، أو أقمتم فى دياركم ، أو الجزية ، أو المنابذة والمناجزة ، فقد والله أتيتكم بقوم ، هم أحرص على الموت منكم على الحياة » ، فقالوا « بل نعطيكم الجزية » ، فقال خالد « تباً لكم !! ويحكم ، إن الكفر فلاة[1] مضلة ، فأحمق العرب من سلكها ، فلقية دليلان ، أحدهما عربى فتركه ، واستدل الأعجمى »[2] .

وعقد خالد الصلح معهم ، وكان نص المعاهدة «بسم الله الرحمن الرحيم ... هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عديا ، وعمرو بن عدى ، وعمرو بن عبد المسيح ، وإلياس بن قبيصة ، وجيرى بن أكال ، وهم نقباء أهل الحيرة ررضى بذلك أهل الحيرة ، وأمروهم به ... عاهدهم على تسعين ومائتى ألف درهم ، تقبل فى كل سنة ، جزاء عن أيديهم فى الدنيا ، رهبانهم وقسيسيهم ، إلا من كان منهم على غير ذى يد ، حبيساً عن الدنيا ، تاركا لها ، وعلى المنعة ، فإن لم يمنعهم فلا شىء عليهم حتى يمنعهم ، وإن غدروا بفعل أو قول ، فالذمة منهم بريئة »[3] .

وبعث خالد إلى أبى بكر التسعين ومائتى ألف درهم ، والهدايا ، فقبلها

---

(١) الصحراء .

(٢) أى طلب منه أن يدله .

(٣) الطبرى ج ٢ ص ٥٦٧ .

أبو بكر ، على أن تكون من الجزية ، وكتب لخالد « احسب لهم هديتهم من جزيتهم ، وخذ بقية ما عليهم ، فقو به أصحابك » .

وهكذا فتحت الحيرة أبوابها للمسلمين .. وازداد الأمل أمامهم فى فتح العراق كله ، وضمه إلى الدولة العربية الإسلامية الناشئة .

اتخذ خالد الحيرة مقراً لقيادته ، فكانت أول عاصمة إسلامية خارج بلاد العرب ، وترك إدارتها للزعماء من أبنائها ، ورفع عن الفلاحين ظلم الدهاقين ، وحفظ عليهم حقوقهم ، وتركهم يعملون فى الأرض ، فاطمأنوا إلى حكمه ، ورأى أهل البلاد القريبة من الحيرة عدلا شاملا ، بينما كان بلاط فارس مشتغلا عنهم ، وترامت أخبار هذا العدل إلى الدهاقين[١] ، والرؤساء ، فأقبلوا على خالد يصالحونه حتى لم يبق ما بين قرى سواد العراق إلى أطرافه ، من ليس مولى للمسلمين ، أو على عهد معهم ، ومن هؤلاء صاحب "قسّ الناطف ، ويسمى صلوبا بن نسطونا ، وصالحه على بانقيا وبسما[٢] ، وجاء فى معجم ياقوت ، أنه قاتل خالداً ليلة حتى الصباح ، فلما رأى أنه لا طاقة له بحربه ، طلب الصلح ، فصالحه ، وكتب له كتاباً ، هذا نصه « بسم الله الرحمن الرحيم ... هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه ، إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذى يد بانقيا وباروسما ، على عشرة آلاف دينار سوى الخرزة ... القوى على قدر قوته ، والمقل على قدر إقلاله ، فى كل سنة ، وإنك قد نقبت على قومك ، وإن قومك قد رضوا بك ، وقد قبلت ومن معى من المسلمين ورضيت ، ورضى قومك ، فلك الذمة والمنعة ، فإن منعناكم فلنا الجزية ، وإلا فلا حتى نمنعكم » .

وكان لفتح الحيرة أثر بالغ فى نفسية العرب المغلوبين مع حماتهم

---

(١) جمع دهقان — بكسر الدال — وهو زعيم فلاحى العجم ورئيس الإقليم .

(٢) ذكرت فى بعض المراجع باروسما .

وحلفائهم من أهل فارس ، فأوهن عزائمهم ، وفل شكيمتهم ، وخضد شوكتهم ، وسجلوا مشاعرهم هذه فى أشعارهم ، فقال ابن بقيلة :

أبعد المنذرين أرى سواما تروح بالخورنق والسدير
وبعد فوارس النعمان أرعى قلوصا بين مرة والحفير
فصرنا بعد هلك أبى قبيس كجرب[1] المعز فى اليوم المطير
تقسمنا القبائل من معد علانية كأيسار الجزور
ولنا لا يرام لنا حريم فنحن كضرة الضرع الفخور
نؤدى الخرج بعد خراج كسرى وخرج من قريظة والنضير
كذاك الدهر دولته سجال فيوم من مساءة أو سرور

وكان لهذا الفتح أثره العظيم فى نفوس المسلمين ، فقوى عزائمهم ، وشد أزرهم ، وأطمعهم فى عامة دولة الفرس ، تغنى شعراؤهم بهذا النصر ، فقال القعقاع بن عمرو :

سقى الله قتلى بالفرات مقيمة وأخرى بأثباج[2] النجاف الكوانف
فنحن وطئنا بالكواظم هرمزاً وبالثنى[3] قرنى قارن[4] بالجوارف
ويوم أحطنا بالقصور تتابعت على الحيرة الروحاء إحدى المصارف
حططناهم منها وقد كاد عرشه يميل به فعل الجبان المخالف
رمينا عليهم بالقبول وقد رأوا غبوق المنايا حول تلك المحارف
صبيحة قالوا : نحن قوم تنزلوا إلى الريف من أرض العريب المقانف[5]

---

(١) أى الجماعة .

(٢) إسم مكان .

(٣) الثنى بكسر أوله وسكون ثانيه وياء مخففة والثنى من كل نهر أو جبل منعطفه . [معجم البلدان]

(٤) قارن هو قائد الفرس فى موقعة المذار وإسمه بالكامل قارن بن قريانس .

(٥) أرض قنفة بمعنى متشققة وصالحة للزراعة .

الأنبار

أقام خالد سنة بعاصمته الجديدة ، وصفها بأنها « سنة كأنها سنة نساء » ، فقد كان تواقا إلى مواصلة القتال ، إلا أن أبا بكر ، كان قد أمره ألا يبرح الحيرة ، أو يوغل فى الفتح ، حتى يصله عياض بن غنم ، ليكون سنداً له وقوة ، ولم يستطع عياض أن يتغلب على عدوه فى دومة الجندل[١] ، من يوم خرج إليه .

وأخيراً أجمع خالد أمره على منازلة الفرس فى ساحات ملكهم . . . وكانوا فى هذه الفترة على خلاف شديد ، فيمن يولونه عليهم ، بعد موت كسرى أردشير .

ودعا خالد إثنين من أهل الحيرة[٢] ، وبعث معهما بكتابين ، إلى ملوك فارس وإلى مرازبتها ، قال فى الأول « الحمد لله الذى حل نظامكم ، ووهن كيدكم ، وفرق كلمتكم ، ولو لم يفعل ذلك بكم ، كان شراً لكم ، فأدخلوا فى أمرنا ، ندعكم وأرضكم ، ونجوزكم إلى غيركم ، وإلا كان ذلك ، وأنتم كارهون على غلب ، على أيدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

وقال فى الثانى « الحمد لله الذى فض خدمتكم ، وفرق جمعكم وأوهن بأسكم ، وسلب أموالكم ، وأزال عزكم ، فإذا أتاكم كتابى ، فأسلموا ، أو اعتقدوا منا الذمة ، وأجيبوا إلى الجزية ، وإلا والله الذى لا إله إلا هو ، لأسيرن إليكم ، بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ، ويرغبون

---

(١) قرية فى طرف الشام .

(٢) أحد الرجلين عربى حيرى يسمى مرة والثانى نبطى يسمى هزقيل . . قال خالد للأول « خذ الكتاب وأت به أهل فارس ، لعل الله أن يمر عليهم عيشهم ، أو يسلموا وينيبوا » وقال للآخر « اللهم أزهق نفوسهم » .

فى الآخرة ، كما ترغبون الحياة »[١].

ثم ترك خالد القعقاع على الحيرة ، وتقدم بقواته إلى الأنبار[٢] ، وجعل على المقدمة الأقرع بن حابس[٣] ، فلما بلغها ، كان أهلها قد تحصنوا بها ، وخندقوا عليها ، فأمر خالد بحصارها ، ثم أمر جنده فرشقوا رجالها بالنبل ، وأوصى رماته « إنما أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب ، فارموا عيونهم ولا توخوا غيرها » ، فرموهم ، وفقأوا ألف عين ، وتصايح الناس « ذهبت عيون أهل الأنبار » — ولهذا سميت بوقعة ذات العيون — ولما رأى صاحبها[٤] — وهو فارسى — ذلك ، أرسل إلى خالد ، فى طلب الصلح على أمر لم يرضه خالد ، فرد رسله ، ثم طاف بالخندق ، حتى وجد مكاناً ضيقاً به ، فأمر بالابل الضعاف فنحرت ، وألقيت فى أعماق الخندق ، واقتحم الجند الخندق من فوقها ، وحطموا أبواب الأسوار ، فأرسل قائد الأنبار إلى خالد ، وبذل ما أراده ، على أن يلحقه بمأمنه فى كتيبة من خيل ليس معهم من المتاع والأموال شىء ، فقبل خالد ، وسرحه ، ثم دخل الأنبار ، وصالح من حولها ، واستتب له الأمر فيها .

وأتى شيرزاذ صاحبه بهمن جاذويه ، الذى لامه على فراره وتسليمه ، فقال له « إنى كنت فى قوم ، ليست لهم عقول ، وأصلهم من العرب ، فسمعتهم مقدمهم علينا ، يقضون على أنفسهم[٥] ، وقلما قضى قوم على أنفسهم قضاء ،

---

(١) فى رواية أخرى « ... وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر » .
[كتاب الصديق أبو بكر .. ص ٢٥٥]

(٢) مدينة على الفرات غرب بغداد

(٣) كان حكيما فى الجاهلية ثم قدم على النبى فى أشراف بنى تميم بعد فتح مكة وشهد مع خالد اليمامة وحرب العراق وفتح الأنبار واختلفت الروايات بالنسبة لمكان وفاته فقيل إنه مات شهيداً فى خراسان فى زمن عثمان .. وقيل إنه قتل باليرموك .

(٤) كان يسمى شيرزاذ وذكر فى رواية أخرى شيرزاد .
[كتاب الصديق أبو بكر ص ٢٥٠]

(٥) يقصد أن قومه كانوا يتحدثون فيما بينهم بقوة عدوهم وضعفهم عند لقائه .

إلا وجب عليهم ، ثم قاتلهم الجند ، ففقئوا فيهم ، وفى أهل الأرض ألف عين ، فعرفت أن المسالمة أسلم » .

واتضح لخالد أن أهل الأنبار من أصل عربى، إذ رأى بعضهم يكتبون بالعربية فسألهم « ما أنتم ؟ » ، قالوا « قوم من العرب ، نزلنا إلى قوم من العرب قبلنا » ، فقال « ممن تعلمتم الكتابة ؟ » ، قالوا « من إياد » ، وأنشدوه هذين البيتين :

قومى إياد لو أنهم أمم　　أو لو أقاموا فتهزل النعم

قوم لهم باحة العراق إذا　　ساروا جميعاً والخط والقلم

عين التمر

تجمعت بقايا العرب الموالين للفرس من قبائل تغلب والنمر وإياد ، يقودها عقة بن أبى عقة ، فى مكان على شفا الصحراء بين العراق وبادية الشام ، يسمى عين التمر ، وكان حاكمه من قبل الفرس ، هو مهران ابن بهرام ، وكانت معه فى المكان جموع من العجم .

استخلف خالد المرزبان بن بدر على الأنبار ، وقصد بجنده عين التمر ، ولما علم عقة بقدومه ، قال لمهران « إن العرب أعلم بقتال العرب فدعنا وخالداً » فاستجاب له مهران قائلا « صدقت لعمرى ، لأنتم أعلم بقتال العرب ، وإنكم لمثلنا فى قتال العجم ، فدونكوهم ، وإن احتجتم إلينا أعناكم » .

وأغضب موقف مهران بعض أصحابه ، فلاموه ، وسألوه « ما حملك على أن تقول لهذا الكلب[1] ، هذا القول » فأوضح لهم وجهة نظره ، قائلا

---

(١) يقصدون عقه وكان الفرس يحتقرون العرب ويطلقون عليهم لفظ الكلاب تحقيراً لهم .

« فإني لم أرد إلا ما هو خير لكم ، وشر لهم ، إنه قد جاءكم من قتل ملوككم وفلّ حدكم ، فاتقيته بهم ، فإن كانت لهم على خالد فهي لكم ، وإن كانت الأخرى ، لم يبلغوا منهم حتى يهنوا ، فنقاتلهم ونحن أقوى ، وهم مضعفون » .

وهكذا جازت خديعة الفارسي على عقة وقومه ، فجعلهم في وجه خالد ، وتقدم عقة في جموعه ، واعترض طريق خالد ، فقال خالد لقومه «إني حامل على عقة ، فاكفوني ما عنده » ، ثم انقض عليه كالشهاب الصاعق ، وعاد به إلى قومه أسيراً ، فولى رجال عقة خوفاً ، وانهزموا دون قتال ، وانفرط عقدهم ، وانحل نظامهم ، ففروا هاربين ، والمسلمون يتعقبونهم ، ويأسرون منهم كيف شاءوا .

وعلم مهران ما حدث للعرب ، ففر من الحصن مع جنده[1] ، وتركه لفلول البدو ، التي عادت مهزومة ، فتحصنت به ، ظناً منها أنه يجعلهم في مأمن من صوارم المسلمين .

وأمر خالد بحصار الحصن ، فلما أدرك من بداخله أنه لا طاقة لهم بجيش خالد ، سألوه الأمان ، فأبى إلا أن ينزلوا على حكمه ، فأجابوه مكرهين ، وفتحوا له أبواب الحصن ، فاعتقلهم ، وأمر بعقة فضرب عنقه[2] ، وغنم جميع ما وجده من أموال وذراري ، ووضع يده على أربعين غلاماً . كانوا في كنيسة الحصن ، وقسمهم في أهل البلاء من جنود الإسلام ، وكان من هؤلاء والد موسى بن نصير .

---

(١) لا تزال أطلال هذا الحصن باقية حتى اليوم ويسمى قصر الأخيضر وجاءت هذه التسمية بعد الإسلام .

(٢) الطبري ج ٢ ص ٥٧٦ .
ابن الأثير ج ٢ ص ١٥١ .

بعث خالد بالأخماس إلى أبى بكر مع الوليد بن عقبة ، ودار بين الخليفة ومبعوث خالد حديث ، تناول الموقف فى العراق ، وموقف عياض بن غنم ، فرأى أبو بكر أن يسير الوليد مدداً لعياض ، بدومة الجندل .

ولحق الوليد بعياض ، فوجده محاصراً ، قد أخذ القوم عليه الطريق ، فأشار الوليد بأن يستعان بخالد « الرأى فى بعض الحالات خير من جند كثيف ... إبعث إلى خالد فاستمده » ، ووافق عياض ، وبعث برسول من عنده إلى خالد ، الذى استجاب إليه ، وبعث إليه برسالة قال فيها «من خالد إلى عياض .. إياك أريد »(١) ، ثم قال :

لبّث قليلا تأتك الحلائب(٢)
يحملن آساداً عليها القاشب(٣)
كتائب يتبعها كتائب

وخلف خالد عُويم بن الكاهل الأسلمى على عين التمر ، واتجه إلى دومة الجندل ، فقطع المسافة(٤) إليها فى أقل من عشرة أيام ، اجتاز خلالها بادية الشام وصحراء النفور ، مستعرضاً خطر الصحراء ورمالها السافية ، وعند ما أصبح قريباً من دومة ، وتسامعت القبائل بمقدمه ، بُهتت ، ثم اختلف زعماؤها بينهم فيما يصنعون .

وكانت القبائل فى دومة أضعاف عددها يوم أن جاءها عياض ، وذلك لأن قبائل أخرى مثل بنى كلب وبهراء وغسان نفرت من العراق إلى دومة ، تبغى الثأر من عياض لهزيمتهم أمام خالد ، وكان الجودىّ بن ربيعة أميراً لهذه القبائل .

---

(١) يعد كتاب خالد دليل على بلاغته

(٢) جمع حلوبة وهى الناقة المحلوبة اللبن

(٣) السيف الصقيل المجلو

(٤) المسافة بين دومة الجندل وعين التمر ثلثمائة ميل

ولم تكن هذه القبائل تعرف شيئاً عن خالد ، فلما تشاور زعيمهم مع أكيدر بن عبد الملك الكندى ، صاحب دومة ، قال له « أنا أعلم الناس بخالد ، لا أحد أيمن طائراً منه ، ولا أحدّ فى حرب ، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً ، كثروا أو قلوا ، إلا انهزموا منه ، فأطيعونى ، وصالحوا القوم » ولم يكن رأى أكيدر فى خالد إلا حقيقة ، أدركها أكيدر منذ اتصل بخالد ، فهو يعرفه تماماً منذ عهد الرسول ، حين بعثه عليه الصلاة والسلام فى أربعمائة وعشرين فارساً إلى أكيدر ، وكان عليه أن يجتاز بلاد كلب ، فقال للرسول « كيف لى يا رسول الله وسط بلاد كلب ؟ وإنما أنا فى ناس يسير » ، فبشره الرسول بأنه سيأخذه غاراً فيظفر به ، فقال له «ستلقاه يصيد الوحش فتأخذه» وخرج خالد من تبوك ، ميمماً دومة ، فلما وصلها ، أخذ يرقب حصن أكيدر ، الذى كان على سطح قصره ، فى ليلة قمراء ، ومعه امرأته الرباب الكندية ، فأقبلت البقر تحك بقرونها باب الحصن ، فأشرفت امرأته على باب الحصن ، ورأت البقر ، فقالت له « هل رأيت مثل هذا قط » ، قال « لا » ثم نزل ، وأمر بالخيل فأسرجت ، وركب ومعه نفر من أهل بيته ، فيهم أخوه حسان ، وتبعهم خالد ، فاستسلم أكيدر ، وامتنع حسان ، وقاتل حتى قُتل ، وهرب من كان معه ، ودخلوا الحصن ، وكان الرسول قد أمره « إن ظفرت بأكيدر ، فلا تقتله ، وائت به إلىّ » ، فقال خالد لأكيدر « هل لك أن أجيرك من القتل ، حتى آتى بك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على أن تفتح لى دومة الجندل ؟ » ، قال « نعم » ، وصالحه خالد على ألفى بعير وثمانمائة فرس ، وأربعمائة درع ، وأربعمائة رمح ، وخلى سبيله ، ففتح له الحصن ، ودخله المسلمون ، وحقن خالد دمه ودم أخيه مصاد ، وأرسلهما إلى الرسول الذى عفا عنهما ، وكتب لهما كتاب أمان ، ولكن أكيدر نقض عهده ، وعاد إلى دومة ، فعاد إليها خالد فى عهد أبى بكر .

هذا اللقاء جعل أكيدر يقدر موقفه من خالد ، فهو يعرف قوته

وشجاعته فى الحرب ، ويدرك أنه لا طاقة له ولا لحلفائه به ، ولهذا فهو قد تحدث إلى حلفائه عن خالد فى صراحة ، ووصفه لهم بيمن النقيبة ومحالفة التوفيق ، وأنه أقوى الناس فى الحرب ، وأحدّهم فى ميدانها ، فلا يراه قوم إلا رُعبوا منه ، وانهزموا أمامه .

ورفضت القبائل رأى أكيدر ، واستخفوا بلقاء خالد ، وتملكهم الغرور ، وقرروا منازلته ، فانخذل أكيدر عنهم قائلا « لن أمالئكم على حرب خالد فشأنكم »[١] .

اتخذ خالد خطة التطويق ، والتف حول أهل دومة ومشايعيهم من بهراء وكلب وتنوخ ، فجعلهم بين فكى كماشة ، ذراعها الأول عسكره ، والثانى عسكر عياض بن غنم ، وبدأ القتال ، وفر أهل دومة ومشايعوهم إلى داخل الحصن ، الذى ضاق بهم ، فأغلق من به بابه دون أصحابهم ، وتركوهم عرضة للمسلمين يقتلونهم ، ونجح خالد فى اقتحام الحصن على من فيه ، فألحقهم بإخوانهم ، وقتل الجودى[٢] ، وضرب أعناق الأسرى ، إلا أسرى كلب ، فقد تقدم إليه الأقرع بن حابس التميمى ، وعاصم بن عمرو التميمى ، وبنو تميم ، وقالوا « قد آمنّاهم » ، فأطلقهم خالد ، وهو يقول « مالى ولكم !! أتحفظون أمر الجاهلية ، وتضيعون أمر الإسلام ؟ » .

غارات أخرى

لم يلبث أعراب الجزيرة والفرات ودجلة الذين قُتل إخوانهم فى عين

---

(١) اختلفت الروايات عن أكيدر بعد رحيله
وقيل إن خالداً أمر به فضرب عنقه
وقيل إنه أرسل إلى المدينة وأسر بها حتى سرحه عمر فى خلافته فذهب إلى العراق وأقام على مقربة من عين التمر بمكان أسماه دومة

(٢) قيل إن المسلمين حين اقتحموا الحصن سبوا النساء وباعوهن فاشترى خالد أجمل فتاة فيهن وهى ابنة الجودى بن ربيعة وأقام معها بدومة

التمر ودومة الجندل ، أن تحالفوا على قتال خالد ، ظناً منهم أنه قد تباعد به المكان عن الحيرة والأنبار ، وهموا بالغدر به ، وتحالفوا مع الأعاجم ، وجمعوا جموعهم فى مكان إسمه خنافس[١] .

وبلغت أخبار تجمعهم خالداً ، فخرج من دومة ، وعلى مقدمته الأقرع بن حابس ، ومعه عياض بن غنم ، وبلغ الحيرة ، فجعل عليها عياضاً ، ثم وجه القعقاع بن عمرو إلى الحصيد[٢] حيث قضى على قوات الفرس وحلفائهم فيها ، ووجه أبا ليلى بن فدكى السعدى إلى الخنافس فهربت من هناك قوات الفرس وحلفائهم ، وصور أبو ليلى ما حدث بالخنافس فقال[٣] :

وقالوا ما تريد ؟ فقلت أرمى جموعاً بالخنافس بالخيول
فدونكمو الخيول فألجموها إلى قوم بأسفل ذى أنول
فلما أن أحسوا ما تولوا ولم يغررهمو ضبح الغيول
وفينا بالخنافس باقيات لمهبوذان فى جنح الأصيل

وعلم خالد أن بعض بنى تغلب فى الثنى[٤] والزّميّل[٥] ، استعدوا لقتال المسلمين ، غضباً لعقة بن أبى عقة ، فكتب خالد إلى القعقاع وأبى ليلى وأعبد بن فدكى وعروة بن الجعد ، يواعدهم ساعة من ليلة بعينها ، يجتمع فيها معهم ، بمكان يقال له المصيخ[٦] ، وفى الليلة المتفق عليها ، وفى الساعة

(١) موقع قرب الأنبار
(٢) موقع فى أطراف العراق من جهة الجزيرة
(٣) معجم البلدان جـ ٣ ص ٤٠٦٨
(٤) موقع بالجزيرة قرب الرصافة (والمقصود بالجزيرة مابين دجلة والفرات)
(٥) موضع شرق الرصافة
(٦) جاء فى معجم البلدان « المصيخ بضم الميم وفتح الصاد وياء مشددة وخاء معجمة يقال له مصيخ بنى البرشاء »
وقال الطبرى « هى بين حوران والقلت »
وقال فيها القعقاع بن عمرو :

سائل بنا يوم المصيخ تغلبا وهل عالم شيئاً وآخر جاهل
طرقناهم فيها طروقاً فأصبحوا أحاديث من إفناء تلك القبائل

المحددة ، التقى خالد بقادته فى المصيخ[١] ، حيث نزل قوم من تغلب ،يقودهم الهذيل بن عمران ، وقامت بين الطرفين معركة ، وأخذ خالد القوم من ثلاثة أنحاء ، فلم يفلت منهم سوى الهذيل ونفر قليل ، وقُتل فى المعركة عبد العزى بن أبى رهم ولبيد بن جرير ، وكانا قد أسلما ، وكان معهما كتاب من أبى بكر بإسلامهما ، فلما بلغ أبا بكر قتلهما ، وبلغه قول عبد العزى عند قتله :

أقول إذ طرق الصباح بغارة سبحانك اللهم رب محمد
سبحان ربى لا إله غيره رب البلاد ورب من يتورد

أخذ يردد « سبحانك اللهم رب محمد » ، ثم أوصى بأولادهما ، وقال « أما إن ذلك ليس على ، كذلك يلقى من ساكن أهل الحرب فى ديارهم » .

روى الطبرى عن عدى بن حاتم ، أنه قال « أغرنا على أهل المصيخ ، وإذا برجل اسمه حرقوص بن النعمان من النمر ، وإذا حوله بنوه وامرأته ، وبينهم جفنة من خمر ، وهم عليها عكوف ، يقولون له « ومن يشرب هذه الساعة ، وفى أعجاز الليل ؟! فقال « اشربوا شرب وداع ، فما أرى أن تشربوا خمراً بعدها ...... هذا خالد بعين التمر ، وقد بلغه جمعنا ، وليس بتاركنا » ثم أنشد :

ألا فاشربوا من قبل قاصمة الظهر بُعيد انتفاخ القوم بالعكر[٢] الدثر[٣]
ومثل منايانا المصيبة بالقدر لحين لعمرى لا يزيد ولا يحرى[٤]

(١) كان خالد فى عين التمر مقيما بها ثم تحرك منها إلى المصيخ

(٢) الإبل الكثير

(٣) المال الكثير

(٤) أى ينقص ... حرى الشىء يحرى حرياً

وروى ياقوت فى معجم البلدان ، أن ربيعة ، لما تجمعت إلى الهذيل بن عمران غضباً لعقة بن أبى عقة ، لتأخذ بثأره من خالد وجيشه ، نهاهم حرقوص ابن النعمان عن مكاشفة خالد ، فعصوه ، فرجع إلى أهله وهو يقول :

ألا فاسقيانى قبل جيش أبى بكر لعل منايانا قريب ولا ندرى
ألا فاسقيانى بالزجاج وكررا علينا كميت اللون صافية تجرى
أظن خيـــول المسلمين وخالدا ستطرقكم عند الصباح على البشر
فهل لكم بالسير قبـــل قتالهم وقبل خروج المعصرات من الخدر
أرينى سلاحى يا أميمة إننى أخاف بيات القوم أو مطلع الفجر

وبعد المصيخ ، أمر خالد قائديه القعقاع وأبو ليلى ، أن يرتحلا أمامه ، وواعدهما الغارة فى ليلة عينها على بنى تغلب ، واجتمع القادة الثلاث ، وأحاطوا بالعدو من ثلاث أوجه ، وكان بنو تغلب قد اجتمعوا ، ومعهم حشود من العرب والفرس ، تحت قيادة ربيعة بن بجير التغلبى فى الثنى[(١)] ، واستطاعت قوات خالد ، أن تقضى على الجموع كلها ، فلم يفلت منها أحد .

وكان الهزيل بن عمران عقب فراره من المصيخ ، قد لجأ إلى جبل يمتد مع الثنى يسمى البشر[(٢)] ، وكان به رجل اسمه عتاب ، تجمع إليه عسكر ضخم ، يريد حرب المسلمين ، فبلغ خبره خالداً ، فقضى على من تجمع إليه ، ولم ينج منهم أحد ، ثم تحرك بعد ذلك إلى الرضاب ، حيث كان هلال بن عقة متربصاً ، فلما علم رجاله بقدوم خالد ، انفضوا من حوله ، ففر ، واستولى خالد على المكان .

---

(١) جبل

(٢) جبل يسمى أيضاً الزميل

(٣) موقع الرصافة قبل أن يبنيها هشام بن عبد الملك

وغنم المسلمون فى هذه الوقائع غنائم كثيرة ، قسمها خالد على جنده ، وبعث بالخمس إلى أبى بكر مع النعمان بن عوف الشيبانى ، وكانت ضمن السبي ، ابنة لربيعة بن بجير ، تسمى صابحة ، اشتراها على بن أبى طالب ، وتزوجها فولدت له عمرو ورقية .

الفراض

نزل خالد بالفراض[1] — وهى تخوم العراق والشام — وأفطر بها شهر رمضان .

ولم تكن الروم قد ذاقت بأس خالد ، لذلك غاظهم أن يقيم جيش المسلمين فى وجوههم ، وأن يطيل المقام ، وثارت فى عروقهم حمية ، أزكاها الفرس والعرب ، الذين ذاقوا من نكال خالد أهوالا .

واجتمعت جيوش للروم ، وانضمت إليها كتائب للفرس كانت قريبة من الفراض ، كما اجتمعت أيضاً قوات من البادية من تغلب وإياد والنمر ... وتحركت القوات كلها ، وواجهت جيوش المسلمين ، وكان الفرات يفصل بينهم .

وبعث هؤلاء للمسلمين « إما أن تعبروا إلينا أو نعبر إليكم » ، فأجابهم خالد « أعبروا إلينا » ، فقالوا « ابتعدوا حتى نعبر » ، فرفض خالد وقال « بل أعبروا أسفل منا » .

وأدرك قادة الروم من رد خالد ، مدى فهمه لشئون الحرب ، ومدى خبرته بفن القتال ، ومدى قدرته على هزيمة عدوه ، وقالوا « احتسبوا ملككم ، هذا رجل يقاتل عن دين وله عقل وعلم ، ووالله لينصرن ولنخذلن ! » .

---

(١) جمع فرضة وهى موارد الاستقاء من الأنهار

وعبر الأعداء أسفل المسلمين ، حتى تم عبورهم ، وفيما هم يعبرون ، صفّ خالد صفوفه ودبر خطته ، وقالت الروم للفرس وللعرب « امتازوا حتى نعرف اليوم ما يكون من حسن أو قبيح ، من أينا يجىء »(١) .

وبدأ القتال واشتد ، وبدت لخالد بشائر النصر ، فقال لجنده « ألحوا عليهم ، ولا ترفهوا عنهم » ، واشتد ضغط المسلمين ، وعنف قتالهم ، حتى تم لهم النصر ، وقُتل فى المعركة من جانب الروم والفرس والعرب مائة ألف(٢) .

أقام خالد فى الفراض عشرة أيام ، ثم أذن فى الناس بالرحيل إلى الحيرة ، وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالجيش ، وجعل شجرة ابن الأعز ساقة له ، وأعلن الناس أنه فى الساقة . .

وبينما الجيش يتحرك إلى الحيرة ، أسر خالد إلى خاصته ، باعتزامه أداء فريضة الحج ، وراح يطوى الصحراء فى إثنى عشر يوماً ، حتى وصل عرفات ، وأدرك الحج ، فلما قضى مناسكه ، عاد مسرعاً إلى جنده ، ودخل معهم الحيرة ، ولم يعلم الناس بحجه إلا بعد أن رأوه محلقاً رأسه ، ولما عرف أبو بكر أكبره ، واعتبره إعجاباً من خالد بنفسه ، واغتراراً بعدوه ، وكتب إليه يعاتبه ويهنئه .

* * *

(١) فى رواية أخرى « امتازوا حتى نعرف اليوم من أينا يكون الثبات أوالتولى »
وفى رواية ثالثة « امتازوا حتى نعرف اليوم من يثيب ممن يولى »

(٢) واضح أن خالداً أراد بنزوله الفراض حماية ظهر قواته

وأخيراً

كانت معركة الفراض آخر معارك خالد فى العراق .

وكان العرب قبل غزو خالد للعراق ، ينظرون إلى الفرس نظرة إجلال وتهيب ، بينما كان الفرس ، يحتقرون العرب غاية الاحتقار .

وكان مسير خالد لفتح العراق ، بدء ظهور الدولة الإسلامية ، فى مستوى الدول العظمى ، كما كان إيذاناً بتقلص سلطان الأكاسرة .

وكان خالد حكيما فى غزوه للعراق ، فكان إذا فتح بلداً ، لا يجوزها إلى أخرى ، قبل أن يستتب الأمر بها ويسودها الأمن والسلام ، فيجعل عليها أميراً لحمايتها ، وآخراً لجباية الخراج .

وأسبغ خالد عطفه ورعايته على الفلاحين الذين عذبتهم سطوة الفرس ، وعاشوا خائفين أذلة مستضعفين تحت سلطانهم ، ولهذا أقبل الفلاحون على حكم العرب ، الذى يقوم على أساس العدالة والإخاء والمساواة والحرية .

ولقد كانت حرب العراق ميداناً أظهر فيه خالد عبقريته وكفاءته ومقدرته ، كما كانت ميداناً خاض فيه المسلمون غمار معارك كثيرة ، بقوة إيمانهم ، وعمق إدراكهم للمسئولية ، وتفهمهم للواجب ، وتطلعهم إلى مستقبل أعظم للإسلام وللدولة الإسلامية .

كما كانت حرب العراق فرصة تعليمية للقوات العربية المقاتلة ، إذ شاهد المسلمون عن قرب جيوش الفرس المنظمة ، ذات العدة الوفيرة والعدد الكثيف ، ووقعت فى أيديهم أسلحة جديدة كان يستخدمها الفرس وكانوا هم يجهلونها ، وخبروا أساليب جديدة فى الحرب ، وخططوا خططاً عسكرية مستحدثة : كفلت لهم النصر ، واتبعوا اصول الحرب ومبادئها . . .

ومما لا يختلف فيه إثنان ، أن النجاح الكبير الذى لقيه المسلمون فى بلاد العراق ، يرجع إلى حسن القيادة ، وكفاءة القائد وعبقريته .

وصدق أبو بكر الصديق حين خطب فى الناس مشيداً بفضل خالد « يا معشر قريش ، عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله . . . أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد » .

وصدق أكيدر بن عبد الملك حين وصفه أيضـــاً لحلفائه فقال « لا أحد أيمن طائر منه ، ولا أحدّ فى الحرب ، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلوّا أو كثروا إلا انهزموا عنه » .

الباب الرابع

الانتصار العظيم فى بابل
على يد القائد العربى المثنى بن حارثة

قال المثنى

إنما أنت أحد رجلين ... إما باغ فذلك شر لك وخير لنا ، وإما كاذب فأعظم الكاذبين عقوبة وفضيحة عند الله وفى الناس الملوك .

مخاطباً شهرزان

رداً على رسالة منه قبل واقعة بابل ..

المثنى يعود للقيادة

فى الوقت الذى كان فيه الجيش الإسلامى يخوض غمار معاركه ضد الفرس فوق أرض العراق ، كان أبو بكر يفكر تفكيراً جدياً فى غزو بلاد الشام . . . وكانت هذه البلاد ، تابعة للدولة الرومانية ، ولم تكن قوة هذه الدولة لتؤخر تنفيذ ما عزم عليه أبو بكر ، من توجيه جيش إسلامى إلى هذه البلاد ؛ وخاصة أن خالد بن الوليد استطاع أن يوجه أول ضربة إلى الروم فى دومة الجندل ، فانتصر على جموعهم وحلفائهم من الفرس والعرب انتصاراً عظيما رائعاً ، يعطى الثقة الكبيرة ، ويؤكد القدرات والإمكانيات .

روى عبد الله بن أبى أوفى الخزاعى ، أن أبا بكر ، لما أراد أن يجهز الجنود إلى الشام ، دعا عمراً ، وعثماناً ، وعلياً ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبى وقاص ، وأبا عبيدة بن الجراح ، ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر ، وغيرهم ، وشاورهم فى الأمر ، فاستصوبوا جميعاً رأيه ، وقالوا « ما رأيت من الرأى فامضه ، فإنا سامعون لك مطيعون ، لا نخالف أمرك » ، وقال على بن أبى طالب « إنك مبارك الأمر ميمون النقيبة ، فإنك إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت إليهم ، نُصرت إن شاء الله » ، فقال له أبو بكر « بشرك الله بخير ، ومن أين علمت هذا ؟ » فأجابه « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يزال هذا الدين ظاهراً على كل ما ناوأه ، حتى تقوم الساعة وأهله ظاهرون » .

وقام أبو بكر يخطب فى الناس ويرغبهم فى القتال ، ثم أمر بلالا فأذن فى الناس « انفروا أيها الناس إلى جهاد عدوكم الروم بالشام » ، واستجاب له الناس وتتابعوا ، ونفروا من كل فج ، يطلبون الجهاد فى هذا الوجه ، وعقد أبو بكر الألوية للأمراء . . . لواء لعمرو بن العاص ، ولواء ليزيد بن أبى

سفيان ، ولواء لشرحبيل بن حسنة ، ولواء لأبى عبيدة بن الجراح ... وخرجت هذه الألوية إلى الشام ، ونزل كل لواء مكاناً يشرف منه على الروم ، فاجتمع الروم ، ونزلوا وادياً عسكروا على ضفته ، وجعلوه خندقاً بينهم وبين المسلمين ، وطال الأمر على المسلمين دون أن يبدأ القتال ، فكتبوا إلى أبى بكر يخبرونه بجموع الروم وكثرتهم ، ويستمدونه ، وما أن وصل كتابهم إليه ، حتى قفز إلى ذهنه إسم خالد بن الوليد فقال « خالد لها ، والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

وكتب أبو بكر إلى خالد بالعراق يطلب منه أن يتجه إلى الشام ، ليكسر شوكة الروم ، كما كسر من قبل قناة الفرس .. قال له « سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا وأشجوا ، وإياك أن تعود لمثل مافعلت ، فإنه لم يشج الجموع بعون الله أحد من الناس شجيك ، ولم ينزع الشجى أحد من الناس نزعك ، فليهنك أبا سليمان النية والحظوة ، فأتمم يتمم الله لك ، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتذل ، وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المن ، وهو ولى الجزاء » ، ثم قال له « دع العراق واخلف أهله فيه الذين قدمت عليهم وهم فيه ، ثم أمضِ مخففاً فى أهل قوة من أصحابنا الذين قدموا معك العراق من اليمامة ، وصحبوك من الطريق ، وقدموا عليك من الحجاز ، حتى تأتى الشام ، فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين ، وإذا التقيتم ، فأنت أمير الجماعة » .

وفى رواية أن أبا بكر أمر خالداً بالخروج فى نصف الناس ، وأن يترك النصف الآخر وعلى رأسه المثنى بن حارثة ، وقال فى ذلك « لا تأخذ مجداً إلا خلفت لهم مجداً ، فإذا فتح الله عليك ، فارددهم إلى العراق ، وأنت معهم » .

وأخذ خالد منذ تلقى أمر الخليفة ، يعد جيشه للمهمة الجديدة ، فأحضر

أصحاب رسول الله فاستأثر بهم على المثنى ، وترك له أعدادهم من أهل الغناء ، ثم قسم الجند نصفين ، فقال المثنى « والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبى بكر كله فى استصحاب نصف الصحابة وإبقاء النصف أو بعض النصف ، فوالله ما أرجو النصر إلا بهم ، فأنى تعرينى منهم » .

وتشددُ المثنى بأصحاب رسول الله له معنى ومغزى ، فهو يعرف الصحابة جيداً ... يعرف أنهم صابرون فى الحرب ، محبون للموت فى سبيل الله ، أقوياء فى الجلاد ، أما أهل الغناء الذين رأى خالد إبقاءهم معه ، فهم لا تصلح لهم صحبة . . . وفهم خالد ما يعنيه المثنى فأرضاه ، وأعاضه من الصحابة أبطالا مجربين .

وخرج المثنى ورجاله يودعون خالداً ويشيعونه وأصحابه إلى تخوم الصحراء حتى قراقر ، وهناك سلّم خالد قيادة الجيش العربى إلى المثنى ، قائلا له « ارجع رحمك الله إلى سلطانك غير مقصر ولا وان » .

وعاد المثنى من جديد إلى مكان القيادة ، ليخوض بالجيش الإسلامى معركة تاريخية هامة ضد الفرس . . ونعنى بها معركة بابل .

بابل

حدث خلال تغيير القيادة العربية أن انتهت الفترة التى تعرضت فيها بلاد الفرس لاضطرابات متتالية ، وتولى أمرها خلالها ملوك كثيرون ، فقد اتفق الرأى فى النهاية على أن يتولى الملك شهرزان بن أردشير بن سابور[1] .

وما أن تولى الملك الجديد العرش ، حتى جعل إجلاء العرب المسلمين عن العراق ، أول أهدافه ، وشجعه على هذا الأمر تغيب خالد بنصف

(١) اختلفت الروايات فى اسم كسرى فقيل شهر بازان وشهر بازار وشهربازاد وشهريران

الجيش ، ولذلك وجه شهرزان هرمز جاذويه فى عشرة آلاف لمحاربة المسلمين وللقضاء عليهم وتخليص البلاد منهم نهائياً .

وعلم المثنى بتحرك قوات الفرس ، وأحس بالمسئولية الخطيرة التى ألقيت على عاتقه(١)،فهو الذى دفع أبا بكر إلى غزو العراق، ومهد له سبيل الغزو ، وهو الذى تقدم خالداً والمسلمين جميعاً إلى مفاتحه بالسير إلى دلتا النهرين ، وليس من الهين على نفسه أن يُهزم فى بلد كان هو الطليعة فى غزوه ، وأشد من ذلك عليه أن تبلغ به الهزيمة حتى يجلو عن العراق بعد فتحه .

وأعاد المثنى تنظيم قواته ، فجعل أخويه المعنى ومسعود على ميمنته وميسرته ، وتولى هو مكان القيادة فى القلب ، ثم قدر الموقف العسكرى ، ودرس كل نواحيه ، ثم قرر أن يسير بجنده إلى حيث يلقى عدوه .

وعبرت قوات المسلمين الفرات ، ووصلت إلى مكان عليه دوارس ناشزه تمثل معالم بابل(٢) . . وفى هذا المكان ، احتلت القوات ، منطقة مرتفعة على بعد خمسين ميلا من المدائن .

وتلقى المثنى رسالة من شهرزان يقول فيها « إنى قد بعثت إليك جنداً من أهل فارس ، وإنما هم رعاة البقر والخنازير ، ولست أقاتلك إلا بهم » ويبدو من أسلوب الكتاب منتهى الصلف والمكابرة والغرور ، هذا فوق

(١) كان خالد قبل رحيله إلى الشام قد أحس بخطورة المهمة التى تواجه المثنى والمسلمين فأمر قبل رحيله بترحيل النساء والصبيان والضعفاء من الرجال إلى المدينة

[الطبرى ج ٢ ص ٦٠٨]

(٢) يقصد بمعالم بابل الآثار التى شيدها العرب قديماً وأبدعوا فى صنعها حتى أن هيرودوت بالغ فى وصفها ، وقال إنه لايوجد فى عصرها مدينة تقارن بها ، وقال إن فى كل ناحية من ناحيتى المدينة مايستحق مزيداً من الإعجاب ، ففى إحداها بلاط الملك ، وفى الثانية هيكل جسيم للمعبود بعل ، ويحيط بالمدينة سوران أحدهما ضمن الآخر . . . وعظمت بابل حين لقبت بها الملكة وأهلوها ، وفيها سن حمورابى الملك البابلى العظيم شرائعه ، ووضع قانونه المشهور . . . وقد سيطر الفرس عليها وخربوا ربوعها

أن الكتاب يدل على عدم خبرة كاتبه بفنون الحرب وأساليب القتال ، إذ ماذا يصنع رعاة الدجاج والخنازير في ميدان الحرب والقتال ، وكيف يلتقى هؤلاء بأسد الحرب أبطال النزال والطعن . . . لقد عاب رجال شهرزان عليه كتابه ، وأخذوا عليه قوله ، وقالوا له « جرأت علينا بالذى كتبت به إليهم ، فإذا كاتبت أحداً فاستشر » .

وكتب المثنى رده على الكتاب ، فقال فيه[1] « من المثنى إلى شهر زان إنما أنت أحد رجلين : إما باغ ، فذلك شر لك وخير لنا ، وإما كاذب ، فأعظم الكاذبين عقوبة وفضيحة عند الله وفى الناس، الملوك ... وأما الذى يدلنا عليه الرأى ، فإنكم إنما اضطررتم إليهم ، فالحمد لله الذى رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير » .

واهتزت قلوب الفرس خوفاً وهلعاً عندما تلقوا هذا الكتاب البليغ ، وزاد خوفهم وهلعهم عند ما علموا بمسير الجيش الإسلامى إليهم ، فلم يكن أحد منهم يتوقع أن تكون فى المسلمين — بعد انصراف خالد عنهم — هذه القوة .

والتقى الجيشان على أطلال مرتفعات بابل ، وكان فيل ضخم يتقدم جيش هرمز ، يضرب بخرطومه يمنة ويسرة ، يفرق صفوف المسلمين ، ويخل بنظامها ، ويوقع الرعب فى المقاتلين ، هذا بالإضافة إلى أن خيل العرب كانت تجفل منه .

وأيقن المثنى أن انتصاره رهن بالقضاء على هذا الفيل ، فخرج مع جماعة من جنده ، وهاجمه ، واستطاع أن يصيب منه مقتلا ، فهوى بجسمه إلى الأرض صريعاً ، وكان قتله إيذاناً بهزيمة الفرس ، فما أن شاهدت قوات المسلمين الفيل ، وقد صرع ، حتى التأمت صفوفهم ، واشتد عزمهم ،

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ٦٠٦

وراح عنهم خوفهم ، وقوى إصرارهم ، وارتفعت روحهم ، فأخذوا يهاجمون الفرس هجوماً عنيفاً ، حتى انهزموا ، وولّى رعاة الدجاج والخنازير الأدبار ، ولاذوا بالفرار ، والمسلمون من خلفهم يطاردونهم ، حتى انتهوا بهم إلى أبواب المدائن[1] .

ونزلت أنباء الهزيمة بكسرى شهر زان نزول الصاعقة ، فأصابته الحمى وثقل عليه المرض ، فمات ، ويقول فى ذلك الطبرى «إنهزم هرمز ، وبلغت أخباره مسامع الملك ، فاغتم لذلك أشد الغم ، ثم إنه مرض ، ولم يطل عهده حتى مات » .

وبموت كسرى شهرزان تعرضت الفرس لهزات داخلية عنيفة ، وعادت إليها الاضطرابات ، واتسعت هوة الخلاف الداخلى ، ورأى الفرس أن يملكوا عليهم ابنة كسرى دُخت زنان ، ولكنها خُلعت ، وخلفها على العرش سابور ، الذى استوزر الفرّخزاد وأراد أن يزوجه آزَر ميدُخت ابنة كسرى ، التى غضبت لأنه ليس من بيت الملك ، وقالت لسابور « أتزوجنى عبدى ؟ » ، ولكنه لم يسمع لقولها ، فاتفقت مع أحد فُتاك الأعاجم ، فقتل الفرخزاد فى ليلة العرس حين دخل مخدع آزرميدخت ، ثم انتقلت هى ومعها القاتل إلى سابور فحاصراه ثم قتلاه .. وبعد ذلك تولت الملك .

وبانتصار المسلمين فى بابل ، أصبح غرب الفرات كله تحت السيطرة الإسلامية ، وقد تغنى بذلك الشعراء فقال عبدة بن الطيب السعدى :

هل حبل خولة[2] بعد البين موصول ... أم أنت عنها بعيد الدار مشغول
وللأحبة أيام نذكرها ... وللنوى قبل يوم البين تأويل

---

(١) المرجع السابق ص ٦٠٥

(٢) زوج عبدة بن الطيب

حلت خويلة فى حى عهدتهم دون المدائن فيها الديك والفيل
يقارعون رءوس العجم ضاحية منهم فوارس لاعزل[١] ولاميل[٢]

وتغنى الفرزدق[٣] بشجاعة المثنى فقال :

فمنهن[٤] بيت الحوفزان الذى به تفلل بكر حد نبل المناضل[٥]
وبيت المثنى عاقر الفيل عنوة ببابل إذ فى فارس ملك بابل

وكان انتصار المثنى فى بابل فتحاً لمجال الغزو أمامه ، فقرر أن يغزو المدائن ، ولكنه وجد نفسه فى حاجة إلى إمدادات جديدة ، يقوى بها جيشه حتى يستطيع أن يتم فتوحه ، وأن يؤدى رسالته ، وأن يحرس الحدود الواسعة الأطراف التى أصبح مسئولا عن الأمن فيها ، وأن يصون حياة هذا العدد الضئيل من الرجال الذين يحاربون تحت إمرته . . .

وكتب المثنى إلى أبى بكر ينبئه بانتصاره على الفرس ، ويقدم له صورة واضحة المعالم عن الموقف العربى فى بلاد العراق ، ويستأذنه فى أن يستعين بمن ظهرت توبتهم من أهل الردة الذين يطمعون فى مغانم الغزو ، وأوضح له أنه يرى فيهم حماساً ونشاطاً ورغبة صادقة فى محاربة الفرس .

ولما أبطأ عليه رد الخليفة ، عيل صبره ، واشتد قلقه ، وخشى أن يسير الفرس إليه جيشاً لا يقدر عليه ، وخاصة أن خطوط مواصلاته قد أصبحت طويلة ، وقواته أصبحت قليلة ومجهدة ، بينما خطوط مواصلاتهم قصيرة ، توفر لهم الإمداد بالرجال والعتاد .

---

(١) أى معهم سلاحهم

(٢) أى غير مائلين عن السروج

(٣) ديوان الفرزدق ص ١٠٤

(٤) كان الفرزدق قد عدد فى القصيدة بيوت بكر بن وائل ويعنى بكلمة منهن من بيوتها

(٥) أى المقارع للأعداء

وقرر المثنى أن يذهب بنفسه إلى المدينة ليناقش أبو بكر فى الموقف ، ويقنعه بإرسال الإمدادات ، وبالسماح فى الاستعانة بالتائبين من أهل الردة .

واستخلف المثنى بشير بن الخصاصية[1] على من بالعراق من المسلمين ثم غادرها إلى المدينة ، ليلتقى بالخليفة أبى بكر الصديق .

---

(١) هو بشير بن معبد السدوسى
الخصاصية هى جدته
وبشير صحابى

الباب الخامس

هزيمة المسلمين في الجسر
واستشهاد القائد العربي أبي عبيد بن مسعود

يا معشر المسلمين
إنى لحامل على هــذا المخلوق ،
فانظروا إن قتلته وهزمت من حوله
فأنا أميركم وإن قتلت فأخى الحكم
أميركم ...

أبو عبيد بن مسعود
وهو يهم بقتل الفيل فى موقعة الجسر

الدعوة للسير إلى العراق

فوجيء المثنى عند وصوله إلى المدينة بمرض أبي بكر ، وعلم من الناس أن مرضه قد اشتد به ، حتى أشفى على الموت .

وعندما علم الخليفة بوصول المثنى استدعاه لمقابلته ، فلا يجوز للمرض — فى رأيه — أن يحول دون اهتمامه بشئون الدولة ، ولا يجوز له — وهو فى أشد حالات التعب — أن يتخلى عن مسئوليته كخليفة للمسلمين .

واستمع الخليفة إلى رأى المثنى ، واقتنع به ، وبعث فى استدعاء عمر ، وكان قد استخلفه وأوصى بمبايعته بعد موته ، فلما جاء ، حدثه فى أمر إمداد المثنى ، وقال له « اسمع يا عمر ما أقول لك ، ثم اعمل به ، إنى لأرجو أن أموت فى يومى ، فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى ، وإن تأخرت إلى الليل ، فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى ، ولا يشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم ، وقد رأيتنى مُتوفىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت ، ولم يُصب الخلق بمثله ، وبالله لو أنى أنِى عن أمر الله وأمر رسوله ، لخذلنا ولعاقبنا ، فاضطرمت المدينة ناراً ، وإن فتح الله على أمراء الشام ، فاردد أصحاب خالد إلى العراق ، فإنهم أهله وولاة أمره وحده ، وهم أهل الضراوة بهم ، والجرأة عليهم »[1] .

وهكذا رسم أبو بكر قبل وفاته سياسة الفتح بعد موته ، ليعمل فى حدودها خليفته ، ووعده عمر بالتنفيذ حسب ما أبداه .

وكان أول قرار أصدره عمر بعد أن تولى الخلافة ، هو السماح لمن أظهر التوبة من أهل الردة ، المساهمة فى الحرب فى العراق .

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ٦٠٧ وابن الأثير جـ ٢ ص ١٦٠

وذهب عمر إلى فناء مسجد الرسول ، حيث رفع راية الجهاد ، فاجتمع الناس من كل مكان ، حتى كثر عددهم ، وتحدث إليهم فى أمر الخروج إلى فارس ، ولم يستجب إليه الناس فى اليوم الأول ، فظل يستنفرهم ثلاثة أيام ، ورأى المثنى أن الناس تخشى الخروج إلى فارس ، لأنها أثقل البلاد عليهم ، لشدة سلطانهم ، وقوة شوكتهم ، ولكثرة قهرهم الأمم ، فوقف فى الناس خطيباً ، يهون عليهم الأمر ، ويدعوهم إلى الإستجابة لدعوة الخليفة « أيها الناس ، لا يعظمن عليكم هذا الوجه ، فقد تبحبحنا[١] ريف فارس ، وغلبناهم على خير شقى السواد ، وشاطرناهم ، واجترأ من قبلنا عليهم ، ولها إنشاء الله ما بعدها »[٢].

ثم وقف من بعده الخليفة عمر ، وقال « أيها الناس ، إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة[٣] ، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك ، أين الطُرّاء المهاجرون عن موعود الله ؟ سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال «ليظهره على الدين كله » ، والله مظهر دينه ، معز ناصره ، مول أهله مواريث الأمم » .

وشعر الناس بما فى تثاقلهم من سبّة لهم ، بعد الذى سمعوا من كلام المثنى ، ومن كلام عمر ، وبينما هم فى تفكير من موقفهم ، تقدم أبو عبيد عمرو بن مسعود الثقفى ، وقال « يا أمير المؤمنين . إنا سمعناك وأطعناك ، وأنا أول من أجاب هذه الدعوة ، أنا وقومى وعشيرتى » ،فكان بذلك أول منتدب لهذا الأمر ، ووقف من بعده سليط بن قيس[٤]، وأعلن استجابته ،

---

(١) أى تمكنا من المقام فيه

(٢) الطبرى ج ٢ ص ٦٣١ وابن الأثير ج ٢ ص ١٦٦

(٣) طلب الكلأ فى موضعه

(٤) أنصارى خزرجى من بنى النجار شهد بدراً وما بعدها وقتل يوم الجسر

وكذلك فعل سعد بن عبيد[١] ، ثم تتابع الناس وأجمعوا السير معهم ، حتى بلغوا ألف رجل من أهل المدينه[٢] ، ووقف أحدهم يخاطب الخليفة قائلا « يا أمير المؤمنين ، إنما كان قعودنا عن غزو هؤلاء الفرس إلى يومنا هذا شقشقة من شقاشق الشيطان ، وإنى قد وهبت نفسى لله ، ومن أجابنى من بنى عمّى ومن اتبعنى » ، واستمر التسابق إلى الخروج ، واتخذ صورة رائعة للمشاعر الإسلامية ، وللإحساس العميق بالمسئولية .

ورأى عمر أنه لا حاجة بالمثنى إلى البقاء فى المدينة ، فأمره بأن يرجع إلى العراق ، ويلحق بقواته فيه ، وقال له « النجاء حتى يقدم عليك أصحابك » .

استعرار الفرس

وصل المثنى إلى الحيرة ، فوجد الفرس قد استتبت أمورهم ، واستقرت أحوالهم ، إذ سعت إبنة كسرى وتدعى بوران ، إلى توحيد الصفوف ، فلما فشلت ، أرسلت فى استدعاء القائد رستم بن الفرخزاد ، وأنبأته بمقتل أبيه ، واستحثته على السير إلى المدائن ، وكان رستم فى هذا الوقت على فَرْج خراسان ، فأقبل فى جنده مسرعاً ، وقابل فى طريقه جنوداً لآزرميدخت ، فهزمهم ، ثم حاصر المدائن ، ودخلها ، وقبض على قاتل أبيه ، فقتله ، وفقأ عين آزرميدخت ، وأقام بوران على عرشها ، على أن تملكه عشر حجج ، ثم يكون الملك فى آل كسرى فى الرجال ، إن وجدوا ، وإلا ففى النساء ، واستوزرت بوران رستم ، وأطلقت يده فى أمور الدولة ، وعينته قائداً لشئون الجند ، وأمرت له بالسمع والطاعة ،

---

(١) أنصارى أوسى شهد بدراً ومات شهيداً من القادسية

(٢) البلاذرى ص ٢٥١

ثم رسمت معه خطة القضاء على الجيوش الإسلامية الموجودة فى أرض العراق على أساسين :

* إعداد جيشين قويين للقاء المسلمين بقيادة جابان ونرسى .

* دعوة دهاقين السواد ليثوروا بالمسلمين .

ونفذت الخطة ، وتوجه جيش جابان إلى الحيرة ، وتحرك جيش نرسى إلى ذى قار ، فى موقع يسمى كسكر بين دجلة والفرات .

وقام رستم بنشاط كبير لإثارة مشاعر الفرس ضد المسلمين ، فدعا الدهاقين إلى الثورة ، وأشعل روح القتال عند أهالى المدن ، وأثار أهالى الرساتيق[1] .

وعلم رستم أن المثنى وصل وحده دون مدد ، فقرر أن يقضى على قواته قبل أن يصل المدد ، وبذلك يستطيع أن ينفرد به ، ويقضى عليه عند وصوله ، ويكون بذلك قد قضى على قوات المسلمين ، قبل أن تتاح لها فرصة اللقاء والتجمع .

الانسحاب إلى الصحراء

أحس المثنى بالدور المعنوى الكبير الذى قام به رستم ، حتى استطاع أن يثير مشاعر أهل العراق وعواطفهم ضد المسلمين ، وأدرك أن جنود رستم قد عبئوا معنوياً ، وأنه لا قبل له ولا لجنده بمقابلتهم ، والفرق بين الجيشين واضح بيِّن .

ورغم هذا فإن المثنى لم يخش الموقف ، وإنما تدارسه وبحثه وقدر موقفه .

---

(١) جمع رستاق أى القرية

ورأى أنه ليس من الحكمة أن يدخل معركة غير متكافئة ، وأن يخوض غمارها دون أن يكمل حشده .

كما أنه رأى أنه ليس من الحكمة أن يتوغل فى بلاد عدوه ، فيطيل خطوط مواصلاته بين مواقع جنده وبين قاعدته التى يعتمد عليها ، أو بين مواقعه وبين المدد الذى هو على الطريق إليه .

من أجل هذا كله رأى المثنى أن ينسحب من الحيرة إلى موضع يسمى خافان(١) ، حتى لا تفاجئه قوات عدوه من الخلف ، وبمراجعة قرار الإنسحاب — من وجهة النظر العسكرية — نجده قراراً حكيما ، تبرره أسباب كثيرة ...

١ — الموقع الذى تم الإنسحاب إليه يقع على تخوم الصحراء ، والجند العرب أكثر الناس قدرة على الحرب فى الصحراء ، بينما الفرس لا يجيدون الحرب فى الأرض المكشوفة .

٢ — إن الصحراء تمنح الجيش الإسلامى عمقاً استراتيجياً ، فيستطيعون الإنسحاب إلى الخلف حيث يعيدون تنظيم صفوفهم ، ويتخذون الصحراء نقطة ارتكاز يشنون منها غاراتهم .

٣ — طريق الصحراء إلى المدينة يظل مفتوحاً ، يستقبلون منه المدد الذى يقوى عزيمتهم ويشد أزرهم ، فيتقدمون إلى العراق من جديد أكثر قوة وأشد عزماً .

وهكذا آثر المثنى أن يبتعد عن وجه عدوه ، وأن يؤخر لقاءه معه ، حتى يكمل حشد المسلمين ، فتصل الإمدادات ، ويتكامل الجيش ، ويتم الإستعداد للمعركة .

---

(١) موضع قرب الكوفة

أبو عبيد القائد

خاف أهل المدينة الذين قبلوا الخروج إلى العراق ، أن يتولى قيادتهم رجل من غير أهل المدينة ، فطلبوا من عمر أن يجعل إمارة الجيش لواحد من السابقين من المهاجرين أو الأنصار ، « وأمّر عليهم رجلا من السابقين من المهاجرين أو الأنصار » ، فرفض عمر قائلا « لا والله ، لاأفعل ، إن الله إنما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو ، فإذا جبنتم وكرهتم اللقاء ، فأولى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع ، وأجاب إلى الدعاء ، والله لا أؤمر عليهم ، إلا أولهم انتدابا »(١) .

ودعا عمر أبا عبيد وولاّه الإمارة ، ثم دعا سعد بن عبيد وسليط بن قيس ، وقال لهما « أما إنكما لو سبقتماه لوليتكما ، ولأدركتما بها إلى مالكما من المقدمة » .

وزود عمر أبا عبيد بنصحه ، وطلب منه أن يستشير أصحابه ، وألا ينفرد برأيه ، وألا يتعجل الأمور فى الحرب ، وأن يحسن معاملة جنده ، ونصحه أن يستشير سليط بن قيس ، لجرأته وتجربته وخبرته ، وقال له(٢) « إنه لم يمنعنى أن اؤمر سليطاً ، إلا سرعته فى الحرب ، وفى التسرع إلى الحرب ضياع ، إلا عن بيان ، أسمع من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وأشركهم فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب لا يصلح لها إلا الرجل المكيث(٣) ، الذى يعرف الفرصة والكف » .

ترى من يكون أبو عبيد ؟ وما هو الدور الذى لعبه فى الحياة الإسلامية حتى وصل إلى مركز القيادة ؟

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٦٧

(٢) ذكر البلاذرى أن عمراً وجه الحديث إلى سليط فقال له « لولا عجلة فيك لوليتك ولكن الحرب زبون لا يصلح لها إلا الرجل المكيث »

(٣) أى الرزين

إنه أبو عبيد بن مسعود بن عمرو الثقفى ، من بنى ثقيف ، أسلم فى شهر رمضان من السنة التاسعة للهجرة ، وحسن إسلامه ، ونال شرف الصحبة ، وكان من جلة الصحابة(١) ، ولم يشترك فى أية غزوة من غزوات الرسول ، لأنه أسلم بعد انتهاء غزوة تبوك ، وهى آخر غزوة قادها الرسول بنفسه(٢) ، وبقى أبو عبيد على إسلامه بعد وفاة الرسول(٣) ، وتولى قيادة الجيش الإسلامى إلى العراق ، مدداً للمثنى ، وكان أول لقاء له مع الفرس فى النمارق ، وانتصر عليهم ، ثم التقى بهم مرة أخرى فى السقاطية ، واستشهد فى واقعة الجسر ، بعد أن أثبت بطولة نادرة .

القائد الفارسى رستم

تولى رستم شئون فارس .

وهو ابن حاكم خراسان . . عرف عنه أنه من رجال الحرب ، المشهود لهم بالكفاءة ، والقدرة ، كان جريئاً ، طموحاً ، يثير طموحه إعجاب الفرس وتعلقهم به ، وقيل إنه كان عالماً بالنجوم ، وأنه رأى فيها مآل فارس ، حتى أنه سُئل حينما باح بما رآه وعرفه ، كيف يتولى أمر فارس وهو يعلم نهايتها ، ويرى فيها ما يراه ، أجاب « الطمع وحب الشرف » .

ولقد أثبتت الأحداث صدق ما كان يراه ، فبعد عدة معارك ، انتهى أمر الفرس ، واكتسحت القوات الإسلامية أرضها وقضت عليها ، واستولت على العراق كله ، الذى أصبح يمثل جزءاً من الدولة الإسلامية المجيدة ، التى أقامها أتباع محمد بأرواحهم ودمائهم .

---

(١) الاستيعاب جـ ٤ ص ١٤٦٥

(٢) الطبرى جـ ٢ ص ٤٠٤

(٣) ابن الأثير جـ ٢ ص ١٣٠

النمارق

خرج أبو عبيد من المدينة ومعه خمسة آلاف مقاتل ، وانضم إليه كثيرون وهو على الطريق ، فكان لا يمر بقوم من العرب إلا ورغبهم فى الجهاد وأغراهم بالغنيمة ، وحثهم على القتال فى سبيل الله .

وانضم إليه أيضاً مَنْ حسن إسلامه من أهل الردة .

وعندما وصل حدود العراق ، كان تحت إمرته عشرة آلاف مقاتل ، وتولى القيادة العامة ، وعاد المثنى إلى صفوف الجند ، يعمل كجندى بسيط ، تحت إمرته ، دون أن تتأثر معنوياته ، فقد كان همه أن ينتصر المسلمون ، سواء كان هو فى مكان القيادة ، أو فى مكان الجند[1] .

ونظم أبو عبيد قواته ، وتقدم بها إلى النمارق[2] ، وبدأ القتال عنيفاً مع قوات جابان ، وانتصر المسلمون ، ووقع جابان أسيراً فى يد رجل عربى تيمى يدعى مطر بن فضة ، وكان مطر لا يعرفه ، فحاول جابان أن يخدعه ، فوعده بمال وغلامين ، وقال له « إنكم معشر العرب أهل وفاء ، فهل لك أن تؤمننى ، وأعطيك غلامين أمردين خفيفين فى عملك ، وأعطيك كذا . . . وكذا . . . » وأجزل جابان للرجل الوعد ، وقال له « أدخلنى على أميركم ، حتى يكون ذلك بمشهد منه » ، فأدخله مطر على أبى عبيد ، فأمنه ، وهو لا يعرفه . . . وهكذا استطاع جابان أن يأخذ بدهائه الأمان لنفسه من أسره .

وتقول بعض المراجع ، أن مطراً أمن الرجل ، ثم أطلق سراحه ،

---

(١) هذا الموقف شبيه بموقف خالد بن الوليد حين عزله عمر عن قيادة الجيش فعمل تحت إمرة أبى عبيدة بن الجراح خلال حروب الشام

(٢) موقع قرب الكوفة بين الحيرة والقادسية

فأخذه بعض المسلمين إلى أبي عبيد ، وأبلغوه أنه دهقان كبير . وأشاروا بقتله ، ولكنه أجابهم « إني أخاف الله أن أقتله ، وقد أمنه رجل مسلم ، والمسلمون في التواد والتناصر كالجسد ، مالزم بعضهم لزم كلهم » ، فغضب بعض المسلمين ، وقالوا له « إنه هو الذي غدر بنا وحاربنا » ، فقال لهم « وإن كان قد غدر ، فإنا لا أغدر » ، وأمر بالأسير فترك(١) .

وغنم المسلمون غنائم كثيرة ، قسمها أبو عبيد ، وبعث إلى الخليفة بالأخماس ، وصوّر شاعر عربي انتصار المسلمين في النمارق فقال :

غلبنا على خفان بيضا مشيحة(٢) إلى النخلات السمر فوق النمارق
وإنا لنرجو أن تجول خيولنا بشاطئ الفرات بالسيوف البوارق(٣)

السقاطية وباروسما

بلغت أنباء هزيمة الفرس إلى رستم ، وعرف ما حل بجابان ، فأمر الجالينوس — وهو واحد من صناديد أبطالهم — أن يسرع لنصرة زملائه ، وأن يلحق نرسي بكسكر ، فأخذ الجالينوس يغذ السير إلى كسكر .

وكان أبو عبيد قد نشر عيونه في كل مكان تأتيه بأخبار الفرس . . . أخبار الجيوش... تحركاتها... اتجاهاتها ... خططها ...قادتها ... معداتها ...

وجاءته الأنباء أن قوات نرسي في كسكر ليست كبيرة العدد

---

(١) في رواية أخرى أن المسلمين عرفوا جابان فقالوا لأبي عبيد « اقتله فإنه الأمير » فأجابهم وإن كان الأمير فإني لا أقتله وقد أمنه رجل من المسلمين . . . . إلى آخر الحديث

(٢) أي مقبلة

(٣) اللوامع

(٤) منطقة غنية بمنتجاتها الزراعية والحيوانية

ولا عظيمة العتاد ، وأن نرسى فى انتظار وصول نجدات سريعة ، تشد من أزره فى اللقاء المنتظر .

وقرر أبو عبيد استناداً إلى هذه الأنباء ، أن يفاجىء قوات نرسى ، وأن يأخذها على غرة ، قبل وصول الإمدادات ، فأمر قواته بالتحرك السريع المتصل .

وفى السقاطية[١] التقت القوتان ، ودارت معركة عنيفة حامية ، ثبت لها العرب ، وانهزم الفرس ، ولاذ نرسى بالفرار ، وترك للمسلمين غنائم كثيرة ، وخزائن ، وأموالا ، وأطعمة ...

ويحكى أن المسلمين وجدوا ضمن ما وجدوه من الأطعمة لوناً من التمر يدعى النَّرسيان ، كان مفضلا لدى ملوك فارس ، فبعثوا بخمس إلى المدينة ، ثم اقتسموا الباقى بينهم ، وجعلوا يطعمون منه الفلاحين ، وكتبوا إلى الخليفة عمر « إن الله أطعمنا مطاعم كانت الأكاسرة يحبونها ، وأحببنا أن تروها ، لتذكروا إنعام الله وأفضاله » .

وفى هذه الأثناء وصل الجالينوس إلى قرية باروسما ، فتحرك الجيش الإسلامى إلى هناك ، والتقى به ، وواجهه فى معركة خرج منها المسلمون منتصرين ، بينما فر الجالينوس إلى المدائن... ووجه أبو عبيد قواته فتعقبت الفارين وطاردتهم ، واحتلوا سوار العراق ، ونشروا الرعب فى الناس ...
ووصف عاصم بن عمرو النصر العظيم فى السقاطية وباروسما فقال :

صبحنا بالبقايس رهط كسرى صبوحاً ليس من خمر السواد
صبحنـــاهم بكل فتى كمى وأجرد سابح من خيل عاد

---

(١) ناحية قريبة من مدينة واسط
ذكرت فى بعض المراجع السقاطين

وجاء الدهاقين(١) إلى أبي عبيد يصالحونه ، ويعتذرون لأنهم مالوا إلى الفرس ضد العرب ، وبرروا ميلهم بأنهم غلبوا على أمرهم ، فصالحهم أبو عبيد ، وبعد الصلح ، جاءه فروخ وفرنداذ بآنية فيها بعض الأطعمة الفارسية ، قالا له « هذه كرامة أكرمناك بها ، قرى لك » (٢) ، فسألهما «أأكرمتم الجند بمثله وقريتموهم؟» ، فأجاباه « لم يتيسر لنا ، ونحن فاعلون » ، فاعتذر عن تناول الطعام ، لأنه لا حاجة له فيما لا يسعه ويسع جنده ، ورد إليهما الآنية دون أن ينال منها شيئا ، وقال « لا حاجة لنا فيه ، بئس المرء أبو عبيد ، إن صحب قوماً من بلادهم ، وأهرقوا دماءهم دونه ، أو لم يهرقوها ، فاستأثر عليهم بشيء يصيبه ، لا والله لا نأكل مما أفاء الله عليهم ، إلا مثل ما يأكل أوساطهم »(٣).

الجسر

أغضبت رستم الهزائم المتلاحقة واندحار قواته واستسلام قادته وفرارهم جميعاً من الميدان ، فجمع خاصته ، وسألهم « أى العجم أشد على العرب فيما ترون ؟ » ، فأجابوه جميعاً « إنه ذو الحاجب بهمن جاذويه » (٤)، فدعاه إليه ، وعينه قائداً لجيش كثيف ، وعين معه الجالينوس ، وقال لبهمن « إن عاد لمثل ما فعل فاضرب عنقه » .

وأراد رستم أن يضعف معنويات العرب ، وأن يقلل ثقتهم فى أنفسهم، وأن يزعزع تماسكهم ، وأراد — فى ذات الوقت — أن يرفع معنويات جنده ، وأن يثير فيهم الرغبة فى القتال ، فأصدر أوامره بأن ترفع راية كسرى فى مقدمة الجيش . . وهذه الراية من جلود النمر طولها اثنتا عشر

---

(١) جمع دهقان وهو زعيم فلاحى الفرس ورئيس الإقليم

(٢) فى رواية أخرى « هذا قرى لك وكرامة أكرمناك بها »

(٣) الطبرى ج ٢ ص ٦٣٧

(٤) سمى ذو الحاجب لأنه كان يعصب حاجبيه ليرفعهما عن عينيه كبراً [فتوح البلدان ٢٥٢]

ذراعاً ، وعرضها ثمانية أذرع ، وتسمى درفش كابيان ، وكانت لا تحمل أمام الجيش إلا لأمر عظيم ، ولهذه الراية قصة جاءت فى أخبار الفرس ، وملخصها أن أحد ملوك الفرس جار على رعيته ، واسترسلت حكومته فى الظلم إلى حد لا يطاق ، فقام من رعيته رجل حداد ، خامل بين قومه ، عظيم فى نفسه ، وخرج من حانوته ، ورفع على عصا طويلة الجلد الذى يربطه عادة فى وسطه ، ونادى فى الناس «من لا يطيق الظلم فليتبعنى» ، وتبعته عامة الناس ، وقتلوا الملك ورجال دولته ، فأسس هذا الحداد دولة الكسروية ، واتخذ ملوكها شارة الحداد شعاراً لهم ، ثم جملوها من جاود النمور ، وسموها باسمها ، وكانوا لا يخرجونها إلا حين الحاجة القصوى .

اجتمع تحت قيادة بهمن جاذويه ثمانون ألفاً وعشرون فيلا ، وتقدمت هذه القوة من المدائن حتى نزلت قس الناطف[1] .

وسار أبو عبيد بجيشه ، ونزل المروحة ، وكان جند المسلمين دون العشرة آلاف ، واتخذوا معسكرهم على الضفة التى يقع فيها معسكر الفرس ، ولم يعد يفصل الجيشين سوى الفرات .

وبعث بهمن إلى أبى عبيد يسأله أن يعبر أحد الجيشين النهر إلى الضفة الأخرى ، « إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور ، وإما أن تدعونا نعبر إليكم » .

وجمع أبو عبيد أصحابه وعرض عليهم رسالة بهمن ، فأشاروا عليه بعدم العبور ، « لا تعبر يا أبا عبيد . . . إننا نهاك عن العبور » ، وكان سليط ابن قيس والمثنى بن حارثة من أشد الناس إلحاحاً فى عدم العبور ، ولكن أبا عبيد عارضهم ، وأبى إلا أن يعبر ، فلما عارضوه أقسم « ليقطعن الفرات إليهم » وناشده القوم قائلين « إن العرب لم تلق مثل جنود فارس منذ كانوا ، وإنهم

---

(١) موضع على شاطىء الفرات الشرقى قريب من الكوفة

قد حفلوا لنا[١] ، واستقبلونا من الزُّهاء[٢] والعدة بما لم يلقنا به أحد ، وقد نزلت منزلا لنا فيه مجال وملجأ ومرجع من فرة إلى كرة[٣] » ، ولكن أبا عبيد أصر على رأيه ، وقال « لا أفعل ، جبنت والله يا سليط » ، فرد عليه سليط « إنا والله أجرأ منك نفساً ، وقد أشرنا عليك بالرأى فستعلم » .

وأشار المثنى بأن يتم العبور فجأة ، حتى يباغت العرب الفرس فى مواقعهم ، وبذلك تحقق المفاجأة سيطرة العرب على أرض المعركة ، ولكن أبا عبيد رفض هذا الرأى أيضاً .

ولا بد من وقفة ، لنبدى رأينا فى موقف أبى عبيد، من الآراء التى قدمت له من أصحابه ، وكلهم رجال حرب وأبطال معارك ... إن تصرف أبى عبيد تصرف خاطىء منحرف . ولا يجوز لقائد مثله أن يقع فيه ، فالعسكريون فى جميع العصور قد اتفقوا على قيام هيئة استشارية هى هيئة أركان الحرب ، وتكون مهمتها تقديم الرأى والمشورة للقائد ... ومبدأ الشورى مبدأ هام، من مبادىء الإسلام الخالدة ، والرسول الكريم — وهو أسوة حسنة لكل مسلم — تنازل عن رأيه فى مواقف كثيرة ، واستجاب لآراء غيره ، ولم يتمسك برأيه فى موقف أبداً ، وإنما جعل الرأى للجماعة ، وكان يحاول أن يصل إلى أفكار أصحابه ، وكان يرى أن رأى الجماعة مهما كان ، فهو خير من رأى فرد واحد ... هذا ما حدث فى غزوة بدر ، حين سأل الرسول أصحابه « أشيروا أيها الناس؟ » ، فلما أشاروا بالخروج، خرج... وفيها أيضاً اعترض الحباب بن المنذر على الموقع الذى عسكر فيه الجيش الإسلامى ، وقال للرسول « إن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس ، حتى تأتى أدنى ماء من

---

(١) أى اجتمعوا واحتشدوا

(٢) أى العدد الكبير

(٣) الطبرى ج ٢ ص ٦٤٠

القوم ، فننزل ، ونعور ما وراءه من القلُب ، ثم نبنى حوضاً ، فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربوا » ، ووافق الرسول على رأى الحباب ، وأمر به فنفذ ... وكذلك كان أبو بكر فى كل ما يتعلق بأمور الدولة ، كان يستشير أصحابه ، ويعالج معهم الأمور ، ويأخذ بالرأى الأصوب الذى تقره الغالبية ، فهو حين أراد أن يحرك قواته إلى العراق والشام ، جمع أصحابه وعرض عليهم الأمر ، فاستصوبوا رأيه ، وقالوا « ما رأيت من الرأى فامضه ، فإنا سامعون لك ، مطيعون ، لانخالف أمرك .... » ، ونحن نعجب كيف تجاهل أبو عبيد وصية عمر ونصيحته بأن يستشير سليطاً ، قائلا له « إنك تقوم على أرض المكر والخديعة والخيانة ، تقوم على قوم قد جرءوا على الشر فعلموه ، وتناسوا الخير فجهلوه » .

أمر أبو عبيد جيشه بالعبور ، وضاق بجنده المكان الذى تركه لهم الفرس وراء الجسر ، فلم يكن لهم فيه مرجع من فرة إلى كرة ، ولم يمهلهم بهمن حتى يعبروا ، بل أمر جنده أن يحملوا عليهم ، فهاجموهم فى عنف ، وكان فى مقدمتهم فيلة مدربة عليها جلاجل تحدث رنيناً أخاف الخيل ، ففرت ، لا تلوى على شىء ، ولم يثبت منها إلا القليل ، وقتل عدد كبير من المسلمين رشقهم الفرس بالنبل .

واشتد الأمر بالمسلمين ، فترجل أبو عبيد والناس ، ومشوا إلى الفرس ، واشتبكوا معهم بالسيوف ، فقتلوا منهم ستة آلاف ، ولكن الفيلة كانت تتقدم إلى المسلمين وتدفعهم ، فيضطربون ، ويفزعون ، ثم يفرون .

وصاح أبو عبيد فى الناس « احتوشوا[١] الفيلة ، واقطعوا بطنها[٢] ، واقلبوا عنها أهلها » ، واستجاب القوم لصيحته ، ولم يتركوا فيلا إلا قلبوا

---

(١) احتوش القوم الصيد إذا نفره بعضهم على بعض

(٢) جمع بطان وهو الحزام

رحله ، وقتلوا أصحابه ، وشاهد أبو عبيد فيلا أبيض يضرب الناس بخرطومه يمنة ويسرة ، فيشتت المسلمين ، وأيقن أن قتل هذا الفيل يقوى روحهم ويضعضع روح الفرس ، فعزم على قتله ، وأدرك أصحابه ما اعتزمه ، فقالوا له « إنا نخاف عليك» ، فقال « إن ربي ينصرني ، ولكن أخبروني هل لهذا الفيل من مقتل ؟ » ، فأجابوه « إذا قطع خرطومه ، فهو يموت » ، فقال « إني حامل على هذا الفيل ومن حوله من الفرس » ، فعادوا يقولون له « دع عنك هذا الفيل ، ولك في غيره سعة» ، فقال «يا معشر الناس ، إني لحامل على هذا المخلوق ، فانظروا إن قتلته وهزمت من حوله فأنا أميركم ، وإن قتلت ، فأخي الحكم أميركم ، فإن قتل ، فولدي وهب ، فإن قتل فولدي مالك ، فإن قتل فولدي جبر ، فأبو محجن فالمثنى »[1].

وتقدم أبو عبيد إلى الفيل وحاوره وداوره ، ثم ضرب خرطومه بسيفه ضربة قوية فقطعه ، وهو يرتجز :

يالك من ذي أربع ما أكبرك
يالك في يوم الوغى ما أنكرك
إني لعال بالحسام مشفرك
وهالك وفي الهلاك لي درك

وأهاجت الضربة الفيل ، فهاجم أبا عبيد وضربه برجله ، فألقاه على الأرض ، ثم وقف فوقه ، وأزهق روحه[2] ، وتقدم أخوه الحكم فقاتل

---

(١) ذكر الطبري أن إمرأة أبي عبيد واسمها دومة ، كانت معه ، وأنها رأت في منامها رجلا ينزل من السماء ومعه إناء فيه شراب من الجنة ، فشرب منه أبو عبيد وجماعة من أصحابه ولما قصت الرؤيا على زوجها ، قال « هي الشهادة » ؛ ثم أوصى بمن يخلفه في القيادة

(١) في رواية أخرى أن أبا عبيد قطع خرطوم الفيل بسيفه ، ثم فرق من حوله ، ولكنه نعثر ببعض القتلى ، فوقع ، فخبطه الفيل ، وبرك عليه ، وقتله

الفيل حتى تنحى عن أبي عبيد ، فجر جثته إلى المسلمين ، ثم عاد محاولا قتل الفيل ، ولكنه لقى حتفه[١] .

وتتابع القادة الذين عينهم أبو عبيد قبل مقتله ، فتولى القيادة بعد الحكم وهب بن أبي عبيد ، الذى تقدم وهو ينشد :

لا خير فى هلا ولا فى ليت
من طاب الموت فذا الموت
ليس لأمر الله فيك فوت
قد سطع النقع ومات الصوت

وقتل وهب وتولى القيادة أخوه مالك فقتل وهو يردد :

قد علمت واضحة الترائب
مبأسة بالثغر والحواجب
أنى غداة الروع والتشاغب
أشجع من ذى لبدة مواثب
قتال أقران مخوف الجانب

وقتل أيضا كثيرون من بنى ثقيف ، وأحس عبد الله بن مرشد الثقفى بخطورة الموقف بالنسبة للمسلمين ، ورأى أنهم منهزمون لا محالة ، وأراد أن يوقف المسلمين الذين اندفعوا ناحية الجسر هاربين ، كما أراد أن يعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم ، فبادر إلى الجسر وقطعه ، وهو يصيح فى الناس « أيها

---

(١) لم تذكر مراجع كثيرة اسم الحكم ولكنها ذكرت الرواية كما نرويها.

الناس ، موتوا على ما مات عليه أمراؤكم ، أو تظفروا » .

ورأى الناس ما فعله ابن مرثد ، فجزعوا وتواثبوا فى النهر ، فغرق منهم كثيرون ، وفى هذه اللحظات ضغط الفرس على المسلمين ، فانسحبوا ناحية الجسر ، وسيوف الفرس تأخذهم من ورائهم ، وهلك يومئذ منهم أربعة آلاف ما بين قتيل وغريق ، وهرب ألفان ، وبقى فى أرض المعركة ثلاثة آلاف ، وقتل سليط ، وأبو مخنف أبو زيد الأنصارى .

وكان الموقف عصيباً فى حاجة إلى بطولة نادرة ، تنقذ ما يمكن إنقاذه ، فتقدم المثنى و تولى قيادة الجند ، وقدر موقفه فى سرعة عجيبة ، ثم قرر :

* شد الجسر وإعادته حتى يسمح للمسلمين باستخدامه فى العبور .
* تشكيل قوة ضاربة تصد الفرس عن متابعة المسلمين أثناء العبور .
* السماح للمسلمين بعبور الجسر بنظام وترتيب بعد إعادة تنظيم صفوفهم .
* القوة الضاربة تعبر الجسر فى النهاية بعد انسحاب كل القوات .
* الإنسحاب إلى الحيرة لإعادة تنظيم القوات إستعداداً لمعارك قادمة .

ودعا المثنى عروة بن مسعود ، وأمره «انطلق إلى الجسر ، فقف عليه ، وحل بين العجم وبينه» ، ثم شكل جماعة من الفرسان ، وضعها تحت قيادته ، وأخذ يضرب بها فى وجوه الفرس ، وهو يصيح « يا معشر العرب ، أنا دونكم ، فاعبروا على هيئتكم ، ولا تدهشوا ، ولا تفرقوا أنفسكم » .

وجعل المثنى يقاتل ، ويحمى ظهور المسلمين أثناء العبور ، وأصابته أثناء القتال طعنة رمح ، غاصت لها حلقات درعه فى جنبه ، وظل رغم

إصابته ، يناضل فى شجاعة وبطولة ، حتى عبر المسلمون جميعاً الجسر ، ثم عبره هو فى النهاية ، وبقى على الضفة الأخرى ، يمنع الفرس من عبور الجسر خلف المسلمين .

ولم يغب عن ذهن المثنى ، أن بهمن قد يطارده ، فانحدر بقواته إلى المروحة ، ثم إلى الحيرة ، ثم تابع انحداره جنوباً يريد أليس .

ولم يستطع بهمن مطاردة المثنى ، فقد بلغه نبأ اختلاف الفرس فى المدائن إلى فرقتين ، تؤيد إحداهما رستم ، وتؤيد الأخرى الفيرزان ، فعاد بقواته إلى العاصمة ، وتخلف عنه جابان ومردنشاه فى كتيبة تعقبا بها المثنى ، وعرف المثنى بأمرهما ، فجمع جنده ، وانضم إليه عدد غفير من أهالى أليس ، وواجه الكتيبة ، وقضى عليها ، وأسر القائدين الفارسيين ، وأمر باعدامهما .

بعث المثنى بعبد الله بن زيد أحد الذين شهدوا الجسر إلى المدينة ، ليخبر الخليفة بما حدث هناك ، فدخل عبد الله المدينة وهو يبكى ، ويردد :

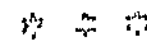
نعيت إلى أهل المدينة فتية   على مثلهم تبكى النساء الكواعب
نعيت إلى الأنصار فتيانها التى   بها كانت الأحياء طراً تحارب

وألقى عبد الله إلى الخليفة بالخبر ، فبكى عمر ، وضج الناس حوله بالبكاء .

ودخل بعض الفارين من المعركة إلى المدينة ، منكسى الرءوس خزياً من عار الهزيمة والفرار ، ونزل بعضهم البوادى حياء وخجلا ، وخوفاً أن يلقوا أهلهم فيعيروهم فرارهم وجبنهم ، ورق عمر لحالهم ، وجعل يدفع

عنهم برم الناس بهم ، وسخطهم عليهم ، وهو يقول « اللهم كل مسلم فى حل منى ، أنا فئة كل مسلم ، من لقى العدو ففظع بشىء من أمره ، فأنا فئة له .... يا معشر المسلمين ، لا تجزعوا ، أنا فئتكم ، وإنما انحزتم إلى ، يرحم الله أبا عبيد ، لو كان انحاز إلى لكنت فئة له » .

وكان معاذ القارىء ممن فروا من المعركة ، وكان يبكى كلما قرأ قوله تعالى « ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » ، فكان عمر يقول «لا تبك يا معاذ ، أنا فئتك ، وإنما انحزت إلى » .



إن المتتبع لحروب المسلمين ، يجد تشابهاً كبيراً بين موقعة الجسر وموقعة مؤتة ، التى وقعت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى السنة الثامنة للهجرة ، نلخصه فى النقاط التالية :

- وقعت الغزوتان خارج حدود الدولة الإسلامية الأولى فى العراق والثانية على حدود بلاد الشام .

- وقعت الغزوتان ضد أكبر دولتين فى ذاك العصر . . دولة الفرس ودولة الروم .

- قابل الجيش الإسلامى فى الموقعتين جيشاً يفوقه عدداً وعدة ويحارب على مقربة من قواعده الأصلية .

- نظمت قيادة المسلمين فى الموقعتين مسألة تولى القيادة فى حالة استشهاد القائد .

* بعد استشهاد القادة فى الجسر تولى المثنى القيادة وفى مؤتة تولاها خالد بن الوليد وانسحب القائدان بالجيش العربى إلى الخلف وكون كل منهما قوة ضاربة تحمى الإنسحاب .

* قوبل المنهزمون فى الموقعتين باستياء شديد من جانب المسلمين فى المدينة وخفف الرسول من أثر الهزيمة عند مقاتلى مؤتة وخفف عمر من أثر الهزيمة عند مقاتلى الجسر .

* كانت الموقعتان آخر الهزائم للمسلمين أمام قوات الفرس وقوات الروم ، فبعد الجسر انتصر المسلمون على الفرس واحتلوا العراق كله وأزالوا دولة الفرس ، وبعد موتة عاد المسلمون إلى بلاد الشام فى عهد أبى بكر وقضوا على دولة الروم بها واحتلوا بلاد الشام كلها .

الباب السادس

الثأر العربي في البويب

آخر لقاء للمثنى بن حارثة مع الفرس

أيها الناس

إن الله أذهب بأسهم ووهن كيدهم.

فلا يروعنكم زهاء ترونه ولا سواد

ولا قسّي فج ولا نبال طوال فإنهم

إذا أعجلوا عنها أو فقدوها كالبهائم

أينما وجهتموها اتجهت

المثنى بن حارثة

مخاطباً جنده خلال معركة البويب.

بعد أن لقى المسلمون هزيمتهم أمام الفرس فى الجسر ، كان لا بد من أن تصلهم إمدادات سريعة من الرجال ، وخاصة أنهم فقدوا فى الموقعة أعداداً ضخمة .

وبعث المثنى — وكان قد تولى قيادة الجيش الإسلامى فى نهاية موقعة الجسر — إلى الخليفة عمر يطلب المدد ، ولم يفته أن وصول المدد قد يتطلب زمناً طويلا . فبعث فيمن يليه من قبائل العرب ، فجاءته وفود عظيمة ، وتوافدت عليه جموع ضخمة ، بينهم نصارى بنى النمر وعلى رأسهم أنس إبن هلال النمرى ، وعدد غفير من نصارى بنى تغلب وعلى رأسهم عبد الله إبن كليب الثعلبى المعروف بمردى الفهر ، فقد فضل هؤلاء النصارى أن ينحازوا إلى جانب العرب ، وأن يشتركوا مع إخوانهم المسلمين فى معركة يرونها مشتركة ضد عدو للعرب جميعاً مسلمين ومسيحيين ، وقالوا فى ذلك « نقاتل مع قومنا » ، ويرجع الفضل فى هذا الموقف من جانبهم إلى حرصلة بن المنذر الطائى المعروف باسم أبى زبيد الطائى ، وهو شاعر نصرانى ، عمر طويلا ، ومات فى خلافة عثمان وهو على نصرانيته ....كان قادماً إلى الحيرة فى بعض شئونه ، ورأى ما أصاب العرب ، فتحركت فيه دماؤه العربية ، ومشاعره القومية ، وعز عليه أن ينهزم قومه ، وأن يكتب النصر عليهم لقوم يختلفون عنهم لغة وقومية وتاريخاً ومسكناً ودماً ، فانحاز إلى العرب المسلمين ، وشجع ذلك بقية النصارى ، فاتخذوا موقف المخالفة مع إخوانهم العرب المسلمين .

وقرر المثنى أن ينتقل بمعسكره من أليس إلى مرج السباخ ، بين القادسية

وخفان ، ليكون قريباً من تخوم العرب ، فيستطيع أن يلجأ إليهم إذا غلبه الفرس ، وأن يجد عندهم المدد إذا تم له النصر .

الخروج إلى العراق

وكان عمر بن الخطاب فى الوقت ذاته يفكر فى أمر القوات المرابطة فى العراق ، ويبحث أمر إمدادها ، لتستطيع أن تواجه الموقف الدقيق الذى يحيط بها ، وكان العرب يتوافدون على المدينة استجابة لدعوته ، ملبين نداءه ، منذ رفع الحظر عمن ظهرت توبتهم من أهل الردّة ، ولكنهم كانوا يفضلون الخروج إلى الشام . والاشتراك فى غزوه ، ولكن قوات الشام لم تكن فى حاجة إلى مدد ، وكتب عمر إلى أهل الردة من بنى عبد القيس أن يخرجوا إلى العراق ، فوافقوا ، وكان ذلك بداية لخروج جموع كثيرة إستجابة لدعوة الخليفة .

وكان من ضمن الخارجين بنو بجيلة ... وهؤلاء كانوا امشتتين فى القبائل ، وطلب جرير بن عبدالله البجلىّ ، من أبى بكر — فى خلافته — أن يجمع بنى بجيلة ، فردّه أبو بكر وقال له « ترى شغلنا وما نحن فيه بغوث المسلمين ممن بإزائهم من الأسدين فارس والروم ، ثم أنت تكلفنى التشاغل بما لا يغنى عما هو أرضى لله ورسوله !! دعنى وسر نحو خالد بن الوليد ، حتى أنظر ما يحكم الله فى هذين الوجهين ! » ، فلما ولى عمر أعاد عليه جرير الطلب ، فأمر عمر عماله ، فجمعوا بنى بجيلة فى صعيد واحد «إنه من كان ينسب إلى بجيلة فى الجاهلية ، وثبت عليه فى الإسلام فأخرجوه إلى جرير »[1] ، وقال عمر لجرير « اخرج حتى تلحق بالمثنى» ، فعارض جرير ، وفضل الخروج إلى الشام : «بل الشام فإن أسلافنا بها » ، ولكن عمر أوضح له وجهة نظره فى قوله «بل

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ١٦٩

العراق فإن الشام فى كفاية » ، ولم يزل عمر ببنى بجيلة حتى عرض عليهم الربع من خمس ما يفىء الله على المسلمين ، بالإضافة إلى نصيبهم من الفىء ، فقبل جرير وقومه ، وتولى جرير قيادة قومه ، وكانت عدتهم سبعمائة فارس .

وحدّث داوود بن أبى هند قال « أخبرنى الشعبى ، أن عمر وجه جرير ابن عبد الله إلى الكوفة ، بعد قتل أبى عبيد — أول من وجه — وقال : « هل لك فى العراق وأنفلك الثلث بعد الخمس ؟ قال : نعم » .

ولقد أبلى بنو بجيلة بلاء حسناً ، حتى أنه عندما انهزم الفرس ، قال المثنى « من يتبع الناس » ، فقام جرير فى قومه وقال « يا معشر بجيلة ! إنكم وجميع من شهد هذا اليوم من السابقة والفضيلة والبلاء سواء ، وليس لأحد منهم فى هذا الخمس غداً من النفل مثل الذى لكم منه ، ولكم ربع خمسه نفلا من أمير المؤمنين ، فلا يكونن أحد أسرع إلى هذا العدو ولا أشد عليه منكم ، للذى لكم منه ، ونية إلى ما ترجون ، فإنما تنتظرون إحدى الحسنيين : الشهادة والجنة ، أو الغنيمة والجنة » .

وكانت هناك قبائل أخرى تود الخروج إلى الشام دون العراق ، وزالت رغبتهم بعد قبول بنى بجيلة الخروج إلى هناك ، واجتمع نفر عند عمر ، فقال لهم « ذلك أمر كفيتموه ، فاستقبلوا جهاد قوم قد حووا فنون العيش ، لعل الله أن يورثكم قسطكم من ذلك ، فتعيشوا مع من عاش من الناس » ، فخاطب غالب بن عبد الله وعرفجة بن هرثمة قومهما « يا عشيرتاه ، أجيبوا أمير المؤمنين إلى ما يرى ، وأمعنوا له » ، فأجابوا ، وخرجوا مع الخارجين من بنى بجيلة .

وخرج أيضاً بنو الأزد وعليهم عرفجة بن هرثمة ، وبنو كنانة وعليهم غالب بن عبد الله ، وبنو حنظلة وعليهم ربعى ، وبنو ضبة وعليهم عصمة ابن عبد الله الضبى .... وصحب الخارجون نساءهم وأبناءهم .

وتلقى جرير دعوة عاجلة من المثنى « إنا جاءنا أمر لم نستطع معه المقام، حتى تقدموا علينا ، فعجلوا اللحاق بنا ، وموعدكم البويب »(١) .

من هو جرير ؟

هو جرير بن عبد الله بن جابر من بنى أنمار بن إراش بن عمرو ابن الغوث البجلى ، نُسب إلى أمه بجيلة ... قيل إنه من أصل يمنى ... وقال البعض إنه من نزار(٢) .

أسلم قبل وفاة الرسول بثمانين يوماً ، وكان موضع ثقة الرسول ، حتى أنه قال « ما حجبنى رسول الله صلى عليه وسلم ، وقد أسلمت ولا رآنى إلا ضحك » ، وأرسله النبي فهدم ذى الخلصة بتباله بين مكة واليمن ... وكان داعياً للإسلام فى اليمن . وعند ذى الكلاع بن ناكور ...

قاتل أهل الردة باليمن ، ولم يرتد كغالبية قومه ، حارب تحت إمرة خالد ابن سعيد فى الشام ، ثم شارك خالداً فى فتح العراق ، وعاد معه إلى الشام ، وقاتل تحت قيادة المثنى فى البويب ، ثم تحت قيادة سعد بن أبى وقاص فى القادسية وفى المدائن ، وتحت راية هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ، وشهد معركة جلولاء ، ثم فتح خانقين، وحلوان ، وقرميسين ، وهمذان ، وفقد فيها عينيه، إذ أصيب بسهم فقال « احتسبتها عند الله ، الذى زين بها وجهى ، ونور لى ما شاء ، ثم سلبنيها فى سبيله » ، وعاش حتى عهد معاوية ، ومات سنة أربع وخمسين هجرية .

استعداد الفرس

كان الفرس يسعون إلى إنهاء الخلافات التى قامت بينهم ، وإلى وضع

---

(١) الموضع الذى بنيت فيه الكوفة [الفاروق عمر ص ١١٩]
جاء فى معجم البلدان أن البويب نهر فى منطقة الكوفة يأخذ من الفرات [ح٢ ص ٣١٠] .

(٢) أسد الغابة ج ١ ص ٢٧٩

حد للاضطرابات ، فقد كانوا يدركون تماماً ، أنه لاموضع لخلاف فى وقت تهدد بلادهم أخطار، ويعسكر فى جزء منها جيش قوى ، فى حاجة إلى إعداد ضخم وجهود متصلة لمواجهته .

واستطاع رستم والفيرزان أن يصلا إلى إتفاق ، يقضى بتقسيم السلطة بينهما ، ثم جمعا جنداً كثيفاً ، جعلا عليه القائد مهران بن مهر بنداذ الهمذانى ، وكلفاه بأن يتقدم بقواته إلى مواقع المسلمين ، وأمداه بعدد من الفيلة .

والجدير بالذكر أن مهران قائد الفرس الجديد ،كان طموحاً ، حريصاً على أن يحرز نصراً كبيراً على العرب ، يُنسى الفرس النصر الذى أحرزه ذو الحاجب فى الجسر ، والذى عاش الفرس فى ذكراه ، وكان يهدف بذلك إلى أن يقفز إلى مكان الصدارة بين قادة بلاده ، وأن يسجل لنفسه صفحات مجيدة ، تفوق تلك الصفحات التى سجلها ذو الحاجب .

وتقدم مهران بقواته ، وقد بلغ عددها اثنا عشر ألفاً ، حتى نزل بإزاء المثنى من وراء الفرات ، فى أرض تدعى بسوس قرب الكوفة .

وما أن علم المثنى بنزول الفرس فى هذا الموقع ، حتى قال « أكد مهران وهلك ، ونزل منزلا هو البسوس » .

البويب

أصبح الجيشان العربى والفارسى على ضفتى نهر الفرات،كل منهما مستعد للقاء الآخر مادياً ومعنوياً . . . وكان لابد لكى يتم اللقاء ، أن يعبر أحد الجيشين الفرات إلى حيث الجيش الآخر ، فبعث مهران إلى المثنى يقول « إما أن تعبروا إلينا ، وإما أن نعبر إليكم » ، وتنبه المثنى فى هذه المرة إلى خطورة العبور ، وعادت ذاكرته به إلى أيام الجسر ، حين أصر أبو عبيد

على العبور ، وخالف رأيه ورأى سليط ، فكانت الهزيمة ، وتذكر المثنى ما أوصاه به عمر — بعد موقعة الجسر — ألا يعبر نهراً ، قبل أن يتم له النصر ، وقرر المثنى ألا يعبر ، وبعث إلى مهران قائلا « أعبروا إلينا »[١] .

وعبر الفرس النهر إلى البويب فى ثلاثة صفوف ، مع كل صف فيل ، وكان لها عند عبورها صوت وضوضاء ، فقال المثنى لجنده «إن الذى تسمعون فشل ، فالزموا الصمت ، وأتمروا همساً » .

أما المثنى فأعد قواته للمعركة ، وجعل على مجنبتيه بشير بن الخصاصية ويسر بن أبى رهم[٢]، وعلى مجردته (الخيل) أخاه المعنى ، وعلى الرجل (المشاه) أخاه مسعود ، وعلى الطلائع (المقدمة) النسير ، وعلى الردء (الاحتياط) مذعوراً ، وبقى هو فى القلب .

وبعد أن انتهى الإعداد المادى للمعركة ، أخذ المثنى يعد رجاله معنوياً ، فكان يتعهد الصفوف ، ويمر بين الجند على فرسه الشموس[٣] ، ويحضهم ، ويقول لهم « إنى لأرجو ألا تؤتى العرب اليوم قبلكم ، والله ما يسرنى اليوم لنفس شىء ، إلا وهو يسرنى لعامتكم » ، فكانوا يجيبونه بمثل قوله .

وظل المثنى يذكر جنوده بالحروب والوقائع الماضية والغزوات السالفة ، ويعرفهم بمواقع الشجعان ومصارع الفرسان ، وما وعد الله الشهداء المجاهدين من ثواب فى دار النعيم ، وبالرغم من أنه كان جريحاً ، فإنه كان يمر بالقوات باذلا الجهد ، غير آبه بحياته ، ولا عابىء بجراحه ، ينشط الهمم ، ويقوى العزائم ، ويشد نفوس أهل الحرب ، ويحرض المؤمنين على القتال .

---

(١) الطبرى حـ ص ٦٤٥

(٢) ذكر فى بعض المراجع بشر

(٣) دعى الشموس للين عريكته وطهارته وكان لا يركبه إلا إذا قاتل فإذا فرغ من القتال ودعه

وكانت المعركة فى رمضان ، فأمر المثنى رجاله بالإفطار ، حتى لا يؤثر الصيام على قدراتهم « أيها الناس ، إنكم صُوَّام ، والصوم مَرَقّة ومَضعفة ، وإنى أرى من الرأى أن تُفطروا ، فتقوَّوا بالطعام على عدوكم » ، ورأى الناس رأيه ، وأفطروا .

كانت خطة المثنى تقوم على أساس الهجوم إيماناً بأن الهجوم هو خير وسائل الدفاع ، وحدد المثنى لرجاله ساعة الصفر ، واتفق معهم على أن تكون عندما يكبِّر للمرة الرابعة « إنى مكبر ثلاثاً ، فتهيئوا ثم احملوا مع الرابعة ».

وحان الموعد المحدد ، وكبر المثنى ، وكبر من بعده المسلمون ، وحينما استعد المسلمون للهجوم ، وقعت مفاجأة ، فقد أدرك الفرس ، أن العرب على وشك الهجوم ، فقرروا أن تكون المبادأة لهم ، ولهذا رأوا الا يلتزموا بخطة دفاعية ، وإنما يهاجمون المسلمين .

وعندما كبر المثنى للمرة الرابعة ، عاجل الفرس المسلمين ، وهاجموهم ، وخالطوهم ، والتحم القتال ، واختلت — لشدة هجوم الفرس ، وللمفاجأة التى صاحبته — بعض صفوف المسلمين من بنى عجل ، فأرسل المثنى إليهم من يقول « إن الأمير يقرئكم السلام[1] ، ويقول لكم لا تفضحوا المسلمين اليوم »

ودام القتال ساعات طويلة ، وازداد الاشتباك عنفاً ، وخاض كل مسلم غمار المعركة وهو قوى الإيمان جرىء الجنان شديد الدفع مستبسل فى بطولة وكان الجند الذين فروا يوم الجسر يقاتلون لا يبالون الموت ، رغبة فى أن يتطهروا من عار الهزيمة التى لحقت بهم .

وكان المثنى خلال القتال يرقب جنده ، ويعدل صفوفهم ، ويشرف على

---

(١) فى رواية أخرى « إن الأمير يقرأ عليكم السلام .... »

سير القتال ، وتطوره ، ويمر بين الجند ، يثير حماسهم ، وكان إذا ما وجد خللا فى إحدى الجبهات ، أرسل لأهل هذه الجبهة ، رجلا من عنده يقول لهم « لا تفضحوا المسلمين اليوم » ، فيقولون له « نعم » ، وحدث أن وجد جندياً يتقدم صفه مندفعاً نحو الفرس ، فقرعه بالرمح ، وقال له «لا أبالك! إلزم موقفك ، فإذا أتاك قِرنك فأغنه عن صاحبك ، ولا تستقتل » ، فأجابه الرجل « إنى بذلك لجدير » ، ثم لزم صفه ، واستقر فى موضعه .

وأراد المثنى أن يضرب عدوه ضربة قاصمة ، فدعا أنس بن هلال النمرى ، وقال « يا أنس إنك امرؤ عربى ، وإن لم تكن على ديننا ، فإذا رأيتنى قد حملت على مهران ، فاحمل معى » ، ثم قال مثل هذا القول لأبى مردى الفهر التغلبى ، فأجابه الإثنان ، وحمل المثنى على الفرس ، وحمل معه الرجلان ، وهاجم الثلاثة مهران ، ودخل المثنى فى ميمنته ، فاضطربت صفوف الأعاجم .

وتقدم غلام من تغلب — وهو نصرانى — حتى أصبح قريباً من مهران فقتله واستولى على فرسه ، ثم أخذ ينشد :

أنا الغلام التغلبى أنا قتلت مهران[1]

وعلم الفرس بمقتل قائدهم ، فتضعضعوا ، وتراجعوا ناحية النهر ، يبتغون النجاة وعبور الجسر ، والمثنى وسط جنده يحرضهم ، قائلا « عاداتكم من أمثالكم ، انصروا الله ينصركم »[2] ، ويسمع المسلمون قوله ، فيزدادون حماسة وشدة على العدو .

---

(١) فى رواية أخرى « أنا الغلام التغلبى أنا قتلت المرزبان »
وجاء فى جمهرة أنساب العرب لابن حزم أن المثنى هو الذى قتل مهران

(٢) الطبرى ج ٢ ص ٦٥٠

كان مسعود أخو المثنى يقود المشاة (الرجل) ، فلما اشتد القتال قال لجنده « إن رأيتمونا أصبنا فلا تدعوا ما أنتم فيه ، فإن الجيش ينكشف ثم ينصرف ، إلزموا مصافكم ، وأغنوا غناء من يليكم » .

واندفع يخوض المعركة ، فصُرع قبل أن ينهزم الفرس ، فتضعضع من معه ، فقال لهم « يا معشر بكر بن وائل ، ارفعوا رايتكم يرفعكم الله ، لا يهولنكم مصرعي » ، وعند ما علم المثنى بمصرع أخيه خطب في القوم قائلا « يا معشر المسلمين ، لا يرعكم مصرع أخي ، فإن مصارع خياركم هكذا ... »[١] .

وأدرك المثنى أن الفرس يبغون عبور النهر هرباً من هجمات المسلمين ، فسابقهم إلى الجسر ، وسبقهم ، وردهم عنه ، فازداد اضطرابهم ، وسيوف المسلمين تأخذهم من كل جانب ، والمسلمون يحيطون بهم ويقتلونهم شر قتلة ، وقيل إن الرجل من المسلمين كان يقتل عدة منهم ، حتى سمي يوم البويب يوم الأعشار ، لأنهم أحصوا مائة رجل من العرب قتل كل واحد منهم عشرة من الفرس ، وقيل أيضاً ، أن ما أزهق في البويب من الأرواح ، يفوق ما زهق في أية غزوة أخرى ، فقد ُقدِّر عدد القتلى من الفرس بمائة إلف ، وبقيت جثثهم صرعى طريحة في الميدان حتى بليت وصارت عظاماً ، ثم بقيت دهراً طويلا لم تدفن ، إلا بعد بناء الكوفة ، وقيل إن أهل تلك الناحية كانوا يأتون البويب ، فيرون فيما بين موضع أسكون وبني سليم «عظاماً بيضاً تلولا ، تلوح من هامهم وأوصالهم يعثر بها »[٢] .

ووصف المثنى المحاربين الفرس فقال « قاتلت العرب والعجم في الجاهلية وفي الإسلام ، والله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشد علي من ألف من العرب ، ولمائة من العرب اليوم أشد علي من ألف من العجم ، إن الله اذهب

---

(١) البلاذري ص ٢٥٤

(٢) تجارب الأمم لإبن مسكويه ج ١ ص ٣٤٤

بأسهم ووهن كيدهم ، فلا يروعنكم زهاء ترونه ، ولا سواد ولا قِسِيٌّ فُج ولا نبال طوال ، فإنهم إذا أعجلوا عنها أو فقدوها كالبهائم أينما وجهتموها اتجهت » .

وحدث خلال المعركة أن بعض الفرس ارتدوا عن الجسر ، فلما شاهدوا مصرع إخوانهم ، أدركوا أنهم سائرون إلى نهايتهم ، فأخذوا يقاتلون المسلمين ، ويستميتون ، يريدون الثأر منهم ، فكانوا يقتلون كل مسلم يلقونه ، فمات كثير من المسلمين ، وأغضب ذلك المثنى ، فندم لأنه قطع الجسر ، فمنع الفرس من العبور ، وأسف لموت من مات من جنده ، وأوضح غضبه وندمه وأسفه في قوله لقومه « لقد عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتى إياهم إلى الجسر حتى أحرجتهم ، فإنى غير عائد فلا تعودوا ، ولا تقتدوا بى أيها الناس ، فإنها كانت منى زلة ، لا ينبغى إحراج أحد إلا من لا يقوى على امتناع » .

واستشهد من المسلمين عدد كبير من بنى النمر وبنى تغلب ، وكثيرون من عرب العراق ، كان فى مقدمتهم خالد بن هلال ، ومسعود بن حارثة ، وأنس بن هلال النمرى النصرانى ، وقال المثنى فى رثائهم « والله ليهون على وجدى أن شهدوا البويب ، أقدموا وصبروا ولم يجزعوا ولم ينكلوا ، وفى الشهادة كفارة »(١) .

وغنم المسلمون مغانم كثيرة ، وأصابوا بقراً وغنما ودقيقاً ، فبعثوا بها إلى عيالات من قدم من المدينة ، وقد خلفوهن بالقوادس وعلى تخوم شبه الجزيرة وبالحيرة ، وكان دليل من ذهب بنصيب العيالات بالقوادس عمرو ابن عبد المسيح بن بقيلة ، فلما رأت النسوة إقبال الخيل ، حسبنها غارة عليهن ،

---

(١) فى رواية أخرى « ... ... وإن كان فى الشهادة كفارة لتجوز الذنوب » .
[الطبرى ح ٢ ص ٦٥١]

تمن ومعهن الصبيان بالحجارة والعمد ، فانشرح صدر عمرو لتصرفهن ، وقال « هكذا ينبغى لنساء هذا الجيش » ، واستأمن الرجال النساء ، وبشروهن بالفتح ، ودفعوا إليهن ما جاءوا به ، قائلين « هذا أول المغنم » .

وقد وصف عروة بن زيد الخيل الطائى(١) انتصار المسلمين فى البويب فى شعره فقال :

هاجت لعروة دار الحى أحزانا واستبدلت بعد عبد القيس همدانا
وقد أرانا بها والشمل مجتمع إذ بالنخيلة(٢) قتلى جند مهرانا
أيام سار المثنى بالجنـــود لهم فقتل القوم من رجل وركبانا
سما لأجناد مهران وشيعته حتى أبادهم مثنى ووحـــدانا
ما أن رأينا أميراً بالعراق مضى مثل المثنى الذى من آل شيبانا
إن المثنى الأمير القرم لاكذب فى الحرب أشجع من ليث بخفانا

وبعد المعركة فرق المثنى جيشه فى السواد ، وأمر جنده بإخضاع العرب القاطنين فى السواد لسلطة المسلمين .

وأرسل المثنى جرير بن عبد الله البجلى إلى منطقة ميسان ، وهى منطقة واسعة كثيرة القرى والنخل ، وهلال بن علفه إلى دستميسان ، وهى منطقة مجاورة لميسان ، وتقع ضمن حدودها مدينة البصرة والأبلة .

كما أرسل تعزيزات لمواقعه ومراكز قواته بقيادة عصمة بن عبد الله الضبى ، وعرفجة بن هرثمة البارقى ، والكلج الضبى .

وكاف قواته الخفيفة الحركة (الخيالة أو المجردة) القيـــام بعمليات

---

(١) صحابى مشهور شهد مع أبيه فى الجاهلية بعض الحروب وعاش إلى خلافة الإمام على ، وشهد معه صفين

(٢) مكان قرب البويب .

استطلاع بعيدة المدى ، بقصد جمع الأخبار عن الفرس ، وبناء على ما كانت تأتيه به من الأخبار ، كان ينظم غاراته المتعددة التى كانت تثير الرعب لدى الفرس ، وتؤكد إيمان جنده بالنصر .

سوق الخنافس

ترك المثنى بشير بن الخصاصية بالحيرة « ثم توجه إلى أليس ، وهناك جاءه رجلان أحدهما أنبارى والآخر حيرى ، دله الأول على سوق الخنافس[1] ، ودله الثانى على سوق بغداد[2] ، ورأى المثنى أن سوق الخنافس أقرب إليه ، وأنه يستطيع أن يصل إليه بسرعة ، فيتحقق عنصر المفاجأة

ونجح المثنى فى مهاجمة السوق ، واستولى على ما بها ثم عاد وهو ينشد :

صبحنا بالخنافس جمع بكر وحيا من قضاعة غير ميل
بفتيان الوغى من كل حى تبارى فى الحوادث كل جيل
نسفنا سوقهم والخيل رود من التطراف والشر البخيل

الأنبار .. بادوريا .. قطربل

وبعد النجاح الذى صادفه المسلمون فى سوق الخنافس قاموا بعدة غارات على الأنبار وبادوريا[3] وقطربل[4] وغنم المسلمون بغنائم كثيرة وتغنى

---

(١) سوق يتوافد إليها تجار كثيرون من جميع أنحاء السواد والعراق

(٢) سوق كبيرة تقام كل سنة فيأتى إليها التجار من داخل أراضى العراق ومن أرض السواد ومن مختلف البلاد وتجتمع بها أموال كثيرة لا حصر لها حتى أن بعض المراجع أجمعت على أن أموال السوق تقدر بأموال بيت المال .

(٣) تقع فى الجانب الغربى من بغداد ضمن منطقة نهر عيسى بن على وتصل بعض مبانى بغداد إلى طرفها
وذكرت فى بعض المراجع بادرويا

(٤) قرية تقع بين بغداد وعطبرة

الشعراء بنجاح هذه الغارات فقال أحدهم :

وللمثنى بالعال معركة شاهدها من قبيلة بشر
كتيبة أفزعت بوقعتها كسرى وكاد الإيوان ينفطر
وشجع المسلمون إذ حذروا وفى ضروب التجارب الحذر
سهل نهج السبيل فاقتفوا آثاره والأمور تقتفر(١)

سوق بغداد

خرج المسلمون من مكان قرب البويب يسمى النخيلة ، وكان معهم أولاد من أهل الحيرة يدلونهم على الطريق إلى سوق بغداد ، ووصلوا فى الليل إلى الأنبار ، وكان عليها رجل فارسى يدعى شفروخ .

وعندما أراد المسلمون اجتياز النهر ، فوجئوا بالجسر مقطوعاً ، فاستدعى المثنى مرزبان الأنبار ، ووعده الأمان ، ثم طلب منه المعاونة ، دون أن يوضح له هدفه ، وقال له « إنى أريد أن أغير على المدائن ، وأريد أن ترسل معى الأدلاء ، وتعقد لى الجسر لأعبر عليه الفرات إلى المدائن »

وجمع شفروخ الأدلاء ، وعقد الجسر للمسلمين ليعبروا فعبروا ، ثم تقدموا ، وفى خلال التقدم سألوا الدليل « كم بيننا وبين بغداد ؟ » ، فأجابهم « أربعة أو خمسة فراسخ ، وقد بقى عليكم ليل » .

وعلى الطريق أقام المثنى معسكراً لجنده ، وعين حرساً من بعض رجاله يتناوب حراسة المعسكر ليلا ، وسمح لباقى الجند بالراحة والنوم ، وكلف — ضماناً للسرية ومحافظة على تحقيق المفاجأة — بعض فرسانه القيام بأعمال

---

(١) أى تقتص

الدوريات حول معسكره وإلى مسافة بعيـدة ، وأمر بإلقاء القبض على كل فرد يقترب من المعسكر .

وفى آخر الليل أيقظ المثنى رجاله ، وأمرهم بالاستعداد ، وسمح لهم بتناول الفطور وبالوضوء وبإعداد الخيل قبل طلوع الشمس[1] .

ثم أصدر أمره التحرك ، ووصلت القوات بغداد قبل بزوغ الشمس ، وبدأت هجومها المفاجىء ، ووضعت السيوف فى الأهالى ، ففروا تاركين ثرواتهم وأموالهم وتجارتهم غنيمة للمسلمين .

وفى طريق العودة نزل المسلمون بنهر السيلحين . وبينما يمر المثنى بين مواقع جنده سمع همساً يقول « ما أسرع القوم فى طلبنا ! » . فجمع جنده وخطب فيهم قائلا « أيها الناس احمدوا الله ، وتناجوا بالبر والتقوى ، ولا تناجوا بالإثم والعدوان ، أنظروا فى الأمور وقدروها ، ثم تـكلموا ، إنه لم يبلغ النذير مدينتهم بعد ، ولو بلغهم لحال الرعب بينهم وبين طلبكم ، إن للغارات روعات تنتشر عليها يوماً إلى الليل ، ولو طلبكم المحامون من رأى العين ما أدركوكم ، وأنتم على الجياد العراب وهم على المقاريف[2] البطاء ، حتى تنتهوا إلى عسكركم وجماعتـكم ، ولو أدركوكم لقاتلتهم لإثنتين : التماس الأجر ورجاء النصر ، فثقوا بالله وأحسنوا الظن ، فقد نصركم الله عليهم فى مواطن كثيرة ، وهم أكثر منـكم وأعز » .

---

(١) فى لغة العسكريين قبل أول ضوء

(٢) جمع مقرف أى الخيل غير الأصيلة

وبدراسة هذه الخطبة نلحظ ....

* إيمانه المطلق بالله وثقته الكبيرة فى تأييده تعالى للمسلمين .
* نصحه جنده بعدم الاندفاع وراء الشائعات .
* حالة عدوه المعنوية سيئة مما يؤكد أنه قد أصبح غير راغب فى القتال .
* إيمانه العميق بسلاحه واعتزازه بالخيل العربية التى تفوق خيل الفرس .
* إثارته لهمة رجاله وحماسهم انتظاراً للقاءات قادمة مع عدوهم .

صفين

أرسل المثنى فرات بن حيان وعتبة بن النهاس للاغارة على أحياء من تغلب والنمر فى صفين ولما علم هؤلاء عبروا الفرات وتحصنوا فى الجزيرة ...

ورأى المثنى أن يلحق بالقوة ، فاجتاز برجاله منطقة صحراوية لا تملك القيام بوسائل الإعاشة اللازمة للقوة المتحركة ، ولكنه استطاع أن يتغلب على هذه المشكلة ، فلجأ إلى رواحله فذبح ما استطاع الاستغناء عنه ، وعاش ورجاله على لحومها .

وفى الطريق التقت قواته بقافلة من أهل مدينة دبا ومدينة حوران ، فهاجمتها وقتلت رجالها ، وأسرت ثلاثة من بنى تغلب ، واستولت على ما فى القافلة من خير وطعام ، واتخذ المثنى الأسرى الثلاثة أدلاء ، فقال أحدهم « أدلكم على حى من تغلب غدوت من عندهم اليوم » ، وأمنه المثنى ، فسار بالمسلمين مع بداية الليل إلى مواقع جلس فيها أصحابها مطمئنين ،

ومن حولهم الماء والرواحل ، فهاجمهم المثنى ، وكان هجوماً ناجحاً اعتمد على السرعة والمفاجأة ، فاستسلم القوم دون قتال .

تكريت

وكانت جماعة من تغلب قد تجمعت على دجلة مع قوم من تكريت وعلم المثنى بأمرهم ، فجعل حذيفة بن محصن على المقدمة ، والنعمان ابن عوف ومطر الشيباني على مجنبتيه ، وهاجم تكريت ، وأصحاب القوم ، ووضع يديه على مغانم كثيرة .

وبانتهاء هذه الغارة عاد المثنى إلى الأنبار ... وكانت هي آخر عمل عسكري قام به المثنى حتى مات .

الباب السابع

الضربة القاصمة في القادسية

انتصار سعد بن أبي وقاص ومقتل رستم

قال عمر

« لا يهولنك كثرة عددهم
وعُددهم فإنهم قوم خدعة مكرة
وإن أنتم صبرتم وأحسنتم ونويتم
الأمانة رجوت أن تُنصروا عليهم
ثم لم يجتمع شملهم أبداً »

من خطاب له قبل القادسية
إلى جيش المسلمين

الحشد الفارسى

كانت الهزائم المتكررة التى أصيبت بها قوات الفرس ناقوس خطر ، تنبه على دقاته الفرس ، فأخذ حكامهم يفكرون فيما يوشك أن يصير إليه أمرهم إذا ظلوا على ما هم فيه من فرقة وانقسام ، وأصبح واضحاً أن الأمر سيفلت من أيديهم ، وأن مستقبلهم مهدد ، ووجودهم فى خطر ، ونهايتهم تقترب ، فقرروا مواجهة الأمر الواقع بشجاعة وبطولة للدفاع عن كيانهم وعن بلادهم .

وكان لا بد للفرس من أن يطرحوا خلافاتهم وراء ظهورهم ، وأن تتحد كلمتهم ، وأن تنتظم صفوفهم ، حتى يستطيعوا مواجهة العرب . . . ومن أجل هذا اجتمع أهل فارس بالقائدين رستم والفيرزان ، وتحدثوا إليهما فى صراحة ووضوح « فما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن .. والله لتجتمعان أو انبدأن بكما ، قبل أن يشمت بنا شامت ، ونشفين نفوسنا منكما » ، وتشاور الرجلان ، ثم استكتبا بوران كتاباً إلى نساء كسرى وسراريه ، فلما جئن ، عرفا منهن أنه لم يبق ذكر من ذرية كسرى إلا يزدجرد بن شهريار بن كسرى ، وهو فى الواحدة والعشرين من عمره ، وكانت أمه قد أخفته عند أخواله حين قتل شيرى جميع الذكور من ذرية أبيه .

وتم الاتفاق على أن يولى يزدجرد العرش ، وأن تقف كل القوى من خلفه صفاً واحداً تسانده وتعاونه ..

واطمأنت فارس بعد توحيد صفوفها ، وبدأ يزدجرد فى الإعداد للثأر لكرامة بلده ، ولاستعادة مكانتها وهيبتها ، فأرسل الجيوش إثر الجيوش لقتال العرب ، وآمن أهل السواد وهم يشاهدون هذه الجيوش الجرارة بأن

كفة الفرس سترجح دون ريب ، ولهذا بدأوا يثورون على المسلمين ، ويهاجمون مواقعهم ، بعد أن نقضوا ما بينهم وبين المسلمين من عهود .

وتقرر أن يتولى رستم قيادة جيش الفرس ، فسار إلى ساباط فى ستين ألفاً ، وبعث على مقدمته الجالينوس فى أربعين ألفاً ، وجعل على ميمنته الهرمزان ، وعلى ميسرته مهران بن بهرام الرازى ، وأصبح عدد القوات التى تجمعت تحت قيادة رستم مائة وعشرين ألفاً ، يتقدمهم ثلاثة وثلاثون فيلا ، بينها فيل سابور الأبيض ، وكانت سائر الفيلة تألفه وتتبعه .

وبعد أربعة شهور من خروج رستم من المدائن وصل إلى القادسية ، وصف عساكره قبالة عسكر المسلمين ، وقدَّم الفيلة أمامه بقصد إرهاب المسلمين وإدخال الرعب إلى نفوسهم ، وخاصة أنهم يهابون الفيلة ويخافونها ، فوق أن الخيل ترجف منها وتهرب .

الحشد العربى

إزاء هذا التجمع الفارسى ، وإزاء ثورة أهل السواد على المسلمين ، اضطر المثنى إلى سحب قواته إلى ذى قار على تخوم شبه الجزيرة[١] ، فاحتلت هناك موقعاً يمتد من الجل[٢] وشراف[٣] إلى غضى[٤] ، وأعد مسالح ونقطاً عسكرية ، وأقام خطوط دفاع ، وتميّز موقعه الجديد بأن المسالح كانت تنظر بعضها إلى بعض ، وتعاون بعضها بعضاً

وبعد أن استقرت الأوضاع ، رأى المثنى أن يخاطب الخليفة ، وأن

---

(١) الطبرى ج ٢ ، ص ٦٥٩

(٢) موضع بالبادية على امتداد القادسية

(٣) موضع جنوب الكوفة بثلاثة أميال

(٤) جبل البصرة

يعرض عليه الأمر فى صراحة ، وأن يوضح له الخطر المحدق به وبجيوشه وأن يحدثه عن ثورة أهل السواد ، وأن يطلب العون السريع العاجل .

وتم الاتصال بين عمر والمثنى ، وكتب عمر إلى عماله على الكور والقبائل فى بلاد العرب قائلا « لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلىّ .. والعجل العجل ..(١) » ، ثم قال لأصحابه « والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب » .

واجتمع لدى عمر من الجند بضعة آلاف فخرج بهم حتى نزل على ماء يدعى صراراً فعسكر به ، ودعا الناس إلى الصلاة ، ثم سألهم رأيهم فيمن يتولى قيادة الجيش العربى إلى العراق ، فقال له العامة « سر وسر بنا معك » .

وجمع عمر أصحاب المشورة وقال لهم « أحضرونى الرأى فإنى حائر » ، ودارت مناقشات طويلة ، تقرر بعدها أن يبقى عمر بالمدينة ، وأن يبعث واحداً من أصحاب رسول الله على رأس الجيش « فإن كان الذى يشتهى من الفتح فذلك ما يريد وتريدون ، وإلا ندب جنداً آخر يغيظ به العدو ، حتى يجىء نصر الله » .

وأيد هذا الرأى عبد الرحمن بن عوف ، فقال لعمر « أقم ، وأبعث جنداً فقد رأيت قضاء الله لك فى جنودك من قبل وبعد ، فإنه إن يهزم جيشك ليس كهزيمتك ، وإنك إن تُقتل أو تهزم فى أنف الأمر ، خشيت أن لا يكبرّ المسلمون ، وألا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً » .

وتوجه عمر بالحديث إلى المجتمعين ، فقال « يحق على المسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم ، وإنى إنما كنت كرجل منكم حتى صرفنى ذوو الرأى منكم عن الخروج ، فقد رأيت أن أقيم ، وأن أبعث رجلا » .

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٦٦٠

وأخذ الناس يعرضون الأسماء ، ويرشحون من بينها القائد الجديد . وبينما هم كذلك ، وردت رسالة إلى عمر ، من سعد بن أبي وقاص — وكان على بعض صدقات نجد — يخبره فيها أنه قد تخير ألف فارس ذوي بطولة وقوة ..

وعندما علم الحاضرون أن الرسالة من سعد ، قالوا لعمر — كأنما قد وضعوا أيديهم على الرجل الكفء — « قد وجدت الرجل » ، فسألهم عمر « من ؟ » فأجابوه « الأسد في براثنه ... سعد بن مالك » .

وعلى الفور وافق عمر قائلا « إنه رجل شجاع رام »[١] ، وكتب إليه فقدم وعُين قائداً لجيوش المسلمين في حروب العراق .

وكان أول ما أوصى به عمر سعداً « ياسعد . . . سعد بني وهب . . . لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه ، فإن الله عز وجل ، لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم في دين الله سواء ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ماعنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه ، وعليك بالصبر » .

وخرج سعد من المدينة إلى العراق ، وتحت قيادته أربعة آلاف من الجند ، ومعهم نساؤهم وأبناؤهم ، وكانت القوات التي تأتي إلى المدينة بعد تحركه تلحق به لتنضم إليه ، حتى بلغت قواته حين وصل أرض العراق عشرين ألفاً ، وكان ضمن رجاله عمرو بن معدي كرب ، وطليحة بن خويلد والأشعث بن قيس الكندي ، وخالد بن عرفطة ، وجرير بن عبد الله البجلي ، وعاصم بن عمرو .

---

(١) جاء في بعض المراجع أن عبد الرحمن بن عوف هو الذي رشحه
(عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٧٦)

وفى ذات الوقت تحركت قوات من الشام بقيادة هاشم بن عتبة ، بلغت ثمانية آلاف ، وانضمت أيضاً إلى قيادة سعد قوات المثنى الموجودة بالعراق وكانت ثلاثة آلاف ، ثم قوات من القبائل المجاورة بلغت خمسة آلاف ، وبذلك يكون الجيش الإسلامى فى العراق قد بلغ ستة وثلاثين ألفاً ، وهو أضخم جيش عربى عبأه المسلمون لغزو العراق .

وحدث فى خلال القتال أن انفصلت بعض القوات العربية عن قوات الشام وانضمت إلى القوات العربية فى العراق ، وكانت هذه القوات بقيادة البطل العربى المغوار القعقاع بن عمرو التميمى ، الذى كان له دور هام فى المعارك ضد الفرس تحت قيادة خالد بن الوليد ، والذى قال عنه أبو بكر « لا يهزم جيش فيهم مثل هذا » وكان انضمام القعقاع إلى العرب فى العراق قوة زادتهم بأساً وشجاعة ، فهو أجرأ العرب على الفرس ، وأعرفهم بأساليب حربهم .

وكان المثنى بن حارثة قد مات[1] ـ قبل وصول سعد ـ متأثراً بجرحه الذى أصيب به فى الجسر ، فتولى قيادة جيشه بشير بن الخصاصية ، بينما كان شقيقه المعنى فى مهمة جليلة خطيرة ، إذ بُذلت محاولة من جانب الفرس تولى تنفيذها قابوس بن قابوس بن المنذر ، ترمى إلى دعوة العرب فى المنطقة إلى الإشتراك فى الحرب مع جنود كسرى ضد العرب المسلمين ، وقام قابوس بمخاطبة بنى بكر بن وائل لينضموا إلى الفرس ، وعلم المعنى بالمؤامرة ، فترك ذى قار واتجه إلى بكر — وهى قومه — واستبقاهم على ولائهم للمسلمين ، وأفسد المعنى بذلك خطة قابوس .

وعند ما عاد المعنى إلى شراف وقابل سعداً ، حمل إليه وصية كان المثنى

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٧

قد أوصى بها قبل وفاته ، وكان يدعو فيها المسلمين إلى قتال عدوهم على حدود أرضه ، على أدنى حجر من أرض العرب ، وأدنى مدرة من أرض العجم ، وينصحهم ألا يقتحموا عليه فى عقر داره ، فإن أظهرهم الله عليه فلهم ما وراءه ، وإن كانت الأخرى كانوا أعلم بسبيلهم .

وجاءت سلمى زوج المثنى إلى شراف فى صحبة المعنى ، فخطبها سعد لنفسه وتزوجها تكريماً لذكرى زوجها ، وإكراماً لها ، حتى تظل فى مثل عزها وكرامتها فى حياة زوجها الأول[1] .

الأسد فى براثنه

أشار الناس على عمر أن يعين سعد بن أبى وقاص قائداً لجيش المسلمين فى العراق قائلين له « الأسد فى براثنه . . . سعد بن مالك » ، فمن هو سعد ؟ ما تاريخه ؟ ولماذا اختاره الناس لهذه المهمة الخطيرة ؟

هو سعد بن مالك بن أهيب[2] بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب القرشى الزهرى . . . أمه هى حمنة بنت سفيان بن أمية ، بنت عم أبى سفيان ابن حرب بن أمية [3] . . . وسعد هو خال الرسول صلى الله عليه وسلم ، فآمنة بنت وهب[4] أم النبى من بنى زهرة .

نشأ سعد فى مكة ، واشتغل فى برى السهام وصناعة القسى ، فدرت عليه هذه الحرفة المال الوفير فأصبح غنياً ، وكان صديقاً لأبى بكر ، ولما نزل الوحى على الرسول أسلم أبو بكر ، ثم دعا إلى الله ورسوله ، فأسلم بدعائه عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ابن

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ١٠

(٢) ذكر إسمه وهيب فى جوامع السيرة لابن حزم ص ٤٦

(٣) المعارف لابن قتيبة ص ٢٤١

(٤) آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة

أبي وقاص [١] ، وطلحة بن عبيد الله ، فيكون سعد من المسلمين الأوائل ، وقد قال في ذلك [٢] « ما أسلم أحد إلا في اليوم الذي أسلمت فيه ، ولقد مكثت سبعة أيام وإني لثالث الإسلام » [٣] ، وقد عارضت أمه إسلامه ، حتى أن الله تبارك وتعالى أنزل — بسبب خلافهما — آية يوضح فيها علاقة الابن المسلم بأبويه المشركين « وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً » .

وأول دم أهريق في الإسلام [٤] كان على يد سعد ، حين ضرب رجلا من المشركين بلحي جمل فشجّه ، وهو صاحب أول سهم رمى في الإسلام ، فقد كان أحد جنود عبيدة بن الحارث بن المطلب [٥] ، الذين التقوا بالمشركين تحت قيادة أبي سفيان بن حرب في ثنية المرة ، ولم يكن بينهم قتال ، إلا أن سعداً رمى بسهم ، وقال « والله إني لأول رجل من العرب رمى بسهم في سبيل الله » [٦] ، وقال أيضاً :

ألا أبلغ رسـول الله أني ... حميت صحابتي بصدور نبلي
أذود بها عدوهم ذياداً ... بكل حزونة وبكل سهل [٧]

---

(١) أسلم وهو ابن سبع عشرة سنة ويقول ابن عبد البر في الاستيعاب في معرفة الأصحاب أنه أسلم وهو ابن تسع عشرة سنة [ج ٢ ص ٦٠٧]

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ج ٣ ص ٨٣

(٣) أراد سعد بذلك النبي ثم أبي بكر ثم هو ولكن جاء في جوامع السيرة لابن حزم [ص ٤٥ — ٤٦] أن الذين أسلموا هم أبو بكر وعلى وزيد بن حارثة وبلال وعبسة السلمى (وهو صديق للنبي في الجاهلية) وخالد بن سعد بن العاص وسعد ابن أبي وقاص ، وإذا أضفنا إلى هؤلاء أول امرأة في الإسلام وهي خديجة أم المؤمنين فيكون سعد هو سابع الرجال وثامن من أسلم من الرجال والنساء والصبيان

(٤) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٧٥

(٥) قرشي أسلم وهاجر إلى المدينة وعقد له الرسول أول لواء وجرح يوم بدر ومات شهيداً

(٦) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٢٤

(٧) الحزونة الأرض الوعرة ... والسهل الأرض المستوية

فما يعتد رام من معد بسهم يا رسول الله قبلى

هاجر سعد مع المهاجرين إلى المدينة ومعه أخوه عمير، وآخى الرسول بينه وبين مصعب بن عمير (١) .

وقاد سعد سرية إلى الخرار (٢)، وكان ضمن سرية عبد الله بن جحش (٣)، وشهد بدراً ، وأحداً ، والخندق ، والحديبية ، وخيبر ، وفتح مكة .

وكان الرسول يفخر به لبطولته وحسن بلائه ، حتى أنه كان يقول كلما أقبل سعد « هذا خالى فليرنى امرؤ خاله » (٤) ، وأوصى سعد بثلث ماله لله ، وهو أحد عشرة توفى الرسول وهو عنهم راض ، وقد بُشروا بالجنة ، وكان الرسول يقول « اللهم استجب لسعد إذا دعاك » .

قاد سعد المسلمين فى القادسية والمدائن، ثم انتصرت جيوشه فى جلولاء بقيادة هاشم بن عتبة ، وفى خانقين وحلوان وقصر شيرين بقيادة القعقاع وجرير البجلى .

وعزله عمر سنة عشرين للهجرة ، وولى مكانه عمار بن ياسر ، وجعله

---

(١) من بنى عبد الدار من قريش يقول عنه الرسول « ما رأيت بمكة أحداً أحسن لمة ولا أرق حلة ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير »
هاجر إلى الحبشة وشهد بدراً واستشهد فى أحد
وجاء فى طبقات ابن سعد أن الرسول آخى بين سعد وبين سعد بن معاذ وليس بينه وبين مصعب [ج ٣ ص ١٤٠]
وسعد بن معاذ أنصارى من الخزرج أسلم بالمدينة وشهد بدراً وأحد وأصيب بسهم قاتل فى الخندق

(٢) موضع بالحجاز قرب الجحفة
وقيل إنه واد من أودية المدينة [معجم البلدان ج ١ ص ٤٠٧]

(٣) أمه أميمة بنت عبد المطلب عمة الرسول وأخته زينب بنت جحش زوج الرسول ، أسلم وهاجر إلى الحبشة وغنم أول غنيمة فى الاسلام ، أخذ الرسول خمسها فكانت أول خمس فى الاسلام وشهد بدراً واستشهد فى أحد

(٤) السيرة الحلبية ج ١ ص ٣١٢

عمر حين جاءته الوفاة أحد المرشحين للخلافة من بعده[١] ، وقال لأصحابه « إن أصابت الإمرةُ سعداً فهو ذاك ، وإلا فليستعن به أيكم ما أُمر ، فإنى لم أعزله فى عجز ولا خيانة »[٢] .

وعُين سعد فى زمن عثمان على الكوفة ، ولكن عثمان عزله ، ولما قامت الثورة ضد عثمان كان سعد ممن استقتل فى الدفاع عنه[٣] ، فلما قتله الثوار ، بكى سعد وقال « ما بكيت من الدهر إلا ثلاثة أيام : يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويوم قتل عثمان ، واليوم أبكى على الحق ، فعلى الحق السلام » .

وبايع سعد علياً وكتب إليه معاوية — طمعاً فيه — يدعوه أن يعينه على طلب دم عثمان ، فرفض ، وكتب إلى معاوية قصيدة طويلة جاء فيها :

فأما دم عثمان فدعه فإن الرأى أذهبه البلاء

وتوفى سعد بالعقيق[٤] عام خمسة وخمسين للهجرة ، وكان عمره وقت الوفاة ثمانياً وسبعين سنة .

رستم . . قائد الفرس

تولى رستم قيادة جيوش الفرس التى أعدت لمواجهة جيوش المسلمين .

ورستم هو ابن حاكم خراسان ، وواحد من رجال الحرب المشهورين ، كان جريئاً طموحاً ، يثير طموحه إعجاب الناس ، فوضعوا آمالهم فى قيادته ،

---

(١) كان عمر قد جعل الخلافة من بعده شورى فى ستة هم عثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد الرحمن ابن عوف وسعد

(٢) الطبرى ج ٢ ص ٣٩٤

(٣) المرجع السابق ص ٣٨٩

(٤) على بعد عشرة أميال من المدينة

وتوقعوا خيراً كبيراً على يديه ، ولكنه رغم طموحه وجرأته ، وما عرف عنه من الشجاعة والقوة والبطولة ، كان يفتقد عنصراً هاماً من عناصر القيادة ... هذا العنصر هو إيمان القائد بأهمية المعركة التي سيخوض غمارها بالنسبة لنفسه ولبلده ولعدوه ، فقد كان رستم يؤمن تماماً بأن دولته فى طريقها إلى الزوال ، وأن حكمها سائر إلى العرب ، وأن المعركة القادمة هى معركة فاشلة بالنسبة للفرس ، وأن المعارك التى تتلوها معارك فاشلة لا رجاء فيها ولا أمل ، ولقد جاء هذا الشعور نتيجة لما رأى رستم فى النجوم — وكان عالماً بها — ما يضمره الغيب لبلاد العراق ولفارس ، ورغم هذا الشعور فقد قبل رستم قيادة جيوش الفرس استجابة لطموحه وكبريائه، إذ سئل كيف يتولى أمر الفرس وهو يعلم نهايتها ويرى فيها مايراه فأجاب « الطمع وحب الشرف » ، ومعنى هذا أن رستم قبل خوض المعركة وهو يعرف مقدماً نتيجتها ، وليس أدل على ذلك من أنه سعى جاهداً إلى تأجيل موعد المعركة ، بل إنه سعى إلى عقد اتفاق مع العرب ، كما سنوضحه فيما يلى . . .

أولا . . . بعد أن وقع الاختيار على رستم بعث إليه يزدجرد «أنت رجل فارس اليوم ، وأنا أريد أن أوجهك لقتال العرب » ، فأجابه رستم « دعنى بالمدائن ، فلعل الدولة أن تثبت بى إذا لم أحضر الحرب ، فيكون الله قد كفى ونكون قد أصبنا المكيدة ، والرأى فى الحرب أنفع من بعض الظفر ، والأناة خير من العجلة ، وقتال جيش بعد جيش أشد على عدونا ، ولن تزال العرب تهاب العجم ما لم تضربهم بى »

ثم حدث أن وضع كمين للمسلمين يده على ابنة مرزبان الحيرة —وهى فى طريقها إلى صاحب الصِّنَّين أحد أشراف العجم — وأغضب أسرها يزدجرد ، فأعاد الكتابة إلى

رستم ، يدعوه لتولى قيادة الجيوش ، فأجابه للمرة الثانية « وقد اضطرنى تضييع الرأى إلى إعظام نفسى وتزكيتها ، ولو أجد من ذلك بدأ لم أتكلم به ، فأنشدك الله فى نفسك وملكك ! دعنى أقم بعسكرى وأسرح الجالينوس ، فإن تكن لنا فذلك، وإلا بعثنا غيره ، حتى إذا لم نجد بدأ ولا حيلة صبرنا لهم وقد وهناهم وحسرناهم ونحن جامّون، فإنى لا أزال مرجواً فى أهل فارس مالم أهزم »

واشتدت غارات المسلمين على السواد من أسفله إلى أعلاه ، وكتب المرازبة والدهاقين إلى يزدجرد يطلبون منه النجدة والعون، وينبئونه بأنهم إن لم يعجل بنجدتهم سينزلون على أمر المسلمين ، فأمر يزدجرد رستم بالتحرك لمواجهة المسلمين ، وكتب إليه يقول « لتسيرن أو لأسيرن بنفسى » ، واضطر رستم إزاء هذا الموقف أن يخرج ، فبعث على مقدمته الجالينوس ، ثم كتب إلى أخيه البندوان « أما بعد فرمّوا حصونكم واستعدوا وأعدوا ، فكأنكم بالعرب قد قارعوكم عن أرضكم وأبنائكم ، وقد كان من رأيى مدافعتهم ومطاولتهم حتى تنقلب سعودهم نحساً » ، واختتم رسالته إلى أخيه قائلا « ولا أرى هؤلاء القوم إلا سيظهرون علينا ويستولون على ما يلينا »

وكانت الحيرة عند وصول رستم إليها قد هادنت المسلمين فلام رستم أهلها على صنيعهم ، فقال له حكيمهم « لا تجمع علينا أن تعجز عن نصرتنا ، وتلومنا على أن ندفع عن أنفسنا».

ثانياً . . . تابع رستم تقدمه إلى القادسية ، فبلغها بعد أربعة أشهر من خروجه من المدائن ، وكان يهدف من وراء إطالة المدة إلى

أن يهن العرب إذا لم يجدوا مؤونة تكفيهم ، أو أن يسأموا طول المقام ، فينصرفوا إلى بلادهم ، وكان فى تمهله يعبر عن خوفه من لقاء سعد بعد أن دلته النجوم على المصير السيء الذى تنحدر إليه أمور الفرس .

ورغم القوة الضخمة الهائلة التى حُشدت تحت قيادته ، فإنه سعى إلى محاولة صرف العرب دون قتال ، وإلى محاولة إقرار اتفاق معهم ، ولهذا بعث إلى سعد يطلب رجلا من عقلاء المسلمين ليتحدث إليه ، فبعث إليه بالمغيرة بن شعبة الذى لم ترهبه مظاهر القوة والسلطان التى أحاط بها رستم نفسه ، وتحدث إليه حديث المؤمن القوى ، فقال « إن عيالنا قد ذاقوا طعام بلادكم ، فقالوا لا صبر لنا عليه » ، ثم عرض عليه أن يقبل الإسلام ، أو يؤد الجزية أو يقاتل ، وعاد رستم فطلب من سعد أن يبعث إليه برجل آخر ، فبعث إليه بمن تحدث بمثل حديث المغيرة ، وطلب رستم رسولا ثالثاً ، وعرض عليه ما كان يزدجرد قد عرضه على وفد أرسله إليه سعد ، بناء على أمر للخليفة عمر — سيأتى ذكره فيما بعد — وكان العرض ينص على أن يفرض للعرب قوتاً ، وأن يكرم وجوههم ، وأن يعودوا إلى بلادهم ، ورفض الرسول الثالث هذا العرض ، وطلب من رستم أن يقبل واحدة من ثلاث : الإسلام أو الجزية أو القتال .

إن هذه المحاولات من جانب رستم تؤكد خشيته من لقاء العرب ، وإيمانه أن نهاية دولته ستتقرر فى المعركة القادمة .

ثالثاً . . . كان عمر قد بعث إلى سعد أن يرسل وفدا إلى يزدجرد يعرض عليه الإسلام أو الجزية أو المناجزة، ونفذ سعد أوامر الخليفة فبعث بوفد فيه النعمان بن مقرن ، وفرات بن حيان ، والأشعث بن قيس ، وعمرو بن معدى كرب ، والمغيرة إبن شعبة ، والمعنى بين حارثة ، فلما التقى هؤلاء بيزدجرد عجب هذا لمنظرهم ، إذ رآهم رجالا عجافا ، أرديتهم على عواتقهم ، وسياطهم فى أيديهم ، ونعالهم فى أرجلهم ، وخيولهم ضعيفة وتساءل وقومه كيف يفكر هؤلاء — وهذه حالهم — فى غزو بلاد العراق وأرض فارس ، وفى اقتحام مدنها ، وكيف يأملون فى الفوز على جيوشهم الجرارة ؟

وتوجه يزدجرد بالسؤال « ما الذى أقدمكم هذه البلاد ؟ أتراكم اجترأتم علينا لمّا تشاغلنا بأنفسنا ؟ » ، وتولى النعمان الإجابة ، وحدثه عن العرب فى ماضى أيامهم وفى عهد النبوة ، ثم دعاه إلى الإسلام ، وأردف « فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتموها فالمناجزة » ، ثم أوضح له « إن أجبتم إلى ديننا خلّفنا فيكم كتاب الله ، وأقمناكم عليه ، على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم ، وشأنكم وبلادكم ، وإن أتيتم بالجزية قبلنا ومنعناكم ، وإلا قاتلناكم » .

وأغضبت هذه الإجابة يزدجرد فقال للوفد « إنى لا أعلم أمة فى الأرض كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم ، وقد كنا نوكل بكم قرى الضواحى ليكفوناكم لا تغزوكم فارس ، ولا تطمعون فى أن تقدموا لهم ، فإن كان عددكم كثر فلا يغرنكم كثرته ، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا قوتاً إلى خصبكم ، وأكرمنا وجوهكم ، وكسوناكم وملّكنا عليكم ملكاً يرفق بكم »

ورد المغيرة على يزدجرد فقال « أيها الملك هؤلاء رءوس العرب ووجوههم ، وهم أشراف يستحيون من الأشراف ، وإنما يكرم الأشراف ويُعظِم حقهم الأشراف ، وليس كل ما أُرسلوا به قالوه ، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عنه ، فجاوبنى لأكون الذى أبلغك وهم يشهدون على ذلك لى ، فأما ما ذكرت من سوء الحال فهى على ما وصفت وأشد . . . » ، ثم أنهى المغيرة حديثه قائلا « اختر إن شئت الجزية ، وإن شئت السيف ، أو تُسلم فتنْجى نفسك » ، فقال له يزدجرد غاضباً « لولا أن الرسل لا تُقتل لقتلتكم ، لا شىء لكم عندى » ، ثم أمر بمن جاءه بوقر من تراب فقال « احملوه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن ، إرجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أنى مُرسل إليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه فى خندق القادسية ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم بأشد مما نالكم من سابور » .

وتقدم عاصم بن عمرو روجه الكلام إلى يزدجرد « أنا أشرفهم . . . أنا سيد هؤلاء » ، ثم حمل التراب حتى دخل القادسية ، ورآه سعد فقال « أبشروا ، فقد والله أعطانا الله مقاليد ملكهم » .

وعندما سمع رستم بما فعله يزدجرد غضب وخرج من عنده كئيباً ، لأن النجوم كانت قد دلته أن الذين يخرجون من المدائن بترابها إنما يخرجون بأرض فارس معهم ، وبعث رستم برجل فى أثر الوفد العربى ، وقال له « إن أدرك التراب فردَّه تداركنا أمرنا ، وان ذهبوا به إلى أميرهم غلبونا على أرضنا » .

وعاد الرجل دون أن يلحق بالوفد ، فازداد رستم غماً وغضباً ، واستهجن ما فعله يزدجرد .

رابعاً . . كان رستم يقوم باستطلاع شخصى لمعسكر المسلمين فى القادسية فرآه زهرة بن الحوية[1] ، وكلاهما لا يعرف الآخر ، فعرض رستم أن يصالح المسلمين ، وأن يجعل لهم جعلا على أن ينصرفوا عنه ، وقال لزهرة « أنتم جيراننا ، وقد كانت طائفة منكم فى سلطاننا[2] ، فكنا نحسن جوارهم ، ونكف الأذى عنهم ، ونوليهم المرافق الكثيرة ، ونحفظهم فى أهل باديتهم ، فنرعيهم مراعينا ، ونميرهم من بلادنا ، ولا نمنعهم من التجارة فى شىء من أرضنا ، وقد كان لهم فى ذلك معاش » .

فقال زهرة « صدقت ، وقد كان ما تذكر ، وليس أمرنا أمر أولئك ، ولا طلبتنا طلبتهم ، إنا لم نأتكم لطلب الدنيا ، إنما طلبتنا وهمتنا الآخرة ، كنا كما ذكرت يدين لكم من ورد عليكم منا ، ويضرع إليكم بطلب ما فى أيديكم ، ثم بعث الله تبارك وتعالى إلينا رسولا ، فدعانا إلى ربه فأجبناه »

وسأل رستم زهرة عن الإسلام ، فأجابه ، فقال له رستم « أرأيت لو أنى رضيت بهذا الأمر وأجبتكم إليه ومعى قومى كيف يكون أمركم ؟ أترجعون ؟ » فأجابه زهرة « أى والله لا نقرب بلادكم أبداً إلا فى تجارة أو حاجة » .

هكذا يكون رستم — خوفاً من لقاء العرب وخشية الهزيمة —

---

(١) ذكر الواقدى فى فتوح الشام أن اسمه زهرة بن جويرة
كتبنا ملخصاً عن حياته خلال الحديث عن معركة المدائن

(٢) يقصد المناذرة فى الحيرة والقبائل المجاورة فى البحرين وعمان التى كانت تخضع للفرس

قد فكر فى أن يدخل الإسلام هو وقومه حتى يعود العرب إلى بلادهم دون قتاله ، ولكن كيف كان له ذلك وأصحابه قد أنفوا من الاستسلام للمسلمين (١).

موقف الخليفة عمر

كان الخليفة عمر بحكم وظيفته يتولى القيادة العامة لجيوش المسلمين .

ورغم أنه كان يتولى شئون الدولة والجيش من عاصمة الدولة فى المدينة ، إلا أنه عاش مع الجيش العربى فى العراق حياته وظروفه ، وكان دائماً فى الصورة بالنسبة للموقف هناك ، إذ كانت أوامره إلى سعد تنص على أن يكتب إليه فى كل موقف ، حتى يعالج الأمر معه « أكتب إلىّ بجميع أحوالكم وتفاصيلها ، وكيف تنزلون ، وأين يكون منكم عدوكم ، وأجعلنى بكتبك إلىّ كأنى أنظر إليكم ، واجعلنى من أمركم على الجليّة » .

وكتب سعد إلى عمر وهو فى شراف بما أفضى به المثنى من نصح حمله إليه أخوه المعنى ، فوافق عمر على ما أشار به المثنى ومدحه .

وكتب عمر إلى سعد وأمره بالتحرك إلى القادسية ، وأن يكون بين الحجر والمدر ، وأن يأخذ الطرق والمسالك على فارس ، وقال له « لا يهولنك كثرة عَددهم وعُددهم ، فإنهم قوم خدعة مكرة ، وإن أنتم صبرتم وأحسنتم ونويتم الأمانة رجوت أن تُنصروا عليهم ، ثم لم يجتمع شملهم أبداً ، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم ، وإن كانت الأخرى فأرجعوا إلى ماورائكم حتى تصلوا إلى الحجر فإنكم عليه أجرأ ، وإنهم عنه أجبن وبه أجهل ، حتى يأتى الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرّة » .

ومن هذه الرسالة يتضح أن عمر :

---

(١) الطبرى جـ ٣ ص ٣٢

١ — يهتم بالكيف دون الكم أى بمعنويات الجند دون عددهم (١) .

٢ — يدعو جنده إلى الإيمان العميق الكامل بنصر الله وعونه .

٣ — يشجع الجند على الصبر فى القتال وتحمل مشاق المعركة .

٤ — يقر خطة الانسحاب إذا اضطُر إليها المسلمون .

٥ — ينصح بالاستعداد لهجوم مضاد بعد الانسحاب حتى يتم النصر .

وظل عمر فى المدينة يدعو الناس إلى اللحاق بسعد فى القادسية ، حتى يحقق أكبر حشد عسكرى فى مواجهة جيوش الفرس ، وأمر عمر بسحب بعض قوات من الشام وإلحاقها بقوات القادسية .

وكان عمر يعيش مع القوات ويشارك فى وضع الخطط والتحركات ، ومن ذلك مثلا قوله لسعد « إذا بلغت القادسية ، والقادسية باب فارس فى الجاهلية ، وهى أجمع تلك الأبواب لمادتهم ، وهو منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر وأنهار ممتنعة ، فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر » . . وقوله له أيضاً « إذا كان يوم كذا فارتحل بالناس حتى تنزل فيما بين عذيب الهجانات وعذيب القواديس ، وشرِّق بالناس وغرِّب بهم » . . وقوله « إن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن فإنه خرابها إن شاء الله ، وإنه قد أُلقى فى روعى أنكم ستهزمونهم ، فلا تشكنّ فى ذلك » .

إن الخطط التى شملتها كتب عمر إلى سعد ، تؤكد أنه كان يضعها بعد دراسة عميقة وفهم واع لظروف المعركة . . . وكان عمر يبعث إلى الجند

---

(١) كانت النظرية السائدة فى الحروب قبل الاسلام الاعتماد على العدد أى الكم دون الفرد أى الكيف ، فجاء الاسلام بنظرية الكيف فاهتم بالفرد المقاتل معنوياً ، وجعله فى المقام الأول ، وما زالت هذه النظرية سائدة إلى اليوم

والقادة يشجعهم ويقوى فى قلوبهم الايمان ويذكرهم بمفاخرهم ومفاخر قومهم ... كان يعيش فى المدينة ومشاعره كلها معهم فى أرض المعركة ، كأنه حاضر سائر فى خطاهم ، مشفق عليهم من عـــدوهم شريك لهم : فى سرائهم وضرائهم ، حريص على نصرهم .

التحرك إلى القادسية

تحرك سعد بقواته بعد أن تم تجمعها فى شراف متجهاً إلى القادسية .

وقبل التحرك قسَّم جنده إلى جماعات (١) وجعل على كل جماعة عريفاً ، ثم عين على كل قوة أميرها ، وجعل أربعمائة وألف ممـا حاربوا مع رسول الله على المقدمة والمجنبتين .

ووضع خطة التحرك على مرحلتين ، تنتهى المرحـلة الأولى عند العُـذَيب(٢) حيث يقيم الجند فترة وجيزة ، يبدأون بعدها المرحلة الثانية إلى القادسية(٣) .

وعند الوصول إلى العذيب ، وجدها المسلمون ذات حصون متينة وبروج عالية ، فتقدموا يريدون اقتحامها ، إلا أنهم وجدوها خالية قد فرَّ جندها إلى القادسية ، فغنموا منها رماحاً ونشاباً وأسفاطاً .

ومن العذيب تحركت داوريات الاستطلاع والقتال ، فكانت تغير على ما حولها ، تنشر الرعب فى نفوس الناس وتعود بالغنائم والأسرى ، وقد أسرت هذه الداوريات إبنة مرزبان الحيرة ومعها ثلاثون إمرأة من الدهاقين ومائة من التوابع ومغانم عظيمة القيمة .

---

(١) جعل كل عشرة رجال جماعة

(٢) ماء بينه وبين القادسية أربعة أميال

(٣) موضع بينه وبين الكوفة خمسة عشر فرسخاً وبينه وبين العذيب أربعة أميال

وقبل بدء المرحلة الثانية إلى القادسية ، حصَّن سعد العذيب ، وترك بها كثير من أُسر العرب ، تقوم على حمايتها فرقة يقودها غالب بن عبد الله الليثى .

ووصلت القوات العربية إلى القادسية ، ووزع سعد القوات ، وأمر داورياته فنشطت فى أعمال الاستكشاف والقتال فيما بين الحـــيرة وكسكر والأنبار .

وهادن سعد أهل الحيرة ، وسكنت ثورة أهل العراق بالمسلمين .

وبعد شهر وصلت قوات الفرس، واتخذت مواقعها فى مواجهة عسكر المسلمين وأصبح الموقف معداً لبدء المعركة .

مرض سعد

قبل أن يبدأ القتال فوجىء المسلمون بمرض أصاب سعداً فقد ظهرت فى جسمه دمامل كثيرة ، أعجزته عن كل حركة[1] ، فلا يستطيع أن يركب أو يجلس ، وإنما ألزمته بالبقاء مكباً على وجهه فى صدره وسادة يعتمد عليها .

وعندما بدأ القتال ظل سعد فى مكانه يشرف على الناس دون أن يشاركهم القتال وكان يكتب أوامره فى رقاع يُلقى بها إلى خليفته خالد ابن عُرْفُطة ، فيبلغها ويشرف على تنفيذها ، وبرم بعض المسلمين بسعد ، وظنوا أن مرضه هذا خوراً وضعف عزيمة فأنشد بعضهم :

نقاتل حتى أنزل الله نصره ... وسعد بباب القادسية يُعصم

فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ... ونسوة سعد ليس فيهم أَيِّم

(١) الطبرى ج ٣ ص ٧٩

وغضب سعد وطلب ممن حوله أن يحملوه إلى حيث يشرف على الناس « احملونى واشرفوا بى على الناس » وأدرك الناس حقيقة مرضه فعذروه وأعلنوا طاعتهم وولائهم ، فخاطبهم قائلا « أما والله لولا أن عدوكم بحضرتكم لجعلتكم نكالا لغيركم ، والله لا يعود أحد بعدها يحبس المسلمين عن عدوهم ويشاغلهم وهم بإزائهم إلا سننت به سُنَّة يؤخذ بها من بعدى » ثم بعث إلى قادة الفرق يقول « إنى قد استخلفت عليكم خالد بن عرفط وليس يمنعنى أن أكون مكانه إلا وجعى الذى يعودنى ، إنى مكبٌّ على وجهى وشخصى لكم باد ، فاسمعوا له وأطيعوا ، فإنه إنما يأمركم بأمرى »

وخطب سعد فى جنده فقال « إن الله هو الحق لا شريك له فى الملك » وليس لقوله خلف ، قال الله جل ثناؤه « ولقد كتبنا فى الزَّبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » ، إن هذا ميراثكم وموعود ربكم ، وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج ، فأنتم تطعمون منها ، وتأكلون منها ، وتقتلون أهلها وتجبونهم وتسبونهم إلى هذا اليوم بما نال أصحاب الأيام منكم ، وقد جاءكم هذا الجمع ، وأنتم وجوه العرب وخيار كل قبيلة وعزٌّ من ورائكم ، فإن تزهدوا فى الدنيا وترغبوا فى الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة ، ولا يقرب ذلك أحداً إلى أجله ، وإن تفشلوا وتهنوا وتضعفوا تذهب ريحكم وتُوبقوا آخرتكم »

وتأثر عاصم بن عمرو بقول سعد فقام فى الناس خطيباً « هذه بلاد قد أحلَّ الله لكم أهلها ، وأنتم تنالون منهم منذ ثلاث سنين مالا ينالون منكم ، وأنتم الأعلون والله معكم ، إن صبرتم وصدقتموهم الضرب والطعن ، فلكم أموالهم ونساؤهم وأبناؤهم وبلادهم ، وإن خُرتم وفشلتم ، والله لكم من من ذلك جاز وحافظ ، لم يُبق هذا الجمع منكم باقية مخافة أن تعودوا عليهم بعائدة هلاك ، الله ! الله ! اذكروا الأيام وما منحكم الله فيها ، ألا ترون أن

الأرض وراءكم بسابس قفار ليس فيها خمر ولا وَزَرٌ يُعقل اليه ولا يُمتنع به ! اجعلوا همّكم الآخرة » .

الإعداد المعنوى

إهتم الجانب الإسلامى بالمعنويات أكثر من اهتمامه بعـــدد الجند المقاتلين ، أى اهتم بقـدرة الفرد وإمكانياته وبروحه المعنوية ، وبجانب الرسائل المتعددة التى بعث بها الخليفة عمر بن الخطاب ، فإن الواجب الأول فى هذا المضمار يقع — دون ريب — على عاتق قائد القوات فى الميدان ، إلا أن القائد كان قد أقعده المرض ، فأسند هذه المهمة — إدراكا منه لأهميتها وخطورتها — إلى جماعة من الناس من أولى الرأى كالمغيرة وعاصم بن عمرو وطليحة وعمرو بن معـدى كرب ، ومن الشعراء مثل الشماخ والحطيئة وعَبَـدة بن الطبيب ، وجمع هؤلاء وغيرهم وقال لهم « انطلقوا فقوموا فى الناس بما يحق عليكم ، ويحق عليهم ، عند مواطن البأس ، فأنتم من العرب بالمـكان الذى أنتم به ، أنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم ، وأنتم سادتهم ، فسيروا فى النـاس فذكّروهم وحرّضوهم على القتال »(١) .

وانطلق هؤلاء بين الصفوف يحدثون الجند ويخاطبونهم ويقولون الشعر ويثيرون المشاعر والعواطف والقلوب . . . قال الهذَيل الأسدى « يا معشر معدّ ! إجعلوا حصونكم السيوف ، وكونوا عليها كأسود الأجم ، وتربّدوا لهم تربُّد النمور ، وأدرعوا العَجاج ، وثقوا بالله وغضّوا الأبصار ، فإذا كلّت السيوف فأرسلوا عليها الجنادل فإنها يُؤذن لها فيما لا يؤذن للحديد فيه » ...

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٤٥

وقال عاصم بن عمرو « يا معاشر العرب ، إنكم أعيان العرب ، وقد صمدتم لأعيان العجم ، وإنما تخاطرون بالجنة ويخاطرون بالدنيا ، فلا يكونُن على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم ، لا تُحدثوا اليوم أمراً تكونون به شيناً على العرب غداً » .

ولم يقل اهتمام رستم بروح جنوده المعنوية عن اهتمام العرب بها ، فقد عبر رستم بجنده النهر ، ثم جهّز قواته وصفّها ، ولبس درعه ومغفره ، وحمل سلاحه وأمر بفرسه فأسرج ثم ركبه ومرّ بين الصفوف يلقى الأوامر ويثير الحماس ويقوى العزائم ، وخطب فى جنده فقال « غداً ندقهم دقاً » ، وأصدر تعليماته إلى القادة على جميع المستويات ليبثّوا وسط الجند يحرضونهم على القتال ، دفاعاً عن بلادهم وأرضهم وأهلهم وتاريخهم ، وصداً لهؤلاء الذين ركبهم الغرور وداعبتهم الآمال الكاذبة ، فجاءوا يحتلون أرض الفرس العريقة ذات التاريخ والأمجاد ، ونفّذ قادته تعليماته وخاطبوا جنودهم بما خاطبهم به ، وأثاروا فيهم روح القتال وحب الوطن والدفاع عنه .

وهكذا استعد الفريقان ... كماً وكيفاً ... قوة مادية وقوة معنوية .

يوم أرماث

كانت خطة العرب هى الهجوم المفاجىء على قوات الفرس .

وأرسل سعد فى رجاله « إذا سمعتم التكبير فشدّوا شسوع نعالكم ، فإذا كبرّت الثانية فتهيئوا ، فإذا كبرت الثالثة فشدوا النواجز على الأضراس واحملوا » .

ثم أمر بقراءة سورة الجهاد ، فقرئت فى كل الكتائب والمواقع ... وبعد انتهائها كبّر سعد وكبّر ورائه الذين يلونه ، ثم كبّر الثانية ، وبعد أن كبّر الثالثة هاجت النفوس للقتال ، واشتدت الرغبة للنزال ، وخرج المسلمون من مواقعهم يبارزون الفرس .

كان أول الخارجين من جيش المسلمين غالب بن عبد الله الأسدى ...
خرج وهو ينشد :

قد علمتْ واردة المسائح ذات اللبّان والبَنان الواضح
أنى سِمام البطل المُشايح وفارج الأمر المهم الفادح

وخرج إليه هرمز فأسره غالب وأخذه إلى سعد ، ثم عاد إلى
نفس المعركة .

وخرج أيضاً عاصم بن عمرو وهو يقول :

قد علمتْ بيضاء صفراء اللبب مثل اللُّجين إذ تغشّاه الذهب
أنى أمرؤ لا من يعيبه السبب مثلى على مثلك يغريه العتب

وأسر عاصم رجلا معه بغل ، واستطاع الرجل الفرار ، واستاق عاصم
البغل ، فإذا فى الرحل طعام رستم ، وتبين أن الرجل الفار هو خبازه ،
فسلّم عاصم الطعام لسعد ، فمنحه للناس .

وعندما سمع الناس تكبيرة سعد الرابعة ، هاجموا مواقع الفرس فى قوة
وعنف ، يتمثلان فيما فعله عمرو بن معدى كرب ، إذ كان يحرض الناس
بين الصفوف ، فخرج إليه رجل من الأعداء ، ورمى بنشابة أصابت درعه
فحمل عليه عمرو ، وقبض عليه ، وكسر عنقه ، وذبحه بسيفه ثم ألقاه وهو
يقول للناس « هكذا فاصنعوا بهم »

وكان جناح بنى بجيلة يمثل خطورة كبيرة على الفرس ، فوجهوا إليه
ثلاثة عشر فيلا ، ففرت خيلهم وفزع الرجال ، وكادت الفيلة أن تبيدهم ،
فوجّه سعد بنى أسد ليعاونوهم قائلا « ذبُّوا عن بجيلة ومن حولها من الناس »
وخاطبهم طليحة قائلا « يا عشيرتاه ، لو علم سعد أن أحداً أحق بإغاثة
هؤلاء منكم استغاثهم ، ابتدئوهم الشدّة ، وأقدموا عليهم إقدام الليوث
الحربة ، فإنما سميتم أسداً لتفعلوا فعله ، شُدُّوا ولا تصدوا ، وكرُّوا ولا
تفروا ، شُدوا عليهم باسم الله »

وتقدم بنو أسد ، وقاتلوا فى عنف وبطولة ، حتى حبسوا الفيلة . . . ولكنها عادت مرة أخرى تحمل على المسلمين ، ورأى سعد خطورتها فبعث إلى عاصم بن عمرو « يا معشر بنى تميم ، ألستم أصحاب الإبل والخيل؟ أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة ؟ » وأمر عاصم رجاله أن يذبوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل ، وأن يستدبروا الفيلة ويقطعوا وضنها ، ونفذ رجاله أوامره ، فارتفع عواء الفيلة ، وألقت بركبانها فقتلوا .

وبانتهاء نهار اليوم الأول رجع كل من الطرفين إلى مواقعه إنتظاراً للقاء جديد مع الفجر الجديد .

وأطلق على هذا اليوم إسم أرماث ، ويتميز القتال فيه بعدة أمور هامة :

أولا ... خاض الجيشان المعركة وهما فى حالة نفسية عالية . . . كل منهما ينشد النصر ويعرف أن فيه إبقاء على كيانه ووجوده ، بل إبقاء على كيان أمة بأجمعها تقف بعيداً عن المعركة تتبع أحداثها وتنتظر نتائجها .

ثانياً ... كان القتال عنيفاً من الجانبين حتى قيل إن بنى أسد وحدها فقدت أكثر من خمسمائة ، كما أن الفرس فقدوا عدداً كبيراً من رجالهم ومقاتليهم .

ثالثاً ... أثبت قتال اليوم الأول أهمية وجود القائد فى المعركة ، فبالرغم من مرض سعد لم ينس واجبه ولم تفته أهمية إشرافه على المعركة ، فاتخذ لنفسه موقعاً فى قُدَيس ، ولم يمنعه المرض من مراقبة الأمور فكان يرى مواضع الضعف ويعمل على إغاثتها .

وحدث أن كانت سلمى زوج سعد — وهى زوج المثنى من

قبل — بجانب سعد فلما رأت الفرس يشتدون على أسد صاحت « واعثيناه ! ولامثنى للخيل اليوم »(١) ، فلطمها سعد وقال « أين المثنى من هذه الكتيبة التى تدور عليها الرحى » ، فقالت « أغيرةً وجبناً » ، فأجابها سعد « والله لا يعذرنى اليوم أحد إن لم تعذرينى وأنت ترين ما بى » .

رابعاً ... يبدو واضحاً أن المسلمين كانوا خلال القتال يذكرون وعد الله لهم بالنصر ، فلم يتخل واحد منهم عن إيمانه بالله طوال المعركة ، حتى أن طليحة حين خاطب قومه قال « شدُّوا باسم الله » ، وكأنه يحس أن الله تبارك وتعالى يمدهم بالقوة والعون لينتصروا على أعداء الإسلام .

خامساً ... أهمية الثقة المتبادلة بين القائد وجنده . . . فإن من أخطر الأمور فى المعركة فقدان هذه الثقة ، فالجند دائماً يتشبهون بقادتهم ويسلكون مسلكهم ، والقادة دائماً مرآة لجندهم يرى فيها الجنود صورة واضحة لما يجب أن يكونوا عليه ، ولقد حرص سعد على وجود هذه الثقة ، فلم يتمالك نفسه حين علم أن بعض الجند يتهمه بالهروب من المعركة بحجة المرض ، فطلب أن يُحمل إلى جنده حتى يشاهدوه بأنفسهم ، فلا يفقد ثقتهم فيه ولا يفقدون هم ثقة القائد فيهم .

يوم أغواث

عندما بدأ القتال فى اليوم الثانى حدث أمران هامان ...

الأول ... افتقد الفرس الفيلة فلم تشترك فى قتال هذا اليوم ، وإنما قضته

فى إصلاح توابيتها التى تكسّرت ، وكان لغيابها أثر كبير ، فقد زال خطرها واندفع المسلمون فى شدّة ، وإزدادوا إقداماً ، فى الوقت الذى وهنت فيه قوات الفرس ، وضعف قتالهم ، وتكبدوا خسائر فادحة ، وقيل إن رستم كاد يقتل خلال القتال .

الثانى... وصلت إمدادات جديدة إلى المسلمين ، فقد أمر عمر بعد انتصار المسلمين فى دمشق وفحل ، بأن يسير هاشم بن عتبة فى ستة آلاف إلى العراق ، وسبق القعقاع المدد على رأس ألف منه إلى مواقع المسلمين ، حيث أنبأ سعداً بخبر المدد الذى هو فى الطريق إليه ، وكان القعقاع قد قسّم قواته إلى عشر فرق ، وأمرها بالتقدم بحيث تكون كل منها على مدى البصر بالنسبة للأخرى وتقدّم هو مع المقدمة .

عندما بدأ القتال كان القعقاع قد وصل إلى أرض المعركة ، فخاض غمارها وشارك فيها ، فتقدم الصفوف ونادى فى المقاتلين « اصنعوا كما أصنع » ، ثم صرخ فى وجه الفرس « من يبارز ؟ » فخرج إليه ذو الحاجب ، وعرّفه بنفسه قائلا « أنا بهمن جاذويه » ، فلما عرفه القعقاع قال بصوت مرتفع « يالثارات أبى عبيد وسليط وأصحاب يوم الجسر » ، وهجم عليه وقتله ، ثم خرج له فارسان مشهوران من رجال فارس الصناديد ، راغبين فى الثأر لبهمن ، فلقيهما القعقاع ومعه الحارث بن ظبيان بن الحارث ، فقتلا الفارسين ، ونادى القعقاع فى المسلمين « يامعشر المسلمين باشروهم بالسيوف فإنما يُحصد الناس بها » وقاتل القعقاع بشجاعة وجرأة ، حتى قيل إنه قتل وحده ثلاثين رجلا .

واشترك فى القتال فى هذا اليوم أبو محجن الثقفى ، وهو واحد من فرسان العرب المشهود لهم ، كان مُقيّداً وقت المعركة ، إذ أنه كان مولعاً

بالخمر فى الجاهلية ثم استمر مولعاً بها فى الإسلام[١]، فنفاه عمر إلى القادسية وقت المعركة ، فسجنه سعد[٢] ، وسمع وهو فى سجنه صليل السيوف وضجيج المعركة وصهيل الجياد فهاجت نفسه إلى القتال فأخذ ينشد :

كفى حزناً أن ترتوى الخيل بالقنا وأترك مشدوداً علىَّ وَثـَاقيا
إذا قمت عنّانى الحديد وأُغلقت مصاريع دونى قد تُصم المناديا
وقد كنت ذا مال كثير وإخوة فقد تركونى واحداً لا أخا ليا
وقد شف جسمى أننى كل شارق أعالج كبلا مصمتاً قد برانيا
فلله درى يوم أترك موثقاً ويذهل عنى أسرتى ورجاليا
حبسنا عن الحرب العوان وقد بدت وأعمال غيرى يوم ذاك العواليا
فلله عهد لا أخيس بعهده إذا فُرجت ألا أزور الحوانيا

وسمعته سلمى زوج سعد ، فرقت له ، وقالت « إنى استخرت الله ورضيت بعهدك » ، وأطلقته ،فركب البلقاء فرس سعد ، وانطلق إلى ميدان المعركة ، يقصف الأعداء بسيفه ويقضى عليهم ، وشاهده سعد فقال « والله لولا محبس أبى محجن لقلت هذا أبو محجن ، وهذه البلقاء » وعاد أبو محجن بعد القتال إلى سجنه ، فوضعته سلمى فى القيد ، ووصل سعد ، فروت له سلمى ما حدث ، فأطلق سراح أبى محجن ، وهو يقول « إذهب فما أنا مؤاخذك بشىء تقوله حتى تفعله » .

يقول بعض المؤرخين أن المسلمين جاءوا ببعض الإبل وبرقعوها

---

(١) قال أبو محجن فى الخمر :

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمة تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفننى فى الفـلاة لأننى أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

(٢) قيل فى بعض المراجع أن سبب حبسه يرجع إلى أنه تندر بمرض سعد عند القتال وكان أحد المعرضين به الذين اتهموه بالخوف من القتال وادعاء المرض

ودفعوها إلى صفوف الفرس كأنها فيلة ، فخافتها خيل الفرس ، وولّت هاربة ، واستغل المسلمون حالة الإضطراب الناتجة فى صفوف الفرس ، فأعملوا فيهم السيوف قتلا وبتراً .

وفى خلال القتال اندفع بعض المسلمين بحثاً عن رستم لقتله ، وعثر عليه جندى عربى ، وكاد يقتله ، لولا أن فارساً من رجاله تعرض للضربة القاضية ، فمات ، وأنقذ رستم .

وبذل المسلمون جهداً كبيراً ليوقعوا الهزيمة بالعدو ، ولهذا استمر قتالهم حتى منتصف الليل ، وكادوا يظفرون به لولا كثرة عدده وشدة مقاومته ، وقد قُدر عدد القتلى من الفرس فى هذا اليوم بعشرة آلاف .

ويتميز قتال هذا اليوم بالآتى :

أولا ... أوضح أهمية الإمداد فى المعركة ، فإن جيش المسلمين الذى كان يخوض غمارها كان يقل عدداً وعدة عن جيش أعدائه ، وكان لابد من إمداد سريع له حتى يكون على مستوى المسئولية كماً وكيفاً . ومن أجل هذا واصل الخليفة عمر جهده لاستمرار عملية الإمداد ، وقد وصلت قوات الشام إلى العراق أثناء القتال وشارك فيه القعقاع ببطولته النادرة ...

وكان لعملية الإمداد أثر معنوى على الجانبين ، فالجانب العربى نشط جنده وازداد حماسهم ، بينما الجانب الفارسى ضعفت عنده روح القتال ، لأنه ظن أن المدد المقبل لا آخر له ، وأن المقاتلين العرب يزداد عددهم بينما يفقد هو جنده فى المعركة بالآلاف .

ثانيا ... أبدى المسلمون شجاعة نادرة وبطولة لا مثيل لها ، وظهرت بطولة القعقاع الذى قتل ذا الحاجب بهمن جاذويه وقتل معه ثلاثين فارسياً ...

وظهرت أيضاً بطولة أبى محجن الثقفى ، ثم بطولة هؤلاء الذين سعوا إلى مكان رستم رغبة فى القضاء عليه ، ثم هذه البطولة النادرة التى صممت على نهو المعركة فى هـذا اليوم ، فقصفت الأعداء بالسيوف وهاجمتهم هجوماً قاسياً كاد يصل بالمعركة إلى نهايتها لولا كثرة العدو وكثافته .

ثالثاً ... شاركت المرأة المسلمة فى قتال هذا اليوم ، فقد بلغ عدد القتلى من المسلمين ألفان ... وقامت المرأة المسلمة بمهمة الدفن ، كما قامت بدور كبير بالنسبة للجرحى فقد نقلتهم إلى حيث يُعنى بهم ، واهتمت المرأة المسلمة بالجرحى فعنيت بهم ومرّضتهم حتى أصبحوا صالحين للعودة مرة أخرى إلى الميدان ، وكان لها بذلك فضل كبير يذكر ... ولقد أسهمت سلمى زوج سعد فى القتال بإفراجها عن أبى محجن ، إذ آمنت أنه طاقة يجب استغلالها ، وأن حرمانه من المشاركة فى القتال خطأ كبير ، فتحملت وحدها مسئولية الإفراج عنه ، وأعطته فرس زوجها دون علمه ، لأنها كانت تدرك أهمية وجود رجل مثله فى المعركة الدائرة .

يوم عماس

هو اليوم الثالث من أيام المعركة .

وقبل طلوع شمس هذا اليوم وصل هاشم بن عتبه بجنده إلى القادسية ، فلما رآه الناس كبّروا وارتفعت معنوياتهم وزادت ثقتهم فى هزيمة العدو وإحراز النصر ، وكان قيس بن هبيرة أحد القادمين مع هاشم .

كان الفرس قد أصلحوا توابيت الفيلة وأعدّوها لتخوض معهم المعركة فى هذا اليوم ، وهم مؤمنون أنها ستفتك بالمسلمين ، وستكون عوناً لهم تمهد

طريق النصر أمامهم ، وعين الفرس فرساناً حول الفيلة يحمونها من المسلمين ، وكان هذا الإجراء وبالاً عليهم ، لأنهم تجاهلوا طبيعة الفيلة ، ونسوا أنها لا تثور إذا كانت محاطة بأصحابها ، ولهذا فإن دورها فى المعركة كان سلبياً ، لأنها لم تفرق صفوف المسلمين ، بل كانت تضرب الطرفين دون تميز بين عربى وفارسى .

وظل القتال فى هذا اليوم سجالا ، فالعرب يتقدمون تارة ، والفرس يتقدمون تارة أخرى ، ووصلت إمدادات جديدة إلى الفرس من المدائن ، فاشتد ضغطهم واشتد فى ذات الوقت صبر المسلمين وجلدهم .

وفجأة تغير ميزان المعركة لصالح الفرس ، فقد تحولت الفيلة إلى سلاح خطير فى أيديهم ، فأحسنوا توجيهها ، فهاجمت المسلمين وفرقت جموعهم وفتكت بهم . . وأدرك سعد خطورتها وخاصة الأجرب والأبيض وهما فيلان ضخمان كانا أشد الفيلة ضراوة ، وكانا بمثابة القيادة لبقية الفيلة التى كانت تتبعها .

وأمر سعد فجاءوه ببعض الأسرى من الفرس ، فسألهم عن مقاتل الفيلة ، فقالوا إنها مشافرها وعيونها ، فأرسل إلى القعقاع وعاصم بن عمرو يقول « أكفيانى الأبيض » ، وإلى حمال والربيل من بنى أسد يقول « أكفيانى الفيل الأجرب » .

وتقدم القعقاع وعاصم ووضعا رمحيهما فى عينى الفيل الأبيض ، فخفض رأسه وطرح سائسه ، ودلى مشفره ، فضربه القعقاع بسيفه .

وفقأ حمال والربيل إحدى عينى الفيل الأجرب وضربا مشفره ، فتراجع الفيل إلى صفوف الفرس ، فنخسوه فعاد هائجاً إلى صفوف المسلمين ، فوخزوه بدورهم ، فعاد مرة أخرى إلى صفوف الفرس ، وظل بين المسلمين والفرس ذاهباً عائداً ، حتى قفز فى النهر ، فأتبعته الفيلة كلها ، وقد

ألقت بركبانها عن ظهورها ، وتخطت المياه(١) وولت مدبرة .

وهكذا نجح سعد فى أن ينتزع من الميدان أخطر سلاح كان يستخدمه الفرس ، وأصبح القتال بغير هذا السلاح وجهاً لوجه يعتمد على البطولة والقوة والجرأة والشجاعة ، واشتد القتال عنفاً ، حتى إذا ما أقبل الليل هدأ وطيسه .

ليلة الهرير

هى الليلة التى تلت نهار عماس(٢).

وتم الاشتباك فيها دون خطة سابقة ، فقد وجد سعد فى أسفل مواقع المسلمين مخاضة ، خاف أن يستغلها العدو فى الغدر بقواته أثناء الليل ، فأرسل طليحـــة وعمراً على رأس جماعة وقال لها « إن وجدتما القوم قد سبقوكما إليها فانزلا بحيالهم ، وإن لم تجداهم علموا بها ، فأقيموا حتى يأتيكما أمرى » .

وعند المخاضة لم يجدا أحداً من الفرس ، فسوّلت لها نفساهما أن يخوضاها معاً ، وأن يأتيا العجم من الخلف . . وكانت خطة جريئة غير متوقعة حققت مفاجأة كبيرة . . .

أخذ طليحة مكانه ، ثم كبّر ثلاث تكبيرات ، هلعت لها قلوب الفرس وقلوب المسلمين فى وقت واحد . . ظن الأولون أن المسلمين قد قرروا الغدر بهم ومفاجأتهم فى مواقعهم ، وظن الآخرون أن جيش الفرس قد فتك بجماعة طليحة ، وأنه يكبّر طلباً للمساعدة والمعاونة .

---

(١) عبرت الفيلة العتيق

(٢) سميت الليلة التى تلت نهار أرماث ليلة الهدأة
وسميت الليلة التى تلت نهار أغواث ليلة السواد.

وتقدم عمرو ببعض رجاله ، وهاجم جماعة من الفرس ، فلم تتردد فى الاستعانة بجند آخر ، ورأى القعقاع أن يتصرف بسرعة حتى لا تضيع فرصة النصر ، فلم يستأذن سعداً وحرك جماعته فى اتجاه العدو .

وشاهد سعد ما وقع وهو فى مكانه بقديس ، ولم يستطع أن يمنع الاشتباك ، ولم يملك وقتها إلا أن يتجه بكل مشاعره وأحاسيسه إلى الله يسأله نصره الذى وعد به المجاهدين « اللهم إغفرها له (يقصد القعقاع) ، وانصره ، فقد أذنت له ، وإن لم يستأذن »

وجمع سعد رجاله وأمرهم بالهجوم فوراً بعد أن يسمعوا منه التكبيرة الثالثة ، ولكنه ما كاد يكبّر للمرة الأولى حتى تقدم المسلمون إلى حيث يدور القتال فى ثقة وأمل كبير فى إنهاء المعركة وإحراز النصر . . تقدمت أسد ، والنخع ، وبجيلة ، وكندة ، واندفعت كلها ، واستمر سعد فى تكبيره حتى لحق الناس بعضهم بعضاً .

وبدأت المعركة ، وارتفعت فى سكون الليل صيحات المحاربين وقعقعة السيوف ، وظل القتال طول الليل ، وسعد يقظان لا يغمض جفنه ، حتى انبلج الصبح وظهر نور الله وسمع سعد القعقاع ينشد :

نحن قتلنا معشراً وزائدا
أربعةً وخمسة وواحدا
نُحسب فوق اللبّد الأساودا
حتى إذا ماتوا دعوت جاهدا
الله ربى واحترزت عامدا

ولم يحاول الجند أن ينالوا قسطاً من الراحة ، بل رأوا أن يستمروا فى الدفع والقتال حتى تنتهى المعركة ، وشجعهم على ذلك القعقاع قائلا « إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم ، فأصبروا ساعة واحملوا ، فإن النصر

مع الصبر » واستمر القتال بين الفريقين حتى الظهر ، وتراجع الفيرزان والهرمزان فى المجنبتين ، فانكشف القلب ، فى الوقت الذى هبت فيه ريح عاصف ، أطارت طيارة رستم عن سريره ، فاستظل بحمل بغل كان ضمن عدة بغال قدمت عليه بمال ، وزحف القعقاع ومعه بعض رجاله إلى حيث رستم فلم يجدوه ، فاندفعوا ناحية النهر بحثاً عنه ، فى اللحظة التى شاهد فيها هلال بن علقمة أحد البغال فضربه ، وقطع حبال الحمل الذى كان رستم يختفى تحته ، فوقع عليه أحد العدلين فكسر فقاره ، ولم ينتبه هلال إلى وجود رستم الذى زحف ببطء ثم ألقى بنفسه فى النهر ، فلمحه هلال وعرفه ، وألقى بنفسه وراءه وأمسك به وأعاده إلى البر ثم ضربه بالسيف فى جبينه فقتله ، ثم وقف على سريره وصاح فى زهو « قتلت رستم ورب الكعبة » ، فالتف حوله الجند وظلوا يهللون ويكبرون .

وما أن بلغ مصرع رستم إلى جنده ، حتى وهنت قوتهم ، وضعفت روح القتال عندهم ، وانهدت معنوياتهم ، ودعاهم الجالينوس إلى عبور النهر على الردم ، ولكن الردم انهار بهم فى النهر ، فغرق منهم ثلاثون ألفاً ، مقترنين بالسلاسل .

ووقع علم الفرس الأكبر درفشكا بيان فى يد ضرار بن الخطاب ، ورجحت كفة المسلمين ، وانهزمت جيوش الفرس وولت الأدبار ، وتنبه سعد إلى أهمية المرحلة التالية من المعركة ، فأمر القعقاع وشرحبيل بمطاردة الفارين ، وتبعهما زهرة بن الحوية التميمى ، الذى أدرك الجالينوس وهو يحاول أن يجمع عدداً من الفارين ليشكل منهم قوة تقف فى وجه المطاردين ، فقتله ، كما قتل رجاله كل رجال الفرس الذين التقوا بهم .

وارتفعت معنويات المسلمين وزداد حماسهم ، حتى أن نساءهم وأطفالهم اندفعوا إلى ميدان المعركة ليأخذوا بحظهم من النصر الكبير ، وجاء فى بعض

الروايات أن أم كثير[١] قالت « شهدنا القادسية مع أزواجنا ، فلما أتانا أن قد فُرِغ من الناس شددنا علينا ثيابنا وأخذنا الهراوى ثم أتينا القتلى ، فما كان من المسلمين سقيناه ورفعناه ، وما كان من المشركين أجهزنا عليه ، وتَبِعنا الصبيان نُولِّيهم ذلك ونصرِّفهم به » .

بعد المعركة

بعد النصر الكبير الذى أحرزه المسلمون ضد قوات الفرس اجتمع رجال سعد حوله ، وتراكمت أمامهم الأسلاب والأموال ، وقسَّم سعد الفىء فى الناس ، فأعطى الفارس ستة آلاف والراجل الفين ، وزاد كل واحد من أهل البلاء خمسمائة ، وبعد أن حجز خمس الفىء للمدينة تبقى لديه الشىء الكثير ، فكتب إلى عمر يسأله ما يفعل ، فأشار عليه أن يعطى المسلمين الخمس ، وأن يعطى من لحق به من المسلمين الذين لم يشهدوا الموقعة[٢] ، وأن يوزع جزءاً على حملة القرآن .

وقال سعد لهلال بن علقمة الذى قتل رستم « جرِّده إلا ما شئت » ، فأخذ هلال كل ما وجده ، ما عدا قلنسوة رستم التى سقطت فى النهر ، ونال وحده سبعين ألفاً .

ونال زهرة بن الحوية كل ما وجده مع الجالينوس ، وكان كثيراً فاستكثره سعد ، وكتب إلى عمر الذى أمره بأن يُزيد فى عطائه ، قائلا « تعمد إلى مثل زهرة وقد صَلِى بمثل ما صلى به ، وقد بقى عليك من حربك ما بقى ، تفسد قلبه ، أمض له سلبه وفضّله على أصحابه عند عطائه بخمسمائه » .

---

(١) امرأة همام بن الحارث النخعى

(٢) روى الطبرى أن عدداً من جيش هاشم بن عتبه وصل بعد انتصار المسلمين وأيده فى ذلك كثير من المؤرخين

ومن طريف ما حدث خلال توزيع الفيء أن جاء عمرو بن معدي كرب وبشر بن ربيعة[١] إلى سعد، وطالباه بأن يكون لهما حظ مع حملة القرآن، فسألهما سعد «ما معكما من كتاب الله تعالى؟» فقال عمرو «أسلمت باليمن، ثم غزوت فشغلت عن حفظ القرآن»، وقال بشر «بسم الله الرحمن الرحيم»، فضحك القوم، ولم يجعل لهما سعد نصيباً من مال حملة القرآن، وأغضبهما قراره فقال عمرو:

إذا قُتلنا ولا يبكي لنا أحد — قالت قريش ألا تلك المقادير
نُعطى السويّة من طعن على نفذٍ — ولا سويّة إذ تعطى الدنانير

وقال بشر[٢]:

أنخت بباب القادسية ناقتي — وسعد بن وقاص عليّ أمير
وسعد أمير خيره دون شرّه — وخير أمير بالعراق جرير
تذكر هداك الله وقع سيوفنا — بباب قديس والمكر عسير
عشية ودّ القوم لو أن بعضهم — يعار جناحي طائر فيطير

وكتب سعد بما حدث إلى عمر، فكتب إليه عمر «اعطهما على بلائهما»، فأعطى سعد كلا منهما ألفي درهم.

أهمية الموقعة

كانت القادسية من أهم المعارك التي خاض المسلمون غمارها ضد أعدائهم. ومبعث أهميتها أن الفرس كانوا قد قرروا غزو بلاد العرب إذا كتب لهم النصر، فقال يزدجرد لرسول سعد «ارجعوا إلى صاحبكم فاعلموه أني

---

(١) كان الناس يعرفون عنهما أنهما محبان للمال حريصان عليه

(٢) لم يذكر البلاذري الأبيات التي قالها عمرو وذكر البيت الثاني من أبيات بشر كالآتي:
وسعد أمير شره دون خيره — طويل الشذى كابى الزناد قصير

مرسل إليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه فى خندق القادسية ، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم بأشد مما نالكم من سابور » ، وأعد الفرس قبل المعركة جيشاً كثيفاً كبير العدد ، وأمدوه بعدد كبير من الفيلة بقصد إحراز نصر سريع ضـــد المسلمين ، الذين خاضوا المعركة يداعبهم أمل الانتصار والقضاء على دولة الفرس وضمها للدولة الإسلامية . . . وهذا يعنى أن المعركة قد دارت بين طرفين يطمع كل منهما فى القضاء على الآخر وكسر شوكته حتى لا تقوم له قائمة .. كان الفرس يحرصون على وجودهم وهم أصحاب دولة لها تاريخ مجيد ، ويحرصون على القضاء على العرب المسلمين الذين جاءوهم من بلاد بعيدة وأحرزوا إنتصارات متتالية وهددوا الدولة وشكلوا خطراً جسيما عليها . . . والعرب كانوا يقاتلون من أجل مبدأ ، وعرضوا على الفرس الإسلام أو الجزية أو القتال ، وحينما اختار الفرس الحرب كان لابد للعرب من أن يؤكدوا قوتهم وبطولتهم ، فاستماتوا فى القتال ، وبذلوا من ذات أنفسهم ما يضمن لهم النصر . . ولا شك فى أن هزيمة أحد الطرفين كانت تعنى إنهياره تماماً ، ولهذا كان للمعركة طابع خاص زاد فى اهميتها .

ومبعث أهمية المعركة أيضاً أن الفرس استخدموا فيها سلاح الفيلة ، وهو سلاح خطير حقق استخدامه مفاجأة كبرى فى المعركة ، وكان له دور كبير إذ استطاع أن يلحق بكتائب المسلمين الخلل والخسائر الضخمة ، وكان لا بد للمسلمين من مواجهة هذا السلاح الذى لا يعرفون عنه شيئاً ولم يروه فى حياتهم ، ولم تكن لديهم وسائل يواجهونه بها فلجأوا إلى الشجاعة والإقدام ، وجعلوا البطولة تواجه هذا السلاح ، فتمكنت من الحد من خطورته بل جعلته وبالا على الفرس الذين اعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً ، فلما أفلت من أيديهم إنهارت معنوياتهم وفقدوا أهم أسلحة المعركة.

ومبعث أهمية المعركة أنهـــا أبرزت قيمة الســـلاح المعنوى

فى المعركة فقد دارت بين قوتين تميزت إحـــداهما بالضعف المعنوى فكانت تخشى الموت وتتوقع الهزيمة ، بينما الأخرى وهب رجالها أنفسهم لله وسعوا إلى الموت فى سبيله ، فالمعروف أن رستم قاد جيش الفرس وهو يعلم نتيجة المعركة مقدماً ، فقد كان موقناً أن جيشه سيهزم ، ودولته ستزول ، نتيجة لحديث النجوم ، وصوّر الهزيمة فى خطابه لأخيه البندوان « لا أرى هؤلاء القوم إلا سيظهرون علينا ، ويستولون على ما يلينا » ، ولهذا تباطأ فى الخروج وتردد فيه حتى هدده يزدجرد بأن يخرج هو بالجيش ... هذا فى الوقت الذى خاض فيه المسلمون المعركة وأرواحهم على أكفهم ، وحياتهم قد وُهبت لله تعالى ، يسعون إلى إحدى الحسنيين النصر العظيم أو الإستشهاد الكريم . . . لقد نسى المسلمون أنفسهم وتذكروا دينهم ، نسوا حياتهم وتذكروا واجبهم ، نسوا آمالهم فى الحياة وتذكروا مستقبل الإسلام ... بهذه الروح خاضوا غمار المعركة لم يفكروا فى هزيمة وإنما كان النصر رائدهم ، فحصلوا عليه وانتصروا .

ومبعث أهمية المعركة أن كلا من الطرفين ألقى فى المعركة بخيرة رجاله ، ففى جانب الفرس دخل رستم المعركة على رأس جيشها ، ورستم علمٌ من أعلامها ، وبطل من أبطالها ، ورجل له مكانته وقوته ، ويتمثل ذلك فى مخاطبة يزدجرد له « أنت رجل فارس اليوم » ، وخرج مع رستم الجالينوس والهرمزان ومهران بن بهرام ، وجميعهم أبطال فارس وقادتها الذين وضعت فيهم آمالها . . . وفى الجانب العربى تولى القيادة سعد بن أبى وقاص فارس العرب وأحد أبطالهم ، وأمهر رماتهم ، وأجلد مقاتليهم ، قيل فيه « الأسد فى براثنه » ، وخرج معه رجال باعوا أنفسهم لله ، كعاصم ابن عمرو ، والقعقاع الذى قيل فيه « لا يهزم جيش فيهم مثل هـــذا » ، واشترك فى القتال أبو محجن الثقفى ، وقيس بن هبيرة ، وهاشم بن عتبة ، وشرحبيل ، وزهرة ، وكلهم صناديد العرب وأبطالهم .

وللمعركة أهمية خاصة من وجهة النظر العربية ، فإن انتصار المسلمين فى القادسية فتح أمامهم الطريق إلى إيوان كسرى فى عاصمة ملكه ، ومهد لهم القضاء على دولة الأكاسرة ، فبعد المعركة إلتقى المسلمون بالفرس اللقاء الأخير فى نهاوند ، وكان الطرفان يعرفان نتيجة اللقاء ، فقد أحس يزدجرد بالنهاية تقترب ، وبالدولة الكبيرة تذوب تحت أقدام الفرسان الشجعان من العرب الميامين ، ففر إلى بلاد الأتراك ، وكتب بفراره وثيقة تسليم دولته للعرب ... تسليم دولة بنى ساسان لأتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

بعد القادسية

كان لابد للعرب من أن يتموا نصرهم العظيم فى القادسية ، وأن يهدموا عرش كسرى ، وأن يزيلوا دولته من الوجود ... من أجل هذا ، وقعت معارك أخرى كانت خاتمتها معركة نهاوند التى انتهت بانتصار ساحق لجيوش المسلمين ونهاية محتومة لدولة كسرى .

القائد العربى القعقاع

قائد عربى بطل كان له دور كبير فى فتح العراق ، وكان قاسماً مشتركا فى غالبية المعارك ، وهو من قبيلة تميم ، أسلم فى السنة التاسعة للهجرة بعد غزوة تبوك ، ولهذا لم يكن له جهاد معروف فى عهد الرسول لإسلامه متأخراً ، وهو صحابى ، كان أول خروج له فى عهد أبى بكر ، إذ أمره بالإغارة على بنى كلب وقتل علقمة بن علاثة[١] أو أسره ، ففر علقمة وأسلم أهله .

وأمد به أبو بكر خالداً فى العراق ، وقال لمن سأله « أتمد رجلا قد

(١) كان علقمة قد أسلم فى زمن الرسول ثم ارتد وهاجر إلى الشام وعاد بعد وفاة الرسول، وعسكر فى بنى كلب

ارفضّ عنه جنوده برجل ؟ » ، « لا يهزم جيش فيه مثل هذا »(١) ، وشهد مع خالد كاظمة ، وأنقذه فيها من موت محقق ، ثم حارب تحت لوائه فى العراق ، وصحبه إلى الشام حيث تولى قيادة أحد الكراديس فى اليرموك .

وعاد مرة أخرى إلى العراق ، فشارك فى فتح القادسية ، وقتل بهمن جاذويه ، وأسهم فى فتح المدائن ، وتولى قيادة الكتيبة الخرساء وحارب فى جلولاء .

ورجع إلى الشام ، ولكنه عاد ثانية إلى العراق ، وتولى قيادة المجردة فى معركة نهاوند ، ونجح فى سحب الفرس خارج حصونهم ، فوقعت المعركة وانتصر فيها المسلمون .

سكن الكوفة ، وبذل جهداً كبيراً ليحول دون قتل عثمان بن عفان ، وانضم إلى على بن أبى طالب ضد معاوية بن أبى سفيان .

وتوفى سنة أربعين هجرية .

رسالة سعد إلى عمر

كتب سعد إلى عمر بالفتح « أما بعد ، فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال شديد ، ولقد لقوا المسلمين بعُدة لم ير الراءون مثل زهائها ، فلم ينفعهم الله بذلك ، وأتبعهم المسلمون على الأنهار وفى الفجاج ، وأصيب من المسلمين فلان وفلان ورجال من المسلمين لا نعلمهم ، الله بهم عالم ، وكانوا يدوون بالقرآن إذا جُنّ عليهم الليل دوى النحل ، وهم آساد الناس لا يشبههم إلا الأسود ولم يفضل من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة ، إذ لم تكتب لهم »(٢) .

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٥٥٤

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٨٤

موقف بطولي لطليحة

كان لطليحة دور بطولي خلال المعركة شهد به واحد من أعدائه الفرس. (سيأتي ذكره بعد حين)... وطليحة هو ابن خويلد الأسدي من بني أسد بن جذيمة.. كان طموحا ذكياً ادعى النبوة في عهد الرسول وتبعه بعض العرب واليهود. واتخذ سميراء من بلاد بني أسد مقراً لحركته، وادعى أنه يوحى إليه كما يوحى إلى الرسول، وحاول محاكاة القرآن[1]، وأرسل أبو بكر خالداً للقضاء عليه إلا أن طليحة فر إلى بلاد الشام وعاد مسلماً في عهد أبي بكر ومعتمراً، وبايع عمر وبقي بين أهله حتى خرج إلى العراق فأبلى بها مع المسلمين أحسن بلاء.

وبينما كان رستم في طريقه إلى القادسية علم أن خيول المسلمين تغير على النهرين فأرسل قوة لمحاربتهم، وعرف المغيرون نبأ هذه القوة فرجعوا إلا طليحة فإنه أبى أن يرجع معهم، فقال له أحدهم «أنت رجل في نفسك غدر ولن تفلح بعد قتل عكاشة بن محصن»[2]، ومضى طليحة إلى معسكر رستم ودخله خفية وقتل إثنين من فرسانه وساق جواديهما ثم خرج من المعسكر، فلمحه جماعة من أصحاب رستم فطاردوه بغية قتله، فقتل إثنين منهما، واسر الثالث، فارتد طالبوه، ودخل هو بأسيره على سعد فقال الأسير «باشرت الحروب منذ أنا غلام، وسمعت بالأبطال، فلم أسمع بمثل هذا، إن رجلاً قطع فرسخين إلى عسكر فيه سبعون ألفاً، فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فرسان الجند وهتك عليهم البيوتات، فلما أدركناه قتل الأول وهو يعد بألف فارس، ثم الثاني وهو نظيره، ثم أدركته أنا وخلفت من بعدي من يعدلني وأنا الثائر بالقتيلين، فرأيت الموت. واستؤسرت».

---

(١) من أمثلة ذلك قوله «والحمام واليمام والصرد الصوام قد صمن قبلكم بأعوام ليبلغن ملكنا العراق والشام»

(٢) قتل عكاشة حبالا أخا طليحة فخرج إليه طليحة وقتله وقتل معه ثابت بن أقرم الأنصاري.

الباب الثامن

نهاية المطاف فى بلاد العراق
موجة الانتصار العربى من المدائن الى سوس

قال إبن كثير

وكان يوماً عظيما وأمراً هـائلا وخطباً جليلا ، وخارقاً باهراً ، ومعجزة لرسول الله خلقهـا الله لأصحابه لم ير مثلها فى تلك البلاد ، ولا فى بقعة من البقاع .

وهو يصف عبور النهر

والمسلمون يتجهون إلى فتح المدائن

التقدم إلى المدائن

فر الفرس بعد هزيمتهم المرّة فى القادسية ، ووصل الجانب الأكبر منهم إلى أطلال بابل ، وتفرق الآخرون فى أنحاء فارس .

أما العرب فقد ظلوا فى القادسية ، وكتب سعد إلى عمر — وكان قد أمره ألا يبرح منازله حتى يأتيه أمره — ليرى رأيه فى الموقف ، وليشير عليه بما يجب فعله ، فكتب إليه عمر أن يتقدم إلى المدائن(١) ، وأن يترك النساء والأطفال بالعتيق ، ومعهم قوة تحميهم .

وتقدم زهرة بن الحوية على رأس مقدمة الجيش ، ونزل الكوفة ، وبقى بها حتى وصلته قوات عبد الله بن المعتم(٢) ، وشرحبيل بن السمط ، ثم سارت القوات كلها بعد ذلك فى اتجاه المدائن .

زهرة بن الحوية

كان لزهرة دور كبير فى عمليات العراق ، ولهذا رأينا أن نقدم موجزاً لحياته ...

هو زهرة بن عبدالله بن قتاده بن الحوية ، من تميم ، ومن وجوه البحرين ، أسلم بعد أن أعلن ملكه المنذر بن ساوى العبدى التميمى إسلامه ولم يرتد عن الإسلام ، وشارك فى القادسية ، وكان له موقف رائع فى العذيب ، إذ استطاع جندى فارسى أن يستطلع حركات المسلمين وخرج راكضاً ليخبر الفرس بما حصل عليه من معلومات فتبعه زهرة وقتله .

---

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ١٩٦

(٢) من قبيلة عبس أسلم مبكراً ولم يرتد . . كان قائد الميمنة فى القادسية وحاصر الروم فى تكريت وفتحها وعاد إلى الكوفه بناء على دعوة سعد وكان على رأس جيشه فى الموصل

وقبل الاشتباك فى القادسية كان يقود المقدمة ، وفى خلال المعركة قاد الميسرة بدلا من شرحبيل بن السمط ، وأسهم فى المعارك التى دارت مابين القادسية والمدائن .

عاش فى الكوفة ، ومات سنة سبع وسبعين هجرية ، فقد وطئته الخيل فى معركة دارت بين أهل الكوفة والخوارج .

بهرسير

فى خلال تقدم زهرة إلى المدائن إلتقى بجموع للفرس عند برْس[١] فهزمها[٢] ، وتقدم إليه بسطام دهقان برس بمعلومات هامة عن الفرس الذين احتشدوا فى بابل ، وعقد له الجسور ، فكتب زهرة إلى سعد الذى تحرك قاصداً بابل ، وإلتقى فى طريق تقدمه بالقادة الثلاثة الفيرزان والهرمزان ومهران ، فقاتلهم ، وانتصر عليهم ، وفرّ الثلاثة ... الأول إلى نهاوند ، والثانى إلى الأهواز ، والثالث إلى المدائن .

وبقى سعد ببابل ، وتقدم زهرة ومعه هاشم بن عتبة إلى ساباط[٣] ، حيث صالح أهلها على جزية ، ثم تقدم إلى المدائن ، وبالقرب من بَهرَسير[٤] إلتقى بكتيبة فارسية كان رجالها يقسمون كل يوم ألا يزول ملك فارس ما عاشوا ، وكان مع الكتيبة أسد قتله هاشم بن عتبة[٥] بضربة سيف ،

---

(١) موضع بأرض بابل

(٢) الطبرى ج ٣ ص ١١٤

(٣) مدينة غرب المدائن وتسمى ساباط كسرى [الطبرى ج ٣ ص ١١٦]

(٤) مدينة من نواحى سواد بغداد وهى ضاحية للمدائن تقع على ضفة دجلة اليمنى فى مواجهة المدائن كانت ذات أسوار قوية وحصون منيعة وكان يصلها بالمدائن جسر

(٥) قيل إن سعداً قبل رأس هاشم إكباراً لقتله الأسد وأن هاشم قبل قدم سعد تقديراً لعطفه .. وهاشم هو إبن أخى سعد وسعد عمه

وفرت الكتيبة إلى بهرسير ، فحاصرتها قوات زهرة ، حتى وصل سعد ، فضربها بالمنجنيقات ، وثبت أهلها للحصار ، فقد أيقنوا أن استسلامهم يكشف أمام المسلمين الطريق إلى المدائن ، وكان أهلها يخرجون بين وقت وآخر بعض قواتهم لقتال المسلمين ورفع الحصار ، فكان المسلمون يهزمونهم فيفرون إلى داخل الأسوار يتحصنون بها .

وبعث يزدجرد إلى سعد يطلب الصلح ، ويعرض عليه أن يكون دجلة فاصلا بينه وبين العرب « فلنا ما يلينا من دجلة وجبلنا ، ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم » ، ورفض سعد العرض ، وأمر بتشديد الحصار(١) ومضاعفة الرمى بالمنجنيق ، وساء موقف المحاصرين حتى إنهم أكلوا السنانير والكلاب .

وتسلق بعض المسلمين الأسوار وفتحوا الأبواب ، فلم يجدوا أحداً من الأهالى ، وكانوا قد تركوها إلى المدائن بناء على أمر يزدجرد ، بعد أن أحرقوا الجسر وجمعوا السفن التى تجرى فوق دجلة ، ليكون النهر خط دفاع ضد الهجوم العربى .

وبعد أن دخل المسلمون المدينة ، تدافعوا إلى شاطىء دجلة ، ليشهدوا المدائن وهى قائمة على الناحية الأخرى بعظمتها وجمالها ، فوقفوا مبهوتين حتى أن ضرار بن الخطاب قال « الله أكبر ! هذا أبيض كسرى ! هذا ما وعد الله رسوله » .

إصابة زهرة

كان على زهرة خلال حصار بهرسير درع مفصومة ، فقيل له « لو أمرت بهذا الفصم فسرد ؟ » ، فتساءل « ولم؟ » فقالوا « نخاف عليك منه » .

---

(١) قيل إن الحصار استمر تسعة أشهر وقيل إنه طال ثمانية عشر شهراً

فقال « إنى لكريم على الله إن ترك سهم فارس الجند كله ثم أتانى من هذا الفصم حتى يثبت فىّ ! » .

وحدث أن خرج بعض المحاصرين واشتبكوا مع المسلمين ، فأصاب زهرة سهم ثبت فيه من ذلك الفصم ، فقال بعضهم « انزعوها عنه » ، ولكنه رفض قائلا « دعونى ، فان نفسى معى ما دامت فىّ ، لعل أن أصيب منهم بطعنة أو ضربة ، ومضى إلى العدو وضرب بسيفه شهريار أحد قادة الفرس فقتله(١) ، وكانت إصابته شديدة فحالت بينه وبين مواصلة جهاده فى معارك الفتح(٢) .

الأسرى الفلاحون

بينما كان المسلمون على حصار بهرسير أرسل سعد الخيول فيما بين دجلة والفرات ، فأسروا مائة ألف فلاح غير مسلحين ، وحفروا الخنادق حولهم .

ثم بث العيون لتأتيه بأخبار الفرس ، فأشار شيرزاد دهقان ساباط على سعد أن يطلق سراح الفلاحين ، فهم لا يملكون سلاحاً يشهرونه فى وجه المسلمين ، وليس من أسرهم فائدة ، وإطلاقهم لا ضرر من ورائه فإنهم سينصرفون إلى زراعة الأرض ، فيكثر المحصول وتزيد غلتها ، وكتب سعد إلى عمر يستطلع رأيه فى مشورة شيرزاد ، فوافق عمر وسمح له ، فأطلق سراحهم ، فأقبلوا يفلحون الأرض ، ودفعوا الجزية والخراج إلى سعد .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ١١٧/١١٨
ابن الأثير ج ٢ ص ١٩٥

(٢) فى الطبرى وفتوح الشام أن زهرة قتل ولكن الحقيقة أنه عاش حتى عهد الحجاج بن يوسف الثقفى حيث قتله شبيب الخارجى . وقد استدرك الطبرى فروى أنه لم يقتل إلا فى عهد الحجاج .

الانسحاب إلى حلوان

أدرك يزدجرد أنه قد أصبح مغلوباً على أمره ، وأن العرب آتون إليه دون ريب ، وأن عاصمة ملكه ذات التاريخ والمجد والشهرة ستسقط في أيديهم ، وأنه لا سبيل أمامه للدفاع عنها ، وازداد اضطرابه وفسد تفكيره فلم يعد صالحاً للبحث عن الحل السليم ، ولم يجد يزدجرد سبيلا سوى الفرار نجاة بنفسه وبأهله ، فأمر رجاله فحملوا بيت ماله وخزائنه ومتاعه والنساء والذرارى ، وانتقل بكل هؤلاء إلى حلوان .

وفعل الناس فعله ، إذ انهارت معنوياتهم وتحطمت قوى جنده ، ولم يبق أمامهم أمل فى النصر ، فودّعوا مدينتهم وغادروها إلى حلوان .

معجزة العبور

كان الوصول إلى المدائن هو الأمل الذى داعب العرب المسلمين وهم يشاهدون جمالها وروعتها ، لا يفصل بينهم وبينها سوى النهر ، فأخذوا يفكرون فى وسيلة العبور ، وجمع سعد بعض الفرس فى المنطقة وأخذ يسألهم فدلّوه على مخاضة فى النهر تُخاض إلى صلب الوادى ، ولكنه خشى أن يغرق جنده فى النهر .

وبينما هو يفكر فى العبور بطريقة آمنة سهلة ، جاءه النبأ بأنّ يزدجرد قد ترك المدائن إلى حلوان فجمع الناس وخطب فيهم ، فحمدالله وأثنى عليه ثم قال « إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليه منه ، وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا فيناوشونكم فى سفنهم ، وليس وراءكم شىء تخافون أن تُؤتوا منه ، فقد كفاكموهم أهل الأيام وعطّلوا ثغورهم وأفنوا ذادتهم(١) وقد رأيت من الرأى أن تبادروا جهاد العدو بنيّاتكم قبل أن

---

(١) الرجال الذين يحمون ويدافعون .. المفرد ذائد والجمع ذادة .

تحصركم الدنيا ، ألا إنى قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم » فقال له رجاله « عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل » .

وندب سعد الناس إلى العبور ، وقال « من يبدأ ويحمى لنا الفراض(١) حتى نلاحق به الناس لكى يمنعوهم من الخروج»(٢) .

واختير ستمائة من أهل النجدة يقودهم عاصم بن عمرو التميمى ، وسمى هؤلاء بكتيبة الأهوال(٣) ، وكانت وظيفتها عبور النهر وإعداد منطقة آمنة تصل إليها جموع المسلمين ، وأعدت كتيبة أخرى سميت الكتيبة الخرساء كان يقودها القعقاع ، وكان دورها متابعة كتيبة عاصم ومعاونتها .

تقدمت كتيبة الأهوال حتى وصلت شاطىء النهر ، فقال عاصم لأفرادها « من ينتدب(٤) معى لنكون قبل الناس دخولا فى هذا البحر فنحمى الفراض من الجانب الآخر ؟ » ، فتقدم إليه ستون فارساً فوجّه عاصم الحديث إلى باقى الكتيبة « أتخافون من هذه المنطقة ؟ » ثم تلا قوله تعالى « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا »(٥).

واقتحم عاصم وهو على فرسه النهر ، ومن ورائه زملاؤه ، وتشجع باقى الرجال فدفعوا خيولهم إلى النهر .. وتقدم الجميع ، والفرس على الجانب الآخر يشاهدون ما أقدم عليه العرب فى دهشة ، حتى أن بعضهم قال « مجانين !!! مجانين !!! » والبعض الآخر قال « إنكم والله ما تقاتلون إنساً بل تقاتلون جناً » .

---

(١) جمع فرضة وهى ثغور المخاضة من الناحية الأخرى

(٢) فى رواية أخرى « من يبدأ ويحمى لنا الفراض حتى تتلاحق به الناس لكيلا يمنعونا من العبور »

(٣) تشبه فرق الصاعقة فى جيوش اليوم وكانت مهمتها فى ضوء الحرب الحديثة إقامة رأس جسر على الجانب الآخر من النهر وتقوم كتيبة القعقاع بحمايته بعد ذلك لتسهيل مهمة العبور

(٤) أى يسرع بالتطوع

(٥) سورة آل عمران ١٤٥

وبعث الفرس بفرسانهم إلى شاطىء النهر ليمنعوا العرب من الخروج من الماء ، فقال عاصم لأصحابه «الرماح... الرماح... أشرعوها وتوخّوا العيون» وانهمرت الرماح على خيول الفرس ، فأصابتها فى عيونها ، وارتدت الخيول ولم يستطيع فرسانها السيطرة عليها .

ووصل عاصم إلى الشاطىء ومعه رجاله ، وما أن شاهدهم الفرس حتى فرّوا من أمامهم ، ووصلت كتيبة القعقاع بعدهم إلى الشاطىء ، وحدث فى أثناء عبورها أن سقط جندى عربى عن ظهر فرسه ، فثنى القعقاع عنان فرسه إليه ، وأخذ بيده يجرّه حتى عبر ، وقال له الرجل « أعجزت الأخوات أن يلدن مثلك ياقعقاع »[1] .

وأمر سعد قواته بعبور النهر ، وامتلأ النهر بالخيل حتى قيل إن ماءه اختفى فلم يكن يُرى ، وكان يرافق سعداً فى العبور سلمان الفارسى ، فجعل سعد يقول « حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرن الله وليه ، وليظهرن دينه ، وليهزمن الله عدوه ، إن لم يكن فى الجيش بغى أو ذنوب تغلب الحسنات» فقال له سلمان «ذُللت لهم والله البحور كما ذلل لهم البر ، أما والذى نفس سلمان بيده ليخرُجن منه أفواجا كما دخلوا أفواجاً » ، وخرجوا منه فعلا — كما قال سلمان — لم يغرق منهم أحد .

وفى ذات الوقت أمر عاصم أصحاب الزوارق والسفن من الفرس ، فدفعوها إلى جانب بهرسير ، ومن هناك نقلت قوات المسلمين التى لم تعبر النهر على الخيل .

وعندما استقر الأمر للمسلمين على الشاطىء الآخر تجهّزوا لفتح المدائن .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ١٢٢

ولكن المدائن كانت خالية من الناس إلا القليل الذى تحصن فى القصر الأبيض ، وحتى هؤلاء لم يقاوموا وإنما قبلوا أداء الجزية وفتحوا أبواب القصر للمسلمين .

وانتهى سعد إلى إيوان كسرى وأقبل يقرأ قوله تعالى « كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين ، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين »[١] .

ويصف إبن كثير[٢] هذا النصر العظيم فيقول « وكان يوماً عظيما وأمراً هائلا ، وخطباً جليلا ، وخارقاً باهراً ، ومعجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم خلقها الله لأصحابه لم ير مثلها فى تلك البلاد ، ولا فى بقعة من البقاع » ، إنه يصف العبور فيقول عنه « هذه معجزة لم ير مثلها فى تلك البلاد » ولا عجب فلعل العبور كان أخطر وأعظم عملية تم فى هذا العصر وعلى تلك الصورة ، فما لا شك فيه أن نجاحه يعود أولا وآخراً إلى الإيمان العميق المطلق الذى لا حد له ، إنه إيمان بالنصر ، جعل أصحـــابه يأتون بالخوارق من الأعمال ، حتى يصفهم عدوهم بأنهم جن وليسوا بشراً ، ومن خلال هذا الوصف إنحلت قوى الفرس ، وتحطمت روحهم ، وامتلأت نفوسهم رعباً وفزعاً ، فلم تعد لديهم القدرة على القتال ، ولم يعد أمامهم سوى الفرار .

وفى رواية أبان بن صالح « انتهى المسلمون إلى دجلة وهى تطفح بماء لم ير مثله قط وإذا الفرس قد رفعوا السفن والمعابر إلى الجيزة الشرقية وحرقوا الجسر ،

---

(١) الطبرى جـ ٣ ص ١٢٥
ابن الأثير جـ ٢ ص ١٩٩
الآيات من سورة الدخان ٢٥/ ٢٩

(٢) البداية والنهاية

فاغتمّ سعد والمسلمون إذ لم يجدوا إلى العبور سبيلا ، فانتدب رجل من المسلمين فسبّح فرسه وعبر ، فسبّح المسلمون ، ثم أمروا أصحاب السفن فعبروا الأثقال ، فقالت الفرس « والله ما تقاتلون إلا جناً فانهزموا » .

وفى رواية أبى عمرو بن العلاء « لم يجد سعد معابراً فدُلّ على مخاضة عند قرية الصيادين ، فأخاضوها الخيل ، فجعل الفرس يرمونهم ، فسلموا غير رجل من طيىء لم يصب يومئذ غيره » .

سعد فى المدائن

أقام سعد فى قصر الأكاسرة ، وجعل الإيوان مصلى ينادى فيه باسم الله ، وتقام فيه الصلاة .

ووجد سعد فى خزائن كسرى أموالا وثياباً وأمتعة وأدهانا وأوانى ، كما وجد فى دور المدائن من التحف والنفائس ما أذهل خيالهم .

ورجع من خرج وراء يزد جرد بتاجه مرصعاً بالدر والجوهر ، وبثيابه من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر ، وبخرزاته ووشاحه ودرعه .

وطارد القعقاع فارسيا وقتله ، وأخذ منه أسيافا وأدراعاً لكسرى وهرقل وخاقان الترك والنعمان ولملوك آخرين .

وجاء عصمة بن خالد الضبى بسمطين ، فى أحدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثغره ولباته الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة ولجامه كذلك ، وفى الآخر ناقة من الفضة عليها شليل[1] من ذهب وبطان من ذهب وزمام من ذهب ، وكله منظوم بالياقوت ، وعليها رجل من ذهب مكلل بالجوهر .

---

(١) ما يوضع على عجز البعير

وعثر المسلمون بدور المدائن على سلال مختومة برصاص ، ظنوا مافيها طعاماً ، ثم فوجئوا بأنها أوان من ذهب وفضة ، كما عثروا على كميات ضخمة من الكافور .

ومما يجب ذكره أن العرب رغم أنهم شاهدوا ما وقع عليه نظرهم للمرة الأولى فى حياتهم ، فإن أحداً منهم لم يطمع فى شيء منه ، بل جاءوا جميعاً بكل ما عثروا عليه إلى سعد ليرى فيه رأيه ، حتى إنه قال فى فخر « والله إن الجيش لذو أمانة ، ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت إنهم على فضل أهل بدر » .

وقسّم سعد الغنائم ، وأصاب الفارس إثنى عشر ألفا ، وجعل سعد لأهل البلاء قدر بلائهم ، وقسّم المنازل بين الناس ، ثم أرسل إلى المدينة الخُمس ، ذهب به بشير بن الخصاصية ، فسلمه لعمر فدهش لكثرته . وقال لمن حوله « إن قوماً أدوا هذا لأمناء ! » فأجابه على بن أبى طالب « إنك عففت فعفت رعيتك ، ولو رتعت لرتعت »[1] ، وقسّم عمر الخُمس بين الناس على أقدارهم .

وكان من بين ما أرسله سعد بساط لكسرى . لم يستطع أن يقسمه ، فقال لرجاله « هل تطيب أنفسكم عن أربعة أخماسه . فنبعث به إلى عمر يضعه حيث يشاء ، فإنا لا نراه ينقسم وهو بيننا قليل . وهو يقع من أهل المدينة موقعاً » ، ولما رأى عمر البساط لا ينقسم قال لمن حوله « أشيروا علىّ فى هذا القطيف ؟ » ، فقال الناس « قد جعل الجند ذلك لك ، فالرأى فيه رأيك » ، وقال البعض « إنه لأمير المؤمنين لا يشركه فيه أحد » ورفض عمر هذا الرأى ، فقال علىّ « لم يجعل الله علمك جهلا . ويقينك شكاً ، إنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت ، أو لبست فأبليت ،

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ١٢٨

أو أكلت فأفنيت ، وإنك إن تبقه اليوم على هذا لم تعدم فى غد من يستحق به ما ليس له » ، فقال عمر « صدقتنى ونصحتنى » ، ثم قطع القطيف ، وقسّمه بين الناس[١] .

جلولاء . . . وحلوان

لم يأذن عمر لسعد فى تعقب الفارين من الفرس ، ولهذا بقى المسلمون فى المدائن فى انتظار وصول تعليمات جديدة .

وبثّ سعد العيون لتأتيه بأخبار الفرس وأنبائهم .

وكان الفرس قد فرّوا حتى جلولاء[٢] ، وهناك أحسوا أن مصيرهم يتجه إلى عالم مجهول ، فليس أمامهم بعد ذلك إلا أن يتفرقوا فى أرض إيران ، فتنقطع صلتهم نهائياً ببلاد العراق ، وقال بعضهم لبعض « لو افترقتم لم تجتمعوا أبداً ، وهذا مكان يفرق بيننا ، فهلموا فلنجتمع للعرب به ولنقاتلهم ، فإن كانت لنا فهو الذى نحب ، وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا الذى علينا وأبدينا عذراً » .

وبلغ سعد أن يزدجرد يجمع الناس فى حلوان ويوجههم إلى جلولاء ، وأنه ولىّ مهران قيادتهم ، وبقى فى حلوان يعد الجند ويبعث بهم إلى هناك .

وقام مهران ومن معه بحفر خندق عظيم حول المدينة ، وأحاطوه بحسك الحديد ، وأقاموا بالمدينة ، ومعهم عدد وآلات حصار ، واتفقوا فيما بينهم على الصمود ، وتعاهدوا ألا يفروا ، وأن يفنوا المسلمين عن آخرهم ، ويجلوهم عن بلادهم .

جمع سعد كل هذه المعلومات وبعث بها إلى الخليفة ، فكتب الخليفة

---

(١) قيل إن علياً أخذ قطعة من القطيف باعها بعشرين ألف

(٢) على نحو أربعين ميلا فى شمال المدائن تفترق عندها الطرق إلى شتى الأرجاء من إيران

إلى سعد « سرِّح هاشم بن عتبة[١] إلى جلولاء فى إثنى عشر ألفاً ، واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو ، وعلى ميمنته مسعود بن مالك ، وعلى ميسرته عمرو بن مالك بن عتبة ، واجعل على ساقته عمرو بن مرة الجهنى »[٢] .

ووصل جيش هاشم إلى جلولاء ، فوجد الفرس متحصنين بها مستميتين فى الدفاع عنها ، فقرر أن يحاصرها .

وكان الإمداد يجيء تباعا إلى جلولاء من حلوان ، وأدى إزدياد عدد الجند إلى إطالة مدة الحصار حتى بلغت ثمانين يوما ، وكان الفرس يخرجون من حلوان لمقاتلة المسلمين ، ثم يعودون إلى حصنهم حين ينهزمون .

وقرر مهران مهاجمة المسلمين ، فخرج برجاله فى أحد الأيام ، وهاجمهم بعنف ، فخطب هاشم فى جنده « أبلوا فى الله بلاء حسناً يتم الله عليكم الأجر والمغنم ، واعملوا لله »[٣] ، ووصف إبن كثير القتال فقال « فاقتتلوا قتالا شديداً لم يعهد مثله حتى فنى النشاب من الطرفين ، وتقصفت الرماح من هؤلاء وهؤلاء ، وصاروا إلى السيوف والطبرزينات[٤] ، وحانت صلاة الظهر فصلى المسلمون إيماء ، وذهبت فرقة المجوس وجاءت مكانها أخرى ، فقام القعقاع بن عمرو فى المسلمين فقال « أهالكم ما رأيتم أيها المسلمون ؟»

---

(١) هو أبو هاشم بن عتبة بن أبى وقاص من بنى زهرة أسلم يوم الفتح ولهذا فهو من الطلقاء شهد غزوة حنين وقاتل الردة وشارك خالد فى حروب العراق والشام وأسهم فى معركة القادسية وفتح جلولاء ثم عاش بالكوفة وبايع عليا وقال فى ذلك :

أبايع غير مكترث عليا ولا أخشى أميراً أشعريا
أبايعه وأعلم أن سأرضى بذاك الله حقاً والنبيا

وكان قائد المشاة فى موقعة صفين وقتل فيها سنة سبع وثلاثين للهجرة

(٢) الطبرى ج ٣ ص ١٢٢

(٣) الطبرى ج ٣ ص ١٣٣

(٤) أداة من أدوات الحرب تشبه الفأس

قالوا : نعم ! إنا كالُّون وهم مريحون ، فقال : بل إنّا حاملون عليهم ومجدون في طلبهم ، حتى يحكم الله بيننا ، فاحملوا عليهم حمـــلة رجل واحد حتى تخالطوهم » .

وزحف القعقاع حتى انتهى إلى باب الخندق ومعه جماعة من الفرسان الشجعان ، وكان الليل قد أقبل ، وظن الناس أنه لا قتال ، وأمر القعقاع منادياً فنادى « يا معاشر المسلمين ... هذا أميركم قد دخل الخندق وأخذ به ، فأقبلوا إليه ، ولا يمنعكم مَن بينكم وبينه من دخوله »[١] ولم يكن الأمير بالخندق أو قد دخله ، ولـكن القعقاع أراد أن يرفع معنويات جنده .

وحمل المسلمون وقاتلوا قتالا شديداً وهم يظنون أن هاشماً في الخندق فعلاً ، فلما وصلوا إلى باب الخندق وجدوا القعقاع قد احتل قسما من الخندق ... ولم يستطع الفرس الفرار ، لأن الخندق كان مانعاً لهم عن الارتداد إلى المدينة ، فقتل منهم مائة ألف وفرّ الباقون إلى حلوان ، فطاردهم القعقاع ، وأدرك مهران بخانقين فقتله ، أما الفيرزان فقد هرب بفرسه إلى حلوان ، وحمل إلى يزدجرد نبأ الهزيمة فترك حلوان واتجه إلى الريّ .

ووصل القعقاع إلى حلوان ، فخرج إليه رجالها وقاتلوه قتالا شديداً ، ثم انهزموا أمامه ، ودخل المسلمون المدينة فغنموا مغانم كثيرة .

وسار جرير إلى قرميسين[٢] على رأس ثلاثة آلاف مقاتل ففتحها صلحاً ، وكان هاشم قد ضم إلى بجيلة خيلا كثيفاً وجعلهم تحت قيادة جرير وأبقاهم قوة ساترة في جلولاء لتكون بين المسلمين والفرس .

---

(١) في رواية أخرى « أين أيها المسلمون هذا أميركم على باب خندقكم فاقبلوا عليه ولا يمنعنكم من بينكم وبينه من دخوله »

(٢) تقع بين همذان وحلوان وتبعد عن همذان ثلاثون فرسخا جاء إسمها في البلاذري قرماسين [ص ٢٩٩]

وبعد أن تم الفتح كتب سعد إلى عمر يطلب الإذن لمطاردة الفرس إلى داخل بلاد العجم ، فرفض عمر ، وبعث إليه أن يبقى حيث هو ، وكتب إليه « وددت لو أن بين السواد والجبل سداً ، لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم ، حسبنا من الريف السواد ، إنى آثرت سلامة المسلمين على الأنفال » .

وبعث سعد بأخماس الفىء الذى أصابه المسلمون إلى المدينة[1] مع جماعة فيهم زياد بن أبى سفيان ، فلما قدموا على عمر ، وصف زياد فتح جلولاء وحلوان فى بلاغة أعجبت عمراً[2] ، فقال له « هل تستطيع أن تقوم فى الناس بمثل الذى كلمتنى به » ، فأجابه زيد « نعم يا أمير المؤمنين ، فوالله ما على وجه الأرض رجل أهيب فى صدرى منك ، فكيف لا أقوى على ذلك مع غيرك » ، وأخذ زياد فى رواية أخبار المعارك وفعال الأبطال المسلمين ، وبقى الفىء فى صحن المسجد ، وعليه عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن أرقم يحرسانه ، حتى قسّمه عمر على الناس .

تكريت

اجتمع أهل الموصل من الروم بتكريت[3] ، وانضم إليهم كثيرون من نصارى العرب من إياد وتغلب والنمر ، ومالئوهم على مقاومة المسلمين .

وعلم بهذا التجمع سعد بن أبى وقاص ، فكتب إلى عمر ، الذى أمره

---

(١) روى أن عمر كشف عن الفىء فوجد فيه الياقوت والزبرجد والذهب والفضة ، فبكى ، وسأله عبد الرحمن بن عوف « ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ والله إن هذا لموطن شكر » فأجابه « والله ما هذا يبكينى ، وتالله ما أعطى الله قوماً هذا إلا تحاسدوا وتباغضوا ، وما تحاسد قوم إلا ألقى بأسهم بينهم »

(٢) قال له عمر « هذا والله الخطيب المصقع » فرد زياد « إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا »

(٣) شمال المدائن على نهر دجلة

بمواجهتهم « سرّح إليهم عبد الله بن المعتم (١) ، واستعمل على مقدمته ربعى ابن الأفكل (٢)، وعلى الخيل عرفجة بن هرثمة »(٣).

سار عبد الله بن المعتم فى خمسة آلاف مسلم ، فوصلها بعد أربعة أيام(٤) ، وكان القوم قد تحصنوا بالمدينة ، فأمر عبد الله بحصارها ، واستمر الحصار أربعين يوماً ، وأرهق المدافعين وخاصة الروم الذين قرروا أن يهربوا فى سفنهم بأموالهم ، وعرف ذلك عبد الله فبعث إلى نصارى العرب يدعوهم إلى الإسلام وإلى نصرته ، على أن يكون لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، وقال لهم « إن كنتم صادقين ، فاشهـــدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأقروا بما جاء به من عند الله . ثم أعلمونا رأيكم » فأجابوه إلى طلبه ، فبعث إليهم أن يراقبوا أبواب المدينة ، فإذا خرج الروم قاتلوهم وقتلوهم ، وقال « إذا سمعتم تكبيرنا فاعلموا أنا قد نهدنا إلى الأبواب التى تلينا لندخل عليهم منها ، فخذوا بالأبواب التى تلى دجلة وكبّروا واقتلوا من قدرتم عليه » .

وحمل المسلمون على المدينة ، وكبّروا وكبّر الأعراب (الذين أسلموا)

---

(١) هو عبد الله بن مالك بن المعتم العبسى أسلم فى زمن الرسول وهو من المهاجرين الأولين لم يرتد وحارب فى العراق تحت قيادة سعد وفتح تكريت وبقى بالموصل حتى استدعاه سعد ودخل معه الكوفة

(٢) هو ربعى بن الأفكل العنزى أسلم فى زمن الرسول وحارب المرتدين وشهد المدائن ومعارك العراق وعينه عمر على حرب الموصل . . جاء إسمه فى الإصابة (ج ٢ ص ١٩٤) ربعى بن الأفكل العنبرى

(٣) هو عرفجة بن هرثمة البارقى أسلم فى زمن الرسول وحارب المرتدين فى مهرة وكان أوله من فتح جزيرة بأرض فارس واتخذ منها مسجداً وولاه عمر قيادة الأزد وحارب فى العراق تحت قيادة المثنى وسعد وولاه عمر خراج الموصل ثم عاد إلى القتال وشهد فتح رامهرمز وتستر بناحية خوزستان حتى ولاه عثمان ولاية الموصل

(٤) الطبرى ج ٣ ص ١٤١

من الجانب الآخر ، فاضطرب الروم ، وحاولوا الخروج من الأبواب ، فأخذتهم سيوف المسلمين من أمامهم ومن خلفهم ، ولم يفلت منهم أحد ، وهكذا فتح المسلمون مدينة تكريت .

وكان عمر قد كتب إلى سعد أن يسرّح « عبد الله بن المعتم بعد فتح تكريت ربعى بن الأفكل إلى الحصنين » ، فأرسل عبد الله — تنفيذاً لأوامر الخليفة — ربعى إلى الموصل ، وقال له « أسبق إليهما قبل وصول الأنباء إليهما »[١] ، أى كان عليه أن يقطع المسافة بين تكريت والموصل بسرعة ، وفى أقصر وقت ممكن ، حتى يصل إلى غرضه قبل أن تصله أخبار استسلام تكريت وأخبار سيره ، وسار ربعى مسرعاً ، ومعه من أسلم من إياد والنمر وتغلب ، وكان عبد الله قد أراد مفاجأة القوم قبل أن ينتبهوا ويستعدوا ، فدبّر خطة الفتح بالتعاون مع قبائل النمر وإياد وتغلب ، على أساس أن يسبق هؤلاء جيشه إلى أهل الحصنين ، ويظهروا لهم الظفر والعودة بسلام من تكريت ، وعندما يصل الجيش الإسلامى يسيطرون على أبواب الحصنين ، فيدخل المسلمون دون مقاومة ، ونفذت القبائل الواجب الملقى على عاتقها ، وهاجمت خيل ربعى الحصنين ، وتحققت فعلاً المفاجأة ، وبوغت القوم فأرادوا المقاومة ، ولكنهم عرفوا ما أصاب تكريت ، فقرر أكثرهم طلب الصلح على الجزية ، وهرب الباقون ، وهكذا فتح المسلمون الحصنين نينوى والموصل[٢] ، ووصل عبد الله بن المعتم إلى الموصل ، ودعا الهاربين

---

(١) فى رواية أخرى « أسبق الخبر وسر ما دون القيل وأحى الليل »

(٢) نينوى هى الحصن الشرقى وهى مدينة أثرية أشورية لا تزال قائمة مقابل الموصل فى الضفة اليسرى من دجلة وفيها قبر النبى ذو النون

[معجم البلدان ج ٨ ص ٣٦٨]

والموصل هو الحصن الغربى

ويطلق المؤرخون عليهما معاً (نينوى والموصل) إسم الحصنين

فرجعوا ، وصارت لهم جميعاً المنعة والذمة[١] ، وبقى عبد الله فى الموصل حتى استدعاه سعد إلى المدائن فعاد إليها ، ثم رحل معه إلى الكوفة فى السنة السابعة عشرة للهجرة ، وعين ابن الأفكل على الموصل ، وعرفجة على خراجها .

هيت

بعث أهل الجزيرة الموالون للروم يستعدونهم على من عندهم من المسلمين ، واجتمع بمدينة هيت[٢] ، عدد كبير منهم ، وعلم سعد بأمرهم ، فأرسل إلى عمر يستأذنه ، فكتب إليه «ابعث إليهم عمر بن مالك[٣] ، وأبعث على مقدمته الحارث بن يزيد العامرى ، وعلى مجنبتيه ربعى بن عامر ومالك بن حبابب »

وتحرك عمر بقواته ، فوجد القوم قد تحصنوا بالمدينة ، وحفروا خندقاً حولها ، فلما رأى امتناع القوم بخندقهم واعتصامهم به ، قدّر أن حصارهم سيطول ، فخلف الحارث بن يزيد على حصارهم ، وسار هو بنصف القوات إلى قرقيسياء[٤] ، فأخذها عنوة على غرة ، وأجابه أهلها إلى الجزية[٥] .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ١٤٢

(٢) مدينة على شاطىء الفرات

(٣) هو عمر بن مالك بن عقبة بن وهب بن عبد مناف بن زهرة القرشى وهو ابن عم سعد ابن أبى وقاص حارب المرتدين وحارب فى العراق والشام تحت قيادة خالد فشهد اليرموك وفتح دمشق وعاد إلى العراق تحت قيادة هاشم بن عتبة وخاض معاركها كلها وفتح هيت وقرقيسياء
ورد إسمه فى بعض المراجع عمرو بن مالك
[كتاب الفاروق عمر ج ١ ص ٢١٣]

(٤) بلد عند ملتقى نهر الخابور بنهر الفرات
[معجم البلدان ج ٧ ص ٥٩]

(٥) الطبرى ج ٣ ص ١٤٣

ووصف عمر فتح قرقيسياء فقال :

ونحن جمعنا جمعهم فى حفيرهم ... بهيت ، ولم نحفل لأهل الحفائر (١)
وسرنا على عمد نريد مدينة ... بقرقيسيا سير الكماة (٢) المساعر (٣)
فجئناهم فى دارهم بغتة ضحى ... فطاروا وخلوا أهل تلك المحاجر
فنادوا إلينا من بعيد بأننا ... ندين بدين الجزية المتواتر
قبلنا ولم نردد عليهم جزاءهم ... وحطناهم بعد الجزا بالبواتر

وكتب عمر إلى الحارث فى شأن أهل هيت فقال « إن استجابوا فخل عنهم فليخرجوا وإلا فخندق على خندقهم خندقاً أبوابه مما يليك (٤) حتى أرى من رأى » (٥) .

وبعث الحارث إلى أهل هيت يخبرهم أنه سيظل على حصارهم حتى النهاية ، وأنه سيطوق خندقهم بخندق آخر يحتله جنوده ولا يتزحزحون عنه قبل استسلامهم ، وأبلغهم أن من يريد الانسحاب إلى أهله من المدافعين يستطيع الخروج بأمان ، وأيقن أهل هيت أنه حصار لا نهاية له ، بل هو حصار حتى الموت ، وأن فرصة النجاة سانحة أمامهم ، فاتصلوا بالحارث ، وعرضوا عليه ترك المدينة ، والعودة إلى بلادهم ، فوافقهم ودخل المدينة .

ماسبذان

هى مدينة تقع على تخوم ما بين العراق العربى من الشرق وفارس من

(١) جمع حفرة ومعناها هنا الخندق ويقصد الشاعر أنه لم يكترث للخنادق فى هيت
(٢) جمع كمى وهو الشجاع
(٣) جمع مسعر وهو الذى يدخل الحرب فيشعلها ويلهبها
(٤) أى من ناحيتك
(٥) ابن الأثير ج ٢ ص ٣٠٣

الغرب ، تجمعت بها قوات من الفرس ، فبعث سعد بن أبى وقاص جيشاً يقوده ضرار بن الخطاب ، فالتقى بهم فى سهل ماسبذان ، وهزمهم وقتل قائدهم وطردهم إلى المدينة ، ثم طاردهم إليها ، واستولى عليها عنوة ، وهرب أهلها فى الجبال ، فدعاهم ، واستجابوا إلى الجزية ، وأقرهم فى مدينتهم .

جنوب العراق

بعث عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان المازنى(١) إلى منطقة البصرة ، وأوصاه « يا عتبة ، إنى قد استعملتك على أرض الهند(٢)، وهى حومة من حومة العدو أرجو أن يكفيك الله ما حولها ويعينك عليها ، وقد كتبت إلى العلاء الحضرمى أن يمدك بعرفجة بن هرثمة ، وهو ذو مجاهدة ومكايدة للعدو ، فإذا قدم عليك فاستشره ، وأدع إلى الله ، فمن أجابك فاقبل منه ، ومن أبى فالجزية ، وإلا فالسيف »(٣).

وكان عمر يثق بعتبة ويطمئن إلى حسن قيادته فقد قال عنه « إن له من الإسلام مكاناً فقد شهد بدراً وقد رجوت جزءه عن المسلمين »(٤).

وكان عتبة فى رفقة سعد وخرج من الكوفة فى ثمانمائة رجل(٥)

---

(١) أحد السابقين إلى الإسلام قال إنه كان سابع سبعة مع رسول الله هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة ونزل فيها على عباد بن بشر الأنصارى (وقيل على عبد الله بن سلمة العجلانى) وآخى الرسول بينه وبين أبى دجانة وحارب فى بدر والقادسية وغزا منطقة البصرة والأهواز وتوفى سنة سبع عشرة هجرية وهو ابن سبع وخمسين .

(٢) كان يطلق على منطقة البصرة إسم أرض الهند
[ابن الأثير ج ٢ ص ١٨٨]

(٣) الطبرى ج ٣ ص ٩٢

(٤) طبقات ابن سعد ج ٧ ص ٦

(٥) ذكر الطبرى [المرجع السابق ص ٩٠] أن عددهم كان خمسمائة

وسار بهم حتى نزلوا البصرة وأقاموا بها شهراً ثم خرج إليه أهل الأبلة[١] فقاتلهم وجعل قطبة بن قتادة السدوسى[٢] وقسامة بن زهير المازنى[٣] فى عشرة فوارس وقال لهم «كونا فى ظهرنا فتردّان المنهزم وتمنعـان من أرادنا من ورائنا» وهو يعنى بذلك حماية ظهره فلا يباغته عدو من الخلف بينما هو يقاتل عدواً من الأمام، ويعنى أيضاً الوقوف فى وجه أى مسلم يفكر فى الإنسحاب.

ولم تطل المعركة وانهزم الفرس ودخل المسلمون المدينة وأصابوا فيها متاعا وسلاحا ومالا كثيراً وغادرها أهلها وقد حملوا ما خف من المتاع[٤].

وعلم عتبة بتجمع أهل دستمسيان[٥] لقتاله فعبر النهر وبادر إلى قتالهم وهزمهم وأسر قائدهم ثم فتح ميسان[٦].

وبلغ عتبة أن قوات العلاء بن الحضرمى فى الأهواز فى موقف حرج إذ طوّق الفرس قواته فلم تستطع الإنسحاب إلى قاعدتها فى البحرين عن طريق البحر، وأرسل عمر إلى عتبة يأمره بالعمل السريع وإنفاذ جيش كثيف إلى قوات العلاء لفك الحصار قبل أن تهلك؛ فامتثل عتبة وبعث

---

(١) مدينة كانت مرفأ للسفن القادمة من الصين تقع جنوب البصرة بمسافة خمسة عشر ميلا وبنيت البصرة والكوفة بإذن من عمر فى السنة الرابعة عشرة للهجرة بعد غزو عتبة للأبلة

(٢) صحابى استخلفه خالد على منطقة البصرة وبقى بها حتى قدم عليه عتبة

(٣) صحابى وتوفى فى ولاية الحجاج بن يوسف وجاء فى طبقات ابن سعد أنه من التابعين [ج ٧ س ١٥٢]

(٤) البلاذرى ص ٣٣٧

(٥) تكتب فى بعض المراجع دست ميسان وتقع قريبة من الأهواز

(٦) منطقة كثيرة القرى والنخيل قرب البصرة

[معجم البلدان ج ٨ س ٢٢٤]

إثنى عشر ألف مقاتل فيهم عاصم بن عمرو التميمى وعرفجة بن هرثمة والأحنف بن قيس فخرجوا على البغال يقودهم أبو سبرة بن أبى رهم فساروا حتى التقوا بقوات الفرس فهاجموهم وأنقذوا جيش العلاء فعاد سالماً إلى البصرة(١) .

وأراد عتبة أن يخضع منطقة الأهواز — وتقع إلى الجنوب الشرقى من العراق ويجرى فيها من فروع دجلة نهير دجيل وكارون وتفصلها بعض المرتفعات عن العراق العربى — وهى قريبة من الأبلة والبصرة ، وكان أهلها قد حدثوا أنفسهم بالثورة ضد المسلمين ، فأرسل عتبة بعض قواته إليها ، ثم طلب من سعد مدداً ، فأرسل إليه نعيم بن مقرن المزنى ، ونعيم بن مسعود ، وتم على أيديهم جميعاً فتح المنطقة وإخضاعها(٢).

ورغب عتبة أن يؤدى فريضة الحج ، فاستخلف المغيرة بن شعبه الثقفى(٣)، حتى يعود مجاشع بن مسعود(٤) من غزوته فى منطقة الفرات الجنوبى .

وعلم المغيرة أن أحد قادة الفرس استطاع أن يحشد قوة كبيرة هدد بها

---

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ٢٠٩

(٢) المرجع السابق ص ٢١٠

(٣) هو المغيرة بن شعبة بن أبى عامر بن مسعود الثقفى أمه أسماء بنت الأفقم ويكنى أبا عيسى وأبا محمد وأبا عبد الله أسلم عام الخندق وشهد بيعة الرضوان وحنين والطائف وقاتل فى حروب الردة تحت لواء خالد ثم حارب فى الأبلة والقادسية وكان رسول سعد إلى رستم وإلى كسرى وشارك فى حروب جنوب العراق وتولى الكوفة أيام عمر ثم عزله عثمان

(٤) سأل عمر عتبة « من استعملت على البصرة ؟ » فقال «مجاشع بن مسعود » فقال له « أتستعمل رجلا من أهل الوبر على رجل من أهل المدر » أى أتستعمل أعرابياً على حضرى [الطبرى ج ٣ ص ٩٤]

جيش مجاشع ، فخرج من البصرة على رأس جيش من المسلمين فلقى الفرس وانتصر عليهم ، وكتب إلى عمر بهذا النصر .

ولم يكن انتصاره على الفرس سهلا ، فقد اشتد القتال بين الطرفين ، وكان التفوق العددى فى جانب الفرس الذين استماتوا فى المعركة ، وفى خلال المعركة شاهد الفرس كتيبة مقبلة حسبوها مدداً للمسلمين ، فتضعضعت معنوياتهم وانهزموا ، واتضح أن هذه الكتيبة كانت لنساء المسلمين خرجن من أخبيتهن ، واتخذن من خمرهن رايات ، وسرن يردن معاونة الرجال[١].

وبعد أن أتم عتبة فريضة الحج أراد أن يبقى بالمدينة ، فلا يعود إلى الأبلة ، ولكن عمر رفض وأبى إلا أن يعود ، وبينما هو فى طريقه الى العراق وافاه الأجل ، وظل المغيرة على إمارة الجند حتى عزله عمر[٢] وعين مكانه أبا موسى الأشعرى[٣].

كان عزل المغيرة ، وتولية أبى موسى ، وحصار العلاء الحضرمى أثناء محاولته فتح اصطخر ، وانشغال المسلمين بفك حصاره وإنقاذه ، فرصة أمام أهل الأهواز ، رأوا فيها عدم استقرار المسلمين ، فقرروا الثورة ، ونقضوا عهدهم وأبوا دفع الجزية .

---

(١) المرجع السابق

(٢) قيل فى سبب عزله أنه أتى يوما أم جميل إحدى نساء بنى هلال وهبت ريح فتحت باب داره فشاهده أبو بكرة وجماعة معه عليها وخرج المغيرة ليؤم الناس للصلاة فمنعه أبو بكرة وكتب إلى عمر بما حدث فاستدعى المغيرة ومتهموه وعين مكانه أبا موسى وشهد ضده ثلاثة ولم يؤكد الرابع شهادته فلم يقم عمر عليه الحد ورفض إعادته إلى البصرة [الأغانى ج ١٤ ص ٣٢٨]

(٣) عاد عمر فعزل أبا موسى عن الكوفة وعين مكانه المغيرة وقال له « يا مغيرة ليأمنك الأبرار وليخفك الفجار » وبقى عليها حتى عزله عثمان بن عفان

[ابن الأثير ج ٣ ص ١٣]

وكان يزدجرد فى اصطخر[١] فكتب إلى أهل فارس يدعوهم إلى التعاون مع أهل الأهواز ضد العرب «قد رضيتم يا أهل فارس أن قد غلبتكم العرب على السواد وما والاه والأهواز ، ثم لم يرضوا بذلك حتى توردوكم فى بلادكم وعقر داركم ، فتحركوا أهل فارس تنتصروا» ، فتكاتب أهل فارس وأهل الأهواز ، وتعاهدوا على العمل المشترك ضد العرب .

ونقل سعد إلى عمر هذه الصورة ، فكتب إليه أن يبعث إلى الأهواز جيشاً كبيراً يقوده النعمان بن مقرن ، وكتب أيضاً إلى أبى موسى أن يبعث جيشاً يقوده سهيل بن عدى .

التقى النعمان بالهرمزان فى أربك[٢] بناحية رامهرمز ، واشتد القتال بين الجيشين ، وتراجع الهرمزان إلى رامهرمز ثم إلى تستر[٣] ، فاستولى النعمان على رامهرمز .

وفى تستر تحصن الهرمزان بأسوارها وبروجها ، والتقى جيش النعمان بجيش سهيل ، وقوبل الجيشان بمقاومة عنيفة ، فكتب أبو سبرة[٤] إلى عمر يصف له منعة تستر ويستمده ، فأمر عمر أبا موسى الأشعرى بالسير بكل جنده مدداً لأبى سبرة ، والقيادة لأبى سبرة ، واستمر المسلمون فى محاولاتهم لقهر قوة الهرمزان دون فائدة ، بل كانوا يتعرضون لخسائر فادحة نتيجة لخروج بعض الفرس من مواقعهم ومهاجمتهم ثم العودة إلى الحصن ، وكتب أبو موسى إلى عمر يصف له ما يلقونه ، فأمر الخليفة

---

(١) قيل فى رواية أخرى إنه كان فى مرو وفى رواية ثالثة أنه كان فى قم

(٢) ذكرت فى بعض المراجع أربل وأربق

(٣) تقع على نهر كارون شمال الأهواز على نحو خمسين فرسخاً منها وهى ذات أسوار منيعة وبروج

(٤) أحد قادة المسلمين كان على جند الكوفة والبصرة

عمار بن ياسر — وكان على الكوفة — أن يسير مدداً إلى أبي سبرة ، وأن يستخلف عبد الله بن مسعود .

وقرر المسلمون مهاجمة الحصن ، وعلم بذلك الهرمزان ، فأراد أن تكون الفرصة له ؛ فقرر الهجوم ، وبدأه فعلا ، وكان هو فى مقدمة جنده ، فلمحه البراء بن مالك واندفع إليه يريد قتله ، ولكنه أفلت منه ورماه بضربة قاتلة ، ورآه مجزأة بن ثور ، فأراد الثأر ، ولكن الهرمزان استطاع أن يقتله هو الآخر .

وجاء رجل من أهل تستر إلى أبي موسى ، وطلب الأمان لنفسه على أن يدل المسلمين على مكان يكون منه فتح المدينة ، ودلَّه الرجل على مدخل الماء للمدينة ، فوجه أبو موسى معه أشرس بن عوف الشيبانى ، فخاض به الرجل الماء ، ودخل به المدينة من سرب يجرى إلى جانب مدخل الماء ، ثم ردّه إلى أبي موسى الذى فرض للرجل ولأهله رزقاً .

ندب أبو موسى أربعين رجلا يقودهم أشرس ، وأتبعهم مائتين ، فسارت القوة فى الليل ، ودخلت المدينة ، وقتلت الحراس ، ثم علت الأسوار ، وكبّر أفرادها ، وسمع الهرمزان التكبيرة ، فتولاه الفزع ، وتوجه إلى قلعته وهو يردد جزعاً « ما دلّ العرب على عورتنا إلا بعض من معنا ممن رأى إقبال أمرهم وإدبار أمرنا » .

وفتح المسلمون أبواب المدينة ، واضطربت أمور الفرس داخلها ، حتى إنهم كانوا يقتلون أولادهم وأهلهم خوفاً من الغزاة .

وأحاط بعض المسلمين بالهرمزان الذى تحصن بقلعته ، فقال لهم « إن فى جعبتى مائة نشابة ، ووالله ما تصلون إلىّ ما دام معى منها نشابة ، وما يخيب لى سهم ، فما خير إسارى إذا أصبت منكم مائة بين قتيل وجريح » ، فسأله بعضهم عما يريد ، فأجاب « أن أضع يدى فى أيديكم على حكم عمر يصنع

بى ما شاء » ، فأجابه القوم إلى طلبه ، فرمى بقوسه ، وسلم نفسه ، فساروا به إلى أبى موسى ، فبعث به إلى عمر ، بصحبة أنس بن مالك والأحنف ابن قيس .

وعند ما وصلا به ، وجدا الخليفة نائماً بالمسجد ، فسأل الهرمزان — عند ما علم أن النائم هو عمر « أين حرسه وحجابه ؟ » ، فقيل له « ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب ولا إيوان » فعجب وقال « ينبغى أن يكون هذا الرجل نبياً ، فإلا يكن فإنه يعمل عمل الأنبياء ! » واستيقظ عمر ورأى الرجل فسأل « الهرمزان ؟ » ، فأجابه الرجلان « نعم » ، فتأمله عمر ثم قال « أعوذ بالله من النار ، وأستعين الله ، الحمد لله الذى أذل للإسلام هذا وأشياعه . يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين ، واهتدوا بهدى نبيكم ، ولا تبطرنكم الدنيا فإنها غدارة » .

ورفض عمر أن يحدّث الهرمزان حتى ينزع ما عليه من ملابس وحلى ، ففعل الناس به وألبسوه ثوباً صفيقاً ، ثم دار حديث طويل بين عمر والهرمزان[١] ، وتولى المغيرة بن شعبة ترجمة كلام الهرمزان إلى عمر وكلام عمر إليه ، ثم تولى عملية الترجمة بعده زيد بن ثابت ، وكان يجيد الفارسية .

وبانتهاء الحديث أعلن الهرمزان إسلامه ، وعاش بالمدينة ، وفرض له عمر ألفين ، وصار لا يفارقه وكان لا يضن على عمر بالمشورة[٢] .

---

(١) رأى الهرمزان الغضب فى عين عمر فطلب ماء ؛ وقال لعمر « إنى أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء » فقال له عمر « لا بأس عليك حتى تشربه » فأراق الهرمزان ما فى القدح من ماء قائلا « لا حاجة لى فى الماء ، إنما أردت أن أستأمن به »

(٢) عند ما قُتل عمر اتهم الهرمزان بالمالأة عليه وتدبير المؤامرة لاغتياله ، فقتله عبيد الله ابن عمر بضربة سيف خر صريعاً وهو يقول « لا إله إلا الله »

سوس

كان أهل سوس يناوشون المسلمين أثناء حصار تستر فلما استسلمت اتجه المسلمون إليها فحاصروها ، وبقوا على حصارها حتى نفذ ما بها من طعام ، فلجأ أهلها إلى طلب الصلح ، وطلب دهقانها من أبى موسى أن يؤمنه على حياة مائة من أهله ، ففعل ، اختار الدهقان المائة ونسى نفسه ، فأمر أبو موسى بقتله ، فعرض عليه مالا كثيراً ، فرفض أبو موسى المال ، وأمر به فضُربت عنقه .

وكان سياه الأسوارىّ قد خرج من أصبهان لقتال المسلمين بتحريض من يزدجرد ، فلما سمع بانتصارهم فى تستر قال لأصحابه « إن المسلمين لا يلقون جنداً إلا فلّوه ، ولا ينزلون حصناً إلا فتحوه ، فانظروا لأنفسكم » ، وحادثهم فى الدخول فى الإسلام فوافقوه ، فكتب إلى أبى موسى « إنّا قد رغبنا فى دينكم ، فنُسلم على أن نقاتل معكم العجم ولا نقاتل معكم العرب ، وإن قاتلنا أحد من العرب منعتمونا منه ، وننزل حيث شئنا ، ونكون فيمن شئنا منكم ، وتلحقونا بأشراف العطاء ، ويعقد لنا الأمير الذى هو فوقك بذلك » ، فأجابه أبو موسى « بل لنا ما لكم ، وعلينا ما عليكم » ، فرفض وأصحابه ، وعاد أبو موسى فكتب إلى عمر بشأنهم ، فأجابه « إعطهم ما سألوك » ، فأسلموا ، وفرض لهم أبو موسى ، وجعل لمائة منهم ألفين ، ولستة — هم زعماؤهم — ألفين وخمسمائة .

جندى سابور

بعد أن انتهى المسلمون من سوس اتجهوا إلى جندى سابور[1] ، فحاصروها زمناً ، ثم بعث رجالها يطلبون الصلح ، وفتحوا أبوابها أمام المسلمين ، وأقروا الجزية فوافق المسلمون وأجاز عمر الصلح .

---

(١) تقع على مقربة من سوس فى شمالها الشرقى

الباب التاسع

فتح الفتوح ونهاية الدولة الساسانية

يا أمير المؤمنين

ملكهم هو الذى يحرّضهم
ويبعثهم ولم يزل هذا دأبهم حتى
تأذن لنا بالانسياح فنسيح فى
بلادهم ونزيل ملكهم ونخرجه من
مملكته .

الأحنف بن قيس

فى حديث له مع الخليفة عمر بن الخطاب

نهـــاوند

أراد أمراء الفرس أن يعيدوا صفوفهم من جديد للوقوف فى وجه الخطر العربى ، فتجمعوا وكتبوا إلى كسرى يزدجرد ليكون على رأس التجمع الجديد والحشد المنتظر ، فوافق ، وأخذ يستحث أهل إيران ، ويثير حماسهم ، وكتب إلى جميع الولايات[1] فى مملكته يشجعهم على التجمع ووحدة الصف ، واستجاب الناس لدعوته ، فبعث كل أمير جنداً من عنده إلى نهاوند — منطقة الحشد — ، حتى أصبح عدد الجند بها مائة وخمسين ألفاً .

واستقر الرأى على أن يتولى الفيرزان قيادة الجيش ، فجمع جنده ، وخطب فيهم فقـــال « إن محمداً الذى جاء العرب بهذا الدين لم يتعرض لبلادنا ، وقام أبو بكر من بعده فلم يتعرض لنا فى دار ملكنا ولم يثر بنا إلا فيما يلى بلاد العرب من السواد ، وهذا عمر بن الخطاب لما طال ملكه انتهك حرمتنا وأخذ بلادنا ، ولم يكفه ذلك حتى أغزانا فى عُقر دارنا ، فأخذ بيت المملكة وانتقصكم السواد والأهواز ، وهو آتيكم إن لم تأتوه ، وليس بمنته حتى تُخرجوا مَن فى بلادكم من جنده وتقلعوا هذين المصرين : البصرة والكوفة ، ثم تَشغلوه فى بلاده وقراره » واشتعلت حماسة الجند فأقسموا أن يبذلوا غاية جهدهم حتى يتم لهم النصر .

وتحركت القوات من منطقة تجمعها إلى همذان وتابعت سيرها إلى حلوان .

وبلغت أخبار التحرك عمر بن الخطاب ، فقرر مواجهة الفرس ،

---

(١) من الولايات التى كتب إليها خراسان وحلوان وسجستان وطبرستان وجرجان ودماوند والرى وأصفهان وهمذان

وتذكر لتوه حديثاً كان قد أفضى به إليه الأحنف بن قيس « يا أمير المؤمنين ، إنك نهيتنا عن الإنسياح فى البلاد ، وأمرتنا بالاقتصار على ما فى أيدينا ، وإن ملك فارس حى بين أظهرهم ، وإنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام مَلِكهم فيهم ، فلم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه ، وقد رأيت أنّا لم نأخذ شيئاً بعد شيء ، إلا بانبعاثهم وغدرهم، وملكهم هو الذى يحرضهم ويبعثهم ، ولم يزل هذا دأبهم حتى تأذن لنا بالإنسياح فنسيح فى بلادهم ونزيل ملكهم ونخرجه من مملكته وعز أمته ، هنالك ينقطع رجاء أهل فارس ويسكن جأشهم »[١].

وتلقى عمر رسالة من إبن عتبان ينبئه بالتجمع والسير ، حتى أصبح الفرس على الطريق إلى الكوفة ، ويصور له الخطر الذى يتهدد المسلمين ، والفزع الذى تملك الناس ، فجمع عمر الناس فى المسجد ، وقال لهم « إن هذا اليوم له ما بعده ، ألا وإنى قد هممت بأمر فأسمعوا وأجيبوا وأوجزوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، أفمن الرأى أن أسير فيمن قبلى ومن قَدَرْت عليه حتى أنزل منزلا وسطاً بين هذين المصرين فأستنفرهم ثم أكون لهم رِدءاً حتى يفتح الله عليهم ويقضى ما أحب » .

واختلفت آراء الناس ، البعض يرأى أن يخرج عمر ، والبعض يطالب بسحب قوات الشام واليمن وتوجيهها إلى العراق ، والبعض يرى أن يبقى هو بالمدينة ويسرّح الجند إلى هناك .

وكان من رأى على بن أبى طالب أن يبقى عمر بالمدينة « أقم مكانك

---

١) كان عمر قد سأل عن سبب ثورات أهل الذمة على المسلمين ونقضهم لعهودهم معهم ، فأجابه الأحنف بهذا الرأى ، وقد صدق عليه الهرمزان وأقره ، فقال عمر للأحنف « صدقتنى وشرحت لى الأمر عن حقه »

واكتب إلى أهل الكوفة ، فهم أعلام العرب ورؤساؤهم ، فليذهب منهم الثلثان ، وليُقم الثلث ، واكتب إلى أهل البصرة يُمدّونهم » .

وكان من رأيه أيضاً ألا تتحرك قوات المسلمين من الشام أو من اليمن « إنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم إلى ذراريهم ، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم ، وإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت الأرض عليك من أطرافها وأقطارها » .

واقتنع عمر برأى على ، ووافقه الناس ، فأعلن أنه سيبقى بالمدينة ، ويرسل الجيوش إمداداً إلى بلاد الفرس .

وبدأ اختيار القائد العربى الذى تسند إليه عملية مواجهة الفرس بجموعهم وحشودهم ، والقضاء عليها ، والاحتفاظ بأرض العراق التى هى فعلا فى يد العرب المسلمين ، ومنع الفرس من إعادة احتلالها واسترجاعها وعرض عمر الأمر على أصحابه المجتمعين به « أشيروا على برجل أُوَلّه أمر هذه الحرب وليكن عراقياً » ، فقال له الناس « أنت أفضل رأياً ، وأحسن مقدرة ، وأبصر بجندك ، وقد وفد عليك أهل العراق وجنده فرأيتهم وخبرتهم » ففكر ملياً ثم قال « أما والله لأوَلين أمرهم رجلا يكون اول الأسنّة إذا لقيها غداً ، النعمان بن مُقَرّن »(١) ، فكبّر الناس وقالوا : « هو لها » .

وبعث عمر إلى النعمان بكتاب يقول فيه « بسم الله الرحمن الرحيم . . .

---

(١) القائد الجديد من رجال الحرب العرب ، مقدام شجاع حارب المرتدين فى ذى القصة وحارب تحت لواء خالد بن الوليد فى العراق ، وبقى بها بعد تحرك خالد إلى الشام وحارب تحت قيادة سعد بن أبى وقاص وأبلى فى حروب خوزستان ،عينه سعد والياً على كسكر فرفض أن يتولى عملا إداريا وهو رجل حرب ،فكتب إلى عمر يشكوه فأمر بأن يظل فى الميدان « إن النعمان كتب إلىّ يذكر أنك استعملته على جباية الخراج ، وأنه قد كره ذلك ورغب فى الجهاد ، فابعث به إلى أهم وجوهك »

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن ... سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فإنه قد بلغنى أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند ، فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين ، ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم ، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم ، ولا تدخلهم غيضة ، فإن رجلا من المسلمين أحب إلىّ من مائة ألف دينار ، فسر فى وجهك هذا حتى تأتى ماه ، فإنى قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها ، فإذا اجتمع إليك جنودك فسر إلى الفيرزان ومن جمع معه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم » .

وكتب عمر إلى عبد الله بن عتبان والى الكوفة « استنفر من أهل الكوفة مع النعمان بن مقرن كذا وكذا ، فإنى قد كتبت إليه بالتوجه من الأهواز إلى ماه ، فليوافوه بها وليسر بهم إلى نهاوند ، وقد أمّرت عليهم حُذَيفة بن اليَمَان حتى ينتهى بهم إلى النعمان » .

وكتب عمر أيضاً إلى أبى موسى الأشعرى « سر بأهل البصرة إلى ماه ، والأمير النعمان بن مقرن » ، وكتب إلى سَلمَى بن القين وحرملة ابن رُيطه وأمراء الجند بين فارس والأهواز « اشغلوا فارس عن إخوانكم ، وحوطوا بذلك أمتكم وأرضكم ، وأقيموا على حدود ما بين فارس والأهواز حتى يأتيكم أمرى » .

ولم ينس عمر أن ينظم القيادة ، فأمر بأن يتولاها النعمان ، فإذا أصيب تولاها من بعده حذيفة بن اليمان ، فإذا أصيب فنعيم بن مقرن ، «وإن حدث بك حدث (يقصد النعمان) فعلى الناس حذيفة بن اليمان ، وإن حدث بحذيفة حدث فعلى الناس نعيم بن مقرن » .

إن الإجراءات التى اتخذها عمر لمواجهة الفرس فى موقعة نهاوند

تتطلب وقفة لنوضح للقارىء مدى إدراك الخليفة العميق وفهمه الواضح لأمور المعركة ... فهو عند تقديره للموقف الحربى عند بلوغه هذه الرحلة الهامة قد أحس بأهمية اللقاء القادم ولذلك فإنه . . .

* قرر أن يحشد أكبر عدد من القاتلين لمواجهة العدو ، والحشد مبدأ هام من مبادىء الحرب ، اتفقت على فاعليته وأهميته غالبية المدارس العسكرية الحديثة ، والحشد يعنى أن يجمع القائد ما يستطيعه من قوات بقدر طاقته ويلقى بها فى وجه عدوه . . من أجل هذا كتب عمر إلى قوات الكوفة والبصرة بالتحرك والانضمام إلى قوات النعمان .

* رأى أن يحرم عدوه من حرية الحركة والقدرة على المناورة ، وأن يؤمن فى ذات الوقت قواته المقاتلة فى المعركة ، فأمر جنده بين فارس والأهواز بأن يشغلوا قوات فارس حتى تتمكن القوات الأصلية من مهاجمة العدو والقضاء عليه ، ويكون عمر بذلك قد طبق مبدأ إدخار القوى ، الذى يعنى حشد أكبر قوة فى مواجهة العدو الأساسى ، وتخصيص قوات أقل لعمليات ثانوية ، وهو يكون أيضاً قد طبق مبدأ الأمن فى المعركة بالنسبة للقوات المقاتلة .

* يوصى عمر النعمان بوصفه قائد القوات المقاتلة بجنده خيراً ، ويوضح له كيفية معاملته لهم ، فيأمره ألا يدفع بالجند إلى طريق وعر يؤذيهم ، وألا يحرمهم حقهم حتى لا يفقد ثقتهم وحبهم وحتى لا تهتز معنوياتهم ، وهو يقرر صراحة للقائد أن الجندى المسلم لا يعد له فى نظره شىء حتى لو كان هذا الشىء هو مائة ألف دينار ولهذا يجب عليه أن يحرص على سلامتهم وأمنهم وأن يوطد علاقته بهم وأن يجعل ما بينه وبينهم ثقة وأمناً وطمأنينة .

* ينظم عملية قيادة الجند خلال المعركة ، فهو يعرف أن قائد الجيش الإسلامى لا يكون بعيداً عن أرض المعركة ولكنه يعيش فى الصفوف الأولى ويتقدم جنده ، والمعركة القادمة ستكون معركة فاصلة بالنسبة للقتال الدائر فى بلاد الفرس ، لهذا لم يأمن عمر أن يظل النعمان قائداً للجيش الإسلامى طوال المعركة ، فهو يعرف عنه بسالته وشجاعته شأنه فى ذلك شأن بقية القادة المسلمين ولهذا قدر أن يُقتل النعمان خلال القتال ، فقرر أن ينظم عملية القيادة ، وهو بهذا الإجراء لا يأتى بجديد ، فالرسول الكريم فى موقعة مؤتة حدد تولى القيادة إذ استشهد القائد زيد بن حارثة ، فجعل القيادة من بعده لجعفر بن أبى طالب ، ثم لعبد الله ابن رواحة ، وكذلك فعل عمر فجعل القيادة للنعمان ثم لحذيفة ثم لنعيم ابن مقرن ، وهذا الإجراء يجعل المقاتلين فى اطمئنان نفسى وراحة فلا يفاجئون باستشهاد القائد فيضطرون إلى البحث عن قائد آخر يتولى أمرهم وقد لا يتفقون وتتفرق كلمتهم وتتولد أمامهم فى الميدان مشكلة قد تكون لها آثار سيئة . .

وفى ماه تجمعت قوات المسلمين وقد بلغت ثلاثين ألفاً ، وما أن تولى النعمان قيادتها حتى بعث بالعيون تأتيه بأخبار الفرس ، وكان من هذه العيون طليحة بن خويلد وعمرو بن معدى كرب وعمرو بن أبى سلمى المزنى ، وعاد الأخيران دون أن يقدما معلومات ذات قيمة ، أما طليحة فقد استطاع أن يصل إلى نهاوند[1] حيث جمع معلومات هامة ، وعاد بها إلى النعمان الذى أمر بالتحرك إلى هناك ، وما أن وصلت القوات إلى قرب

(١) مدينة عظيمة تقع بين حلوان وهمذان على ثلاثين فرسخاً إلى الشرق من حلوان وعشرة فراسخ غرب همذان ، بها مزارع وبساتين وفى وسطها حصن متين قوى الجدران

مواقع الفرس حتى أمر رجاله بأن يكبّروا ، فكبّروا ثلاث تكبيرات اهتزت لها قلوب الأعداء .

ولم يكن هذا اللقاء هو أول لقاء للفيرزان مع المسلمين ، فقد التقى بهم من قبل ، وعرف شجاعتهم فى الحرب ، وجرأتهم فى القتال ، وبأسهم عند الإلتحام ، فبعث إلى النعمان يطلب رسولا يكلمه ، فبعث إليه المغيرة ابن شعبة .

ودار بين الإثنين حديث طويل ، قال الفيرزان فى ختامه « ما منعنى أن آمر هؤلاء الأساورة حولى أن ينتظموكم بالنُشاب إلا تنجُّساً لجيفكم ، فإن تذهبوا نُخلِّ عنكم ، وإن تأبوا نُركم مصارعكم » فرد عليه المغيرة رداً مناسباً إذ قال « والله ما زلنا مذ جاء رسول الله نتعرف من ربنا الفتح والنصر حتى أتيناكم ، وإنا والله لا نرجع إلى ذلك الشقاء أبداً حتى نغلبكم على ما بأيديكم أو نُقتل بأرضكم » .

من هذا الحديث يبدو لنا ...

* أن الفيرزان ما زال يخشى لقاء العرب رغم كثرة جنده ولعله كان يعرف نتيجة اللقاء مقدماً ، وهو يذكرنا بموقف رستم حين بعث إلى العرب يطلب رسولا يكلمه فعرض عليه الصلح دون قتال تماماً كما فعل الفيرزان الذى عرض انسحاب المسلمين دون أن ينشب قتال بين الطرفين وهو بهذا العرض يؤكد خوفه من اللقاء .

* أن المغيرة لم يتأثر بتهديدات الفيرزان ، وأكد إيمان العرب العميق بنصر الله لهم ، وأوضح له أن العرب ستحاربهم حتى تنتصر عليهم أو تموت فى سبيل هدفهم .

* أن الكثرة العددية التى يتميز بها جيش الفرس لن تكسب

الحرب القادمة ، لأن الجيش العربي يتميز بالقدرة الحسية والإمكانيات المعنوية ، فسيوف العرب فى أيد قوية تحركها قلوب مؤمنة وعقول مدركة لعظم الرسالة .

وبعودة المغيرة أمر النعمان بحصار المدينة ، فتقدمت القوات وحاصرتها وكانت الحرب سجالا بين الطرفين ، وأحاط الفرس أسوار المدينة بحسك الحديد ، فتعذر على خيل المسلمين اجتيازه بينما ترك الفرس فُرَجاً يخرجون منها فيهاجمون قوات المسلمين ، ثم يعودون إلى داخل الأسوار .

جمع النعمان أصحاب الرأى من رجاله ، وقد رأى خوف المسلمين من إطالة مدة الحصار ، وقال لهم « قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون ، وإنهم لا يخرجون إلا إذا شاءوا ، وقد ترون الذى فيه المسلمون من التضايق من هذا الموقف ، فما الرأى الذى نستخرجهم به إلى المنابذة وترك التطويل ؟ »

أشار عليه البعض بتضييق الحصار ، وقال عمرو بن معدى كرب « ناهدهم وكاثرهم ولا تخفهم » فأغضب رأيه الحاضرين وقالوا للنعمان « إنما تناطح بنا الجدران ، والجدران أعوان لهم علينا » .

أما طليحة فقد أبدى رأياً استحسنه الناس جميعاً ووافقوا عليه قال « أرى أن تبعث خيلا مُؤْدِية(١) فيُحدِقوا بهم ثم يرموهم لينشبوا القتال ويُحمشوهم(٢) ، فإذا استحمشوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج ، أرّزوا إلينا استطراداً ، فإنّا لم نستطرد لهم فى طول ما قابلناهم ، وإنّا إذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا فى هزيمتنا ولم يشكوا فيها ، فخرجوا فجادّونا وجاددناهم حتى يقضى الله فيهم وفينا ما أحب » .

---

(١) أى معها سلاحها

(٢) أى يثيرون غضبهم

وافق الحاضرون على رأى طليحة ، واختير القعقاع بن عمرو ليتولى تنفيذ هذه العملية .

خرج القعقاع ، واقترب من الأسوار ، ورمى المدينة بالنبل ، ثم أظهر أنه ينوى اقتحام الأسوار ، فبرز بعض من الفرس لردّه عن السور ، وأعجل المسلمون كل من برز ، فأثاروا حماسة عدوهم ، فخرجوا إليهم طامعين فى قتلهم لقاتهم ، فاجتازوا الأسوار والحسك ، وثبت القعقاع أمامهم زمناً ، ثم ولىّ الأدبار ، فتبعه الفرس ، وأمعنوا فى تعقبه أملا فى اللحاق به ، ثم اندفع من خلفهم الجيش الفارسى كله وعلى رأسه الفيرزان ، وتركوا المدينة خالية من حماتها(١) ، كما تركوا حسك الحديد وراءهم .

وأدرك الفرس العرب قبيل الزوال ، فرموهم بالنُّشّاب والمسلمون فى مواقعهم لا يتحركون ، فإن النعمان لم يأذن لهم بالقتال إنتظاراً لزوال الشمس ، وأشار القوم على النعمان بالهجوم فرفض ، وقال له المغيرة « لو أن الأمر إلىّ علمت ما أصنع » ، فأجابه النعمان « رويداً تر أمرك ، وقد كنت تلى الأمر فتُحسن ، فلا يخذلك الله ولا إيّاك ، ونحن نرجو فى المكث مثل الذى ترجو فى الحثّ » .

ومر النعمان بين الصفوف وتحدث إلى جنده فقال « كل رجل منكم مسلط على ما يليه ، فإذا قضيت أمرى فاستعدوا ، فإنى مكبِّر ثلاثاً ، فإذا كبّرت الأولى فليتهيأ من لم يكن تهيأ ، وإذا كبّرت الثانية فليشد عليه سلاحه وليتأهّب للنهوض ، وإذا كبّرت الثالثة فإنى حامل إن شاء الله فاحملوا معى » .

ثم اتجه النعمان إلى ربه وقال « اللهم أعز دينك وانصر عبادك ، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك » .

---

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٤

وهكذا يكون النعمان قد حدد ساعة الصفر وحثّ الناس وأعدهم للمعركة.

وكبَّر النعمان ثم كبَّر ثم كبَّر الثالثة ، واندفع واللواء فى يده ، وانقض على الفرس ، والمسلمون من خلفه تشد عليهم وقد فوجئوا بالهجوم ، وسقطوا يتخبطون فى دمائهم ، والمسلمون يطيحون بالرؤوس ، وعندما زال عن الفرس أثر المفاجأة ، هاجموا هم أيضاً المسلمين ، واشتد القتال ، وكثر القتل فى الفرس لكثرة عددهم ، وانهمرت الدماء .

وبينما النعمان يشق طريقه وسط الصفوف زلق جواده فى الدماء فسقط به وصرعه ، فأخذ أخوه نعيم اللواء ، وسلمه إلى حذيفة بن اليمان .

وأقبل الليل والوطيس حام ، والفرس قد أصابهم الإعياء ، فتراجعوا منهزمين ، فإذا بحسك الحديد يوقف تراجعهم ، ويمعن المسلمون فيهم قتلا ، وهوى كثير من الفرس بخيلهم فى خندق لم يروه من شدة الظلام ، وهلك منهم فى الخندق ثمانون ألفاً ، ومات منهم ثلاثون ألفاً ، وهرب الباقى يريدون النجاة ، وكان معهم الفيرزان ، فشاهده نعيم بن مقرن ، فأمر القعقاع(١) بمطاردته وتعقبه ، فأدركه فى ثنيَّة همذان ، حيث سدت بعض الدواب من الحمير والبغال الطريق أمامه ، فترجل ، يريد الهرب فى الجبل ، فتبعه القعقاع راجلا ، وأدركه ، وقتله(٢) ، وأطلق المسلمون على هذه الثنية إسم « ثنية العسل » ، وقالوا حين عرفوا أن الدواب كانت تحمل عسلا « إن لله جنوداً من عسل » .

ودخل حذيفة نهاوند ، واستولى على ما فيها من أسلاب وغنائم ، وقد بلغت مبلغاً فاق كل ما توقعه المسلمون ، وبعث حذيفة بالخمس إلى عمر مع السائب بن الأقرع الذى عينه عمر على الأقباض .

---

(١) كان على المجردة وهى قوة من الفرسان تتقدم أمام المقدمة لحمايتها

(٢) ابن الأثير ج ٣ ص ٥

أما الفارون من الفرس ، فقد لجأوا إلى همذان ، فأسرع وراءهم القعقاع وحاصرهم فيها ، فلما عرف أميرهم ما أصاب الفيرزان ، بعث يطلب الصلح ، فصالحه القعقاع على أن يضمن لهم همذان ودستبى .

واغتبط المسلمون بالنصر العظيم وسموه « فتح الفتوح » .

وكان عمر أشد الناس اغتباطاً وتقديراً وإعجاباً ، فقد جاءه طريف ابن سهم بخبر النصر ، ثم جاء بعده السائب بن الأقرع فسأله عمر « ما وراءك ؟ » ، فأجابه « البشرى والفتح » ، فأمر عمر بزيادة عطاء الذين أحسنوا البلاء فمنح كل واحد منهم ألف درهم فوق فيئه .

وجمع أبو موسى الأشعرى قومه من جند البصرة الذين قاتلوا بنهاوند وسار بهم منصرفاً عنها ومر بالدّ ينور فأقام عليها خمسة أيام وقاتل أهلها فى اليوم الخامس ، فطلبوا الصلح فصالحهم على ما طلبوه وأقروا بالجزية والخراج ، كما طالبوه بالأمان على أنفسهم وأموالهم وأولادهم .

وصالح أبو موسى بعد ذلك أهل السِّيروَان وأهل الصَّيْمَرة .

* * *

وبعد هذه الانتصارات قسّم عمر المسلمين إلى ألوية ، وعين قادة لها ، ثم أمرها بالانسياح فى أرض فارس كلها ، وهذه الألوية هى :

لواء خراسان ويقوده الأحنف بن قيس .

لواء أردشير وسابور ويقوده مُجاشع بن مسعود السُّلمى .

لواء إصطخر ويقوده عثمان بن أبى العاص الثقفى .

لواء دارابجرد ويقوده سارية بن زُنيم الكِنانى .

* ولواء كرمان ويقوده سهيل بن عدى .
* ولواء سجستان ويقوده عاصم بن عمرو .
* ولواء مُكران ويقوده الحكم بن عمرو التغلبى .

* * *

وبانتصار المسلمين فى نهاوند أصبح الموقف كالآتى :

١ — الفرس . . . انحطت معنوياتهم واضطربوا وفقدوا الأمل فى العودة بدولتهم إلى ما كانت عليه . .

ويزدجرد لا يعرف كيف يوقف تيار الغزاة الجارف . . . هل يسعى إلى مصالحة العرب فيبقى على ما بقى له من ملكه أم يظل على موقفه ويحاربهم ؟ ... ولكن كيف يحاربهم وقد انفض من حوله مرازبة فارس وأمراؤها ولن يستجيب إليه واحد منهم وخاصة بعد الهزيمة المرّة فى نهاوند . . . ولم يعد أمامه سوى أن يترك أمره للقدر يفعل به ما يشاء .

وحتى المرازبة فقد أخذ كل واحد منهم يفكر فى مصير ولايته . . . هل يدفع عنها الغزاة أم يصالحها على أن يظل والياً باسمهم عليها . . وانقطعت صلتهم بكسرى بل انقطعت صلتهم بعضهم ببعض ، وترك كل منهم أيضاً أمره للقدر يفعل به ما يشاء ...

٢ — العرب . . ارتفعت معنوياتهم بعد النصر العظيم الذى أحرزوه فقرروا أن يكونوا سلاحاً طيعاً فى يد الخليفة يوجهه أينما شاء . .

وكان الخليفة سعيداً بجنده فخوراً بهم فقرر أن يطارد يزدجرد حتى يقضى عليه وعلى دولته ، لأنه آمن بما قاله له الأحنف بن قيس « لم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه » و « .... فنسيح فى بلادهم ونزيل ملكهم ونخرجه من مملكته وعز أمته ، هنالك ينقطع رجاء أهل فارس ويسكن جأشهم » .

وقرر عمر أن يحتل العرب العراق العجمى فيحمون ظهرهم ويؤمنون خط رجعتهم ويسيطرون على طرق الإمداد من شبه الجزيرة ومن العراق العربى وكان من أهم عوامل هذا الاتجاه فى تقدير عمر للموقف أن العراق العجمى يتوسط ولايات المملكة كلها ففى شماله أذرَبيجان وطبرستان وجيلان ، وفى شرقه صحراء إيران ، وفى جنوبه فارس وكرمان ، وفى غربه وجنوبه الغربى العراق العربى وخوزستان . . هذا فوق أنه توجد فى العراق العجمى مدن كبيرة إذا سقطت فى أيدى المسلمين فتحت أمامهم الأبواب إلى إيران .

أصبهان

كان أمام الخليفة عمر — لتنفيذ هدفه الذى استقر عليه رأيه — محوران للتقدم :

الأول . . . من همذان إلى الرّى .

الثانى . . . من نهاوند إلى أصبهان[1] .

---

(١) ذكرت فى بعض روايات أصفهان

وهى مدينة عظيمة كانت عاصمة لإقليم من أقاليم العراق العجمى يطلق اسمها عليه وتتألف من مدينتين متجاورتين جىّ واليهودية والأخيرة كانت مستعمرة أنشأها يزدجرد بناء على طلب زوجته اليهودية شوشن دخت ، وجىّ من أصح المواقع تربة وأطيبها هواء وأعذبها ماء ولهذا سكنها الملوك

[معجم البلدان ج ١ ص ٢٦٩]

وكان يزدجرد قد انتقل فى هذه الأثناء إلى أصبهان ، وأخذ يحرض أهلها على الثورة والمقاومة ، ولهذا قرر عمر التقدم إلى أصبهان أملا فى أسر يزدجرد .

وتحرك الجيش العربى يقوده عبد الله بن عبد الله بن عتبان[١] ، وقيل إن الخليفة شاور الهرمزان « ما ترى ؟ أبدأ بفارس أم بأذربيجان أم بأصبهان ؟ » ، فأجابه « إن فارس وأذربيجان الجناحان ، وأصبهان الرأس ، فابدأ بالرأس » .

ولحق بعبد الله مدد من البصرة يقوده أبو موسى الأشعرى ، وفى ظاهر أصبهان لقيه جيش للفرس كبير العـــدد يقوده شهربراز ابن جاذويه[٢] ، وهو — رغم أنه كان طاعناً فى السن — من أبطال الفرس المعدودين ، ومن المبارزين الذين لم يثبت لهم فى الميدان خصم .

واشتد القتال وحمى وطيسه ، ورأى شهربراز أن عدد القتلى من جنده يتزايد ، وخشى أن يدخل الضعف إلى نفوس جنده ، فدعا إلى البراز ، فبرز له عبد الله بن ورقاء الرياحى[٣] ، وقتله ، فلما رأى الفرس شدة المسلمين وجلدهم وصبرهم فى القتال ، اضطربوا ، وزاد جزعهم عندما شاهدوا مصرع قائدهم ، فتراجعوا من مكانهم — الذى أطلق عليه إسم « رستاق الشيخ »[٤] ، ذكرى للفارس الشيخ الذى خرّ صريعاً فى بداية المعركة — إلى جَىّ[٥] يحتمون بأسوار أصبهان المنيعة .

---

(١) من أصحاب رسول الله شهد حرب الردة ثم حارب فى العراق ، وهو فاتح نصيبين استخلفه سعد على الكوفة ، واستعمله عمر عليها ، وفتح أصبهان ، وشارك فى فتح كرمان

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٢٠٤
واسمه بالفارسية هو شهريار

(٣) كان قائد المقدمة فى المعركة

(٤) الرستاق مجموعة من القرى [ابن الأثير ج ٣ ص ٧]

(٥) تسمى الآن شهرستان [معجم البلدان ج ٣ ص ١٩٦]

وتقدم عبد الله إلى جيّ ، وحاصر أصبهان ، وطال الحصار كثيراً ، وكان الفرس يخرجون لقتال المسلمين ثم يعوذون إلى الحصون ، ولما ضاقوا بالحصار ، خرجوا للقتال ، واصطف الجيشان وكاد القتال أن يبدأ ، لولا أن قائد الفرس[1] ، خاطب عبد الله « لا تقتل أصحابي ولا أقتل أصحابك ، ولكن أبرز لي ، فإن قتلتك رجع أصحابك ، وإن قتلتني سالمك أصحابي ، وإن كان أصحابي لا تقع لهم نُشّابه » فخرج عبد الله وقال لقائد الفرس « إما أن تحمل علي ، وإما أن أحمل عليك » فقال الفارس « أحمل عليك » وحمل عليه ، وطعنه طعنة أصابت سرج فرسه فكسرته ، فوقع عبد الله ثم عاد فاستوى على الفرس دون سرج ، وقال لخصمه « أثبت » ، ولكنه خاف واستكان بعد أن أيقن أنه الموت فقال « ما أحب أن أقاتلك ، فإني قد رأيتك رجلا كاملا ، ولكن ارجع معي إلى عسكرك فأصالحك وأدفع المدينة إليك على أن من شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله ، وعلى أن تجرى من أخذتم أرضه[2] مجراهم ويرجعون ، ومن أبى أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه » . . وأقرّ عبد الله هذا الصلح على هذه الشروط[4] ، ودخل أهل أصبهان في الذمة إلا ثلاثين رجلا[3] .

همذان

في الوقت الذي كانت تدور فيه معركة أصبهان ، تجمعت أعداد ضخمة

---

(١) كان يطلق عليه لقب الفاذوستان ولم يطلق هذا اللقب إلا على أربعة فقط من الفرس هم حكام الدولة الفارسية [الفاروق عمر ج ٢ ص ٣٨]

(٢) في رواية أخرى « ... وعلى أن تجرى من أخذتم أرضه عنوة ... » [الفاروق عمر ج ٢ ص ٢٩]

(٣) الطبري ج ٣ ص ٢٢٥

(٤) اختلفت الروايات بالنسبة لفاتح أصبهان فقيل أنه عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي ولكنه قتل في نصيبين وعمره أربع وعشرون سنة فكأنه في وقت هذا كان صبياً وقيل إنه أبو موسى الأشعري ولكن أبا موسى كان مدداً لعبد الله وليس قائداً للجيش

من الفرس تحت قيادة اسفنديار الرازى ، شقيق رستم ، وعرف أهل همذان بأخبار هذا التجمع ، فتشجعوا ونقضوا صلحهم مع المسلمين ، فأمر عمر نعيم بن مقرن بالسير إليهم ، ولكن أهالى همذان عادوا فندموا ، فلما حاصرهم نعيم طلبوا الصلح ، فوافق على أن تبقى قوة من المسلمين فى المدينة يقوم أميرها باستلام الجزية ، وهكذا بقيت قوات نعيم كاملة غير مجهدة حتى تلقى القوات المتجمعة تحت قيادة اسفنديار .

واج روذ

تزايدت القوات التى حشدها اسفنديار ، وبدأت تتحرك نحو نعيم من جهات مختلفة ...

* الديلم وعلى رأسهم أميرهم موتا ...
* وأهل الرىّ يقودهم الزينبى أبو الفَرُّخان[1] ...
* وأهل أذربيجان وعليهم اسفنديار ...

وكانت هذه الجيوش تتجه إلى واج رُوذ .

وبعث نعيم بجماعات استطلاع تأتيه بأنباء التجمعات وتحركاتها ، ثم استخلف على همذان يزيد بن قيس ، وتحرك بقواته حتى أصبح فى مواجهة جيوش الفرس التى سارعت بشن هجوم مفاجىء صمد له المسلمون ، واشتد القتال حتى إذا ما أقبل المساء كانت قوات الفرس قد انكشفت مهزومة بعد أن قتل المسلمون عدداً كبيراً .

وحمل عروة بن زيد الخيل[2] ، أنباء الانتصار فى همذان وواج روذ

---

(١) اسمه بالفارسية الزنبدى واسم الزينبى أطلقه عليه المؤرخون العرب .

(٢) كان عمرو قد حمل إلى عمر أنباء هزيمة الجسر فلما رآه عمر مقبلا عليه ظن أن المسلمين قد هزموا فقال « إنا لله وإنا إليه راجعون ففطن عمرو وبشره بالنصر »

إلى عمر بالمدينة «أحمد الله فقد نصرنا وأظهرنا» ، فسمّاه عمر «البشير» ، وبعث معه بكتاب إلى نعيم يقول فيه «أما بعد فاستخلف على همذان وسر حتى تقدم الريّ ، وتلق جمعهم ثم أقم بها فإنها أوسط تلك البلاد وأجمعها لما تريد»(١) .

الريّ

أقر نعيم يزيد بن قيس على همذان ، ثم سار بقواته إلى الريّ حيث تجمعت قوات الفرس والديلم المنهزمة فى واج روذ ، وكان ملك الريّ واسمه سياوخش بن مهران قد أيقن أن العرب سيهاجمونه بعد أن يفرغوا من واج روذ ، فاستمد أهل دُنباوند وطبرستان وقُومَس وجُرجان «قد علمتم إنْ هؤلاء حلوا بالريّ أنه لا مقام لكم» ، فأمدوه بقوات كثيرة حتى أصبحت قواته ضعف قوات نعيم عدداً وعُدة ، وتحصنت القوات داخل الريّ وهى ذات مناعة وقوة أصلا .

وحدث خلاف بين الزينبى أمير الفَرُّخان وسياوخش ملك الرى ، إذ عنف الأخير الزينبى لانهزامه أمام المسلمين ، وعزله عن عمله ، فغضب الزينبى ، وانضم إلى نعيم وحالفه .

وبدأ القتال واشتد حتى انتهى النهار وأقبل الليل ... ودلّ الزينبى نعيماً على طريق النصر فقال «إن القوم كثير وأنت فى قلة ، فأبعث معى خيلا أدخل بهم مدينتهم من مدخل لا يشعرون به وناهدهم أنت ، فإنهم إذا خرجوا إليك لم يثبتوا لك» .

---

(١) صدق عمر فى وصفه الرى بأنها أوسط البلاد فهى مدينة لها مكانة مرموقة تقام بها المعابد حول بيوت النار ، وتهوى زيارتها فى المواسم الدينية نفوس كثيرة ، ولهذا فالدفاع عنها واجب مقدس ، هذا فضلا عن كونها ملتقى تجارة واسعة بين الشرق والغرب

وخرجت فى الليل قوة من الخيل يقودها المنذر بن عمرو(١) ، وأخذ المدافعون على غرة ، فانهزموا ، ودخل نعيم المدينة ، وأمعن المسلمون فى قتل أهلها ، وكان فى مقدمتهم موتا ملك الديلم ، وفر ملك الرىّ ، وصالح نعيم الزينبى وعينه ملكا مكان سياوخش ، وهدم قلاع المدينة ، وخرّب حصونها ، ثم كتب إلى عمر بالفتح ، وبعث إليه بأخماس الفىء .

مواقع أخرى

تقدم سويد بن مقرن إلى "قومس(٢) ، فصالحه أهلها .

وصالح نعيم أهل دنباوند(٣) على مائتى ألف درهم يدفعونها سنوياً على ألا يغار على أرضهم ، وألا يدخل عليهم بغير إذنهم ما وفوا بعهدهم .

تقدم سويد بقواته وعسكر فى بسطام ، ثم بعث إلى ملك جرجان(٤) يدعوه إلى الصلح أو القتال ، فصالحه الملك عن دهستان وجرجان على جزية يؤديها أهلها ولهم الذمة والمنعة والأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم .

ولاحظ ملك طبرستان(٥) أن المسلمين قد أحاطوا به من الجنوب والشرق ، فقد استولوا على الرىّ ، وصالحوا أهل جرجان ، فآثر مصالحتهم وبعث إلى سويد يعرض عليه الصلح ، فصالحه على طبرستان وجبل جيلان على أن يدفع أهلها جزية كل عام .

---

(١) ابن أخى نعيم

(٢) منطقة واسعة تمتد بين الرىّ ونيسابور بها مدن وقرى ومزارع وتفصلها عن بحر قزوين جبال طبرستان التى تقع فى شمالها

(٣) تقع على جبل قريب من الرىّ

(٤) تقع إلى الجنوب الشرقى من شاطىء قزوين

(٥) تقع جنوب بحر قزوين بجوار جرجان

وأمر عمر أن يتولى عتبة بن فرقد(١) وبكير بن عبد الله إخضاع أذربيجان(٢)، وفى الطريق إليها قابل بكير — وكان على المقدمة — إسفنديار ابن الفرخزاد — وكان عائداً بجنوده بعد هزيمته فى واج روذ — فهاجمه، وأسره، وهمّ بقتله لولا أن اسفنديار عرض عليه أن يبقيه حتى يتم فتح أذربيجان، وسأله «الصلح أحب إليك أم الحرب؟»، فأجابه بكير «بل الصلح»، فقال له «فأمسكنى عندك»، وكان أخوه بهرام قائداً لقوات أذربيجان، فقضى عليه عتبة(٣)، وصالح اسفنديار على أذربيجان، وأعطاه كتاباً بالأمان لأهلها على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم، على أن يؤدوا الجزية، وجاء فى كتاب عتبة «بسم الله الرحمن الرحيم... هذا ما أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان سهلها وجبالها وحواشيها وشفارها وأهل مللها الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم، على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم، وليس على صبى ولا امرأة ولا زمن(٤) ليس فى يديه شىء من الدنيا، ولا متعبد ليس فى يديه من الدنيا شىء، لهم ذلك ولمن سكن معهم، وعليهم قرى المسلم من جنود المسلمين يوماً وليلة ودلالته، ومن حشر منهم فى سنة وضع عنه جزاء تلك السنة، ولمن أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك، ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حرزه»(٥).

---

(١) أسلم قبل غزوة خيبر ونال شرف الصحبة والجهاد، وحارب المرتدين، وأسهم فى حرب العراق

(٢) تقع إلى الغرب من طبرستان تحدها شمالا بلاد الديلم وجنوبا العراق العربى وهى منطقة جبلية يبلغ ارتفاعها ١٥٠٠متر، وأذربيجان كلمة فارسية معناها أرض النار وسميت كذلك لكثرة ما بها من معابد النار، وغير العرب اسمها فأصبحت مازندجران [معجم البلدان ج ١ ص ١٥٩]

(٣) تمكن بهرام من الفرار حين هزمت قواته

(٤) أى المريض بمرض مزمن

(٥) الطبرى ج ٣ ص ٢٣٥

ويتضح من دراسة هذا الكتاب أن الإسلام دين عدل وانصاف فى ضوء الآتى :

* فرضت الجزية لحماية المغلوبين فى أموالهم وعقائدهم وأعراضهم .
* لم تفرض جزية على الأطفال والنساء والمرضى والمتعبدين .
* لا يدفع الجزية من يشترك مع المسلمين فى عمل عسكرى
* ضمن الكتاب حرية العقيدة والتنقل والأمان للمغلوبين

وتقدم عبد الرحمن بن ربيعة على رأس قوة من المسلمين إلى فُرْضة(١) فكتب إليه أميرها « إنى بإزاء عدو كَلِب ، وأمم مختلفة ، ولست أنا من القَبَج ولا من الأرمن فى شىء ، وإنكم قد غلبتم على بلادى وأمتى ، فأنا منكم ويدى مع أيديكم ، وجزيتى إليكم والنصر لكم ، والقيام بما تحبون ، فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا بعدوكم » .

وقدم الأمير على عبد الرحمن فأرسله إلى سُراقة بن عمرو قائد الجيش ، وكتب سُراقة بشأنه إلى الخليفة عمر وطلب منه الرأى فى إعفاء من يقوم مع المسلمين فى حرب العدو(٢) ، فوافق عمر على الإعفاء ، على أن يدفع الجزية من أقام ولم ينهض مع المسلمين .

وبعث سُراقة بقواته إلى الجبال المجاورة ، فرضى أهلها بالجزية دون قتال ، ثم توفى سُراقة وخلفه عبد الرحمن ، فخرج لغزو الترك إلا أن عمر قُتل أثناء القتال ، فتوقف عبد الرحمن عن متابعتهم ، وكانوا قد اعتصموا

---

(١) على بحر قزوين سميت الباب وباب الأبواب .. كانت محصنة ،وضعت سلاسل على مداخلها ، فلا تدخل سفينة أو تخرج إلا باذن

(٢) جاء فى بعض الروايات أن سراقة أعفى من يقوم مع المسلمن فى حرب العدو ثم بعث إلى عمر يستشيره فيما قرره فوافقه عمر

بالجبال(١) .

وفى الوقت الذى كان المسلمون يغزون هذه المنطقة من أرض كسرى ، كان عثمان بن أبى العاص الثقفى يركب البحر من البحرين ومن البصرة ، ليغزو ولاية فارس ، فعبر الخليج الفارسى إلى جزيرة أبزكاوان ، واستولى عليها ثم نزل بأرض فارس ، وحاصر مدينة توّج ، وكان مجاشع بن مسعود يحاصرها من قبل ، ولما طال حصارها وهنت مقاومتها ، فاستسلمت وفُرضت عليها الجزية .

وسار مجاشع بعد ذلك إلى سابور وأردشير ففتحهما .

وتقدم عثمان بن العاص إلى إصطخر(٢)، حيث جمع الهربَز كل قواته للدفاع عنها ، وقد عزم على صد المسلمين أو الموت دونها ، ولما علم بتحرك المسلمين إليها ، تقدم لمقابلتهم عند ضاحية جور ، فزمه المسلمون ، وعاد سريعاً إلى إصطخر ، وتحصن بأسوارها ، وقاوم المسلمين ، ولكن طول الحصار أضعف روح المقاومة عنده ، فاستسلم ورضى بالجزية ، وجمع عثمان الفىء — وكان عظيما — فبعث بالخمس إلى عمر فأقامه والياً على البحرين .

وبينما جنود عثمان تغزو إقليم فارس ،كان سهيل بن عدى(٣) يغزو كرْمان(٤) فاستسلمت له وقبلت الجزية(٥) .

---

(١) عاد عبد الرحمن إلى قتالهم فى عهد عثمان

(٢) هى أول عاصمة للفرس فى أرض إيران وكانت موطن الساسانيين أ كاسرة الفرس وكانت مركزاً دينياً

(٣) أسلم مبكراً وشهد بدراً وأحداً وحارب مع الرسول غزواته كلها وجاهد المرتدين ثم أسهم فى حروب العراق واستشهد أخوه الحارث فى الجسر

(٤) ولاية كبيرة ذات بلاد وقرى واسعة [معجم البلدان جـ ٧ ص ٢٤١]

(٥) الطبرى جـ ٣ ص ٢٥٥

وكان الحكم بن عمرو التغلبي يغزو مُكران فاستسلمت له بعد قتال عنيف ورضيت بالجزية .

وبعث عمر بعاصم بن عمرو إلى سجستان(١)، وبعث من ورائه بعبد الله ابن عمير ، وتحصن أهل سجستان بعاصمتهم زَرَنْج ، فحاصرها المسلمون حتى طلب أهلها الصلح .

ودخل الأحنف بن قيس خراسان ووصل إلى هَرَاة(٢) فاحتلها ، ثم تقدم إلى مرْو الشَّاهجان(٣) ، حيث كان يزدجرد ، فلما سمع بتحرك الأحنف غادرها إلى مرْو الروذ ، فتابعه إليها الأحنف ، فأسرع إلى بلخ ، ووصلت إلى الأحنف إمدادات من الكوفة ، فتابع يزدجرد إلى بَلْخ وحاصرها ، ولكن يزدجرد فرَّ منها فدخلها الأحنف ، وأقام ربعي ابن عامر عليها ، وعاد إلى مرو الروذ وجعل فيها مركز قيادته .

وعلم عمر بنجاح الأحنف ، إلا أنه خشي من هذا التقدم الذي أحرزه المسلمون في هذه المناطق ، فقد طالت خطوط مواصلاتهم ، وتوزعت قواتهم في أرجاء الشام والعراق وفارس ، كما أن التوغل فيما وراء فارس قد يثير التتار والمغول فيثورون دفاعاً عن أرضهم وأنفسهم ، ولهذا رأى عمر أن يوقف التقدم حتى يستتب الأمر وتستقر أوضاع الحكم في هذه المناطق .

الحرب مع خاقان الترك

أما يزدجرد فقد نزل بسمرقند ، واستنجد بخاقان الترك الذي حشد

---

(١) تقع شمال مكران

(٢) مدينة كبيرة في قلب خراسان

(٣) عاصمة خراسان تقع شمال هراة وبينهما تقع نيسابور

جنده وسار بهم ومعه يزدجرد ليلقى المسلمين فى خراسان ، فعبروا جميعاً إلى بلخ ، فتراجع جند الكوفة إلى مرو الروذ وانضموا إلى قوات الأحنف ، ورأى الأحنف أن قوات عدوه كثيفة ، فقرر أن ينسحب إلى موضع يجرى نهر مروالروذ أمامه ويقوم جبل من خلفه ، ليكون النهر خندقاً بينه وبين العدو ، ويكون الجبل حصناً فلا يؤتى من الخلف ، وجمع جنده وقال لهم « إنكم قليل وإن عدوكم كثير فلا يهولنكم ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ، ارتحلوا من مكانكم هذا فاسندوا إلى هذا الجبل فاجعلوه فى ظهوركم ، واجعلوا النهر بينكم وبين عدوكم ، وقاتلوهم من وجه واحد » .

وفى هذه الأثناء وصلت إلى الأحنف رسالة من عمر يقول فيها « أما بعد ، فلا تجوزون النهر ، واقتصر على ما دونه ، وقد عرفتم بأى شىء دخلتم على خراسان ، فداوموا على الذى دخلتم به ، يدم لكم النصر ، وإياكم أن تعبروا فتنفضوا » .

وبعث الأحنف بهذه الأوامر إلى الترك ، فاطمأنوا إلى أن العرب لن يدخلوا عليهم ، وتأكدوا من ذلك حين وقفوا فى مواجهتهم على الضفة الأخرى من النهر ، فلم يحاولوا عبورها إليهم ، ولم يحاولوا دعوتهم للقتال ، فجمع خاقان الترك جنده وقال « لقد طال مقامنا ، وما لنا فى قتال هؤلاء القوم من خير ، فانصرفوا بنا » ، وارتد بجيشه حتى بلغ بلخ ، وبعد أ تأكد أن العرب لا يريدون به شراً ترك فارس وغادرها إلى بلاده .

نهاية الدولة الفارسية

استطاع يزدجرد أثناء وجوده مع خاقان الترك أن يجمع تحت قوة فارسية ، تقدم بها إلى مرو الشاهجان ، حيث يوجد النعمان ، - ومن معه من المسلمين ، واستخرج من المدينة خزائنه وكانت جواهره وكل ما كان قد جمعه من خزائنه أثناء فراره .

وعندما انسحبت قوات الترك إلى بلادها ، أسقط فى يده ، فقرر أن يحمل خزائنه ويلحق بحليفه ، فلما عرف أهل فارس بما قرره سألوه « أى شىء تريد أن تصنع ؟ » ، فأجاب « أريد اللحاق بخاقان فأكون معه أو بالصين » ، فقالوا له « مهلا ، إن هذا رأى سوء فإنك إنما تأتى قوما فى مملكتهم وتدع أرضك وقومك ، ولكن إرجع بنا إلى هؤلاء القوم فنصالحهم ، فإنهم يلون بلادنا ، وإن عدواً يلينا فى بلادنا أحب إلينا مملكة من عدو يلينا فى بلاده » ، فرفض رأيهم ، فسألوه أن يترك الخزائن « فدع خزائننا نردها إلى بلادنا ومن يليها ، ولا تخرجها من بلادنا إلى غيرها » ، فخالفهم ورفض ، وأصر على حملها معه ، فثاروا به وقاتلوه ، واستولوا على الخزائن ، ففر إلى بلخ ثم تابع فراره حتى فرغانة عاصمة الترك بسمرقند .

واستسلم أهل فارس للأحنف ، وصالحوه ، ودفعوا إليه خزائن كسرى وأمواله ، وكتب إلى عمر بالفتح ، وبعث إليه بالأخماس ، فخطب عمر فى الناس وقال « ألا إن الله قد أهلك ملك المجوسية وفرّق شملهم ، فليسوا يملكون من بلادهم شبراً يضر بمسلم ، ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون ، والله بالغ أمره ، ومنجز وعده ، ومتبع آخر ذلك أوله ، فقوموا فى أمره على رجل يوف لكم بعهده ، ويؤتكم وعده ، ولا تبدلوا ولا تغيروا فيستبدل الله بكم غيركم ، فإنى لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلا من قبلكم » .

الباب العاشر

... وانتصر المسلمون

قال رستم

أما بعد ، فرمّوا حصونكم واستعدوا
وأعدوا ... إننى لا أرى هؤلاء القوم
الا سيظهرون علينا ويستولون
على ما يلينا ...

فى رسالة له
إلى أخيه البندوان

الجولة الأخيرة

انتهت حروب العراق وفارس فى عهد عمر بن الخطاب .

ولكن أهل فارس كانت فى نفوسهم غضبة لهذه الهزيمة المرّة التى حاقت بهم ، ورفضوا أن يخضعوا للعرب ، وأن يعيشوا تحت ظلهم يسودهم السلام ، وترفرف عليهم سماحة الإسلام ورحمته ومبادؤه الخالدة السامية ، هذا بالرغم من أن العقلاء من أبناء فارس رأوا أن يدينوا بدين الحاكمين ، وأن يندمجوا قدر استطاعتهم فى المجتمع الجديد أملا فى أن يبقى لهم شىء من السلطة والسلطان ، فأقبلوا على الإسلام ودخلوا فيه ، فأصبحوا مسلمين وأصبح لهم ما للمسلم من حقوق وعليهم ما على المسلم من واجبات . . . أى أصبحوا متساوين مع المسلمين وأنداداً لهم .

أما الغالبية التى لم تطمئن نفوسهم لحكم العرب وبرموا به ، فقد حاولوا الانتفاض عليه ، فلما فشلوا وخاب مسعاهم ، اضطروا إلى أن يواجهوا الحياة فى ظل الحكم العربى الجديد على أن يسعوا إلى أن يكون لهم نفوذ وسطوة وسلطان ، ولقد قيل إنهم تآمروا على عمر لأنه هو الذى أشرف على الفتح العربى ووجهه وقاده حتى تم على الصورة التى تمثلت فى قوله إلى الأحنف بن قيس بعد فتح خراسان « إن الله قد أهلك ملك المجوسية وأورث الإسلام أرضهم وديارهم وأبناءهم ... » فالمعروف أن عمر قُتل بيد رجل فارسى يدعى أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة وكان قد وقع أسيراً فى نهاوند .

مقتل عمر

فكما روى المؤرخون خرج عمر يوما يطوف بالسوق فلقيه أبو لؤلؤة وتقدم إليه ، ثم طلب منه « يا أمير المؤمنين أعدنى على المغيرة بن شعبة

فإن عليّ خراجاً كثيراً » ، فسأله عمر « وكم خراجك ؟ » ، فقال « درهمان فى كل يوم » ، فأعاد عمر سؤاله عن حرفته فقال « نجار ونقاش وحداد » ، فأوضح له عمر أن الخراج بسيط قليل بالنسبة لهذه الأعمال التى يقوم بها ، ثم طلب منه أن يصنع له رحى تطحن بالريح ، فأجابه المجوسى القاتل — الذى وصفه عمر عند ما طعنه « بالكلب » — بإجابة فيها تهديد صريح واضح فقد قال « لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بها مَن بالمشرق والمغرب » ، وقد أحس عمر بهذا التهديد فقال « لقد توعدنى العبد » ... وفى اليوم التالى(١) خرج عمر إلى المسجد ليؤم الناس لصلاة الفجر واتخذ مكانه فى المسجد ، وفجأة ظهر أبو لؤلؤة وبيده خنجر ، فطعنه به ثلاث طعنات(٢) ، ثم أخذ يطعن المسلمين الذين أرادوا القبض عليه حتى قتل منهم ستة على قول وتسعة على قول آخر ، ثم طعن نفسه بالخنجر ذاته .

إن مقتل عمر لم يكن باعثه غضب أبى لؤلؤه لكثرة الخراج ، فإن هذا الباعث لا يدفع بصاحبه إلى ارتكاب جناية كهذه ، ولكن مقتل عمر يدل دلالة واضحة على أن أهل فارس كانت فى نفوسهم حفيظة على العرب عامة وعمر خاصة ، ولهذا اتجه التفكير إلى أن مقتل عمر كان نتيجة لمؤامرة أعدت للتخلص منه تعبيراً عما فى النفوس من حفيظة وحقد وغضب وقيل إن الهرمزان — وكان قد لجأ إلى عمر كما أوضحنا فى باب سابق(٣) ، وأكرمه عمر ، فأعلن إسلامه وبقى بالمدينة — كان له دور فى مقتل عمر وكذلك جُفَينة وهو من أهالى الحيرة ، وكان نصرانياً ، وروى أن عبد الرحمن بن عوف كان قد شاهد السكين الذى قتل به عمر مع الهرمزان

---

(١) اتفقت أكثر الروايات على أن هذا اليوم يوافق يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة

(٢) قيل فى بعض الروايات إنه طعنه ست طعنات إحداها تحت سرته

(٣) راجع ص ٢٢٥ من الكتاب

وجُفَيْنة فى ليلة سابقة فسألها «ما تصنعان بهذه السكين ؟» ، فأجاباه « نقطع بها اللحم فإنّا لا نمس اللحم » ، وقال عبد الرحمن بن أبي بكر « قد مررت على أبي لؤلؤة قاتل عمر ومعه جُفَيْنة والهرمزان فلما بغتهم ثاروا ، فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصاب فى وسطه ، فانظروا الخنجر الذى قُتل به عمر » فلما شاهد الخنجر وجده ذات الخنجر الذى سقط من بينهم .

ومن هنا إذن صدق الاتجاه إلى أن مقتل عمر كان وليد إتفاق ومؤامرة كان الثلاثة هم مدبروها ، والثلاثة من أبناء فارس ، وعندما صدق هذا الإتجاه ثار المسلمون ، وكان عبد الله بن عمر أشدهم ثورة وأعنفهم غضباً ، فتقلد سيفه ، وخرج ينتقم لأبيه من كل فارسى يعيش بين المسلمين فى المدينة وكان طبيعياً أن يبدأ بالهرمزان وجُفَيْنة ، فدعا الهرمزان « انطلق معى حتى ننظر إلى فرس لى » ، ثم جعله يسبقه ، وضربه بالسيف ، ثم قتل بعده جُفَيْنة(١) ، ثم ابنة لأبى لؤلؤة كانت تدين بالإسلام ، واندفع بعد ذلك يريد أن يقتل كل أجنبى بالمدينة إعتقاداً منه أنه لابد أن يكون شريكا فى المؤامرة ، ولكن المسلمين تصدوا له ، ومنعوه ، فكان يقول « والله لأقتلنهم وغيرهم » .

نهاية يزدجرد

ولم يكن مقتل عمر هو وحده السلوك الذى عبر عن مشاعر أهل فارس تجاه الانتصار الإسلامى وضياع ملكهم ، ففى عهد عثمان بن عفان عاد أمل العودة إلى عرش فارس يداعب خيال يزدجرد ، الذى عاش فى أرض الترك بعد فراره الأخير سنوات متعددة ، يستمد من هذا الأمل قوة ، فظل يكاتب أهل فارس سراً ، ويثير مشاعرهم ، ويدعوهم إلى الثورة على

---

(١) جاء فى رواية ابن كثير فى البداية والنهاية ، أن عبد الله قتل الاثنين وأبوه ما زال حياً لم يمت ، فلما علم بذلك أمر بحبسه حتى ينظر الخليفة فى أمره ، ولكن روايات كثيرة تختلف عن رواية ابن كثير فتقول إن قتل الفارسيين كان بعد وفاة عمر .

العرب ، وانتهاز الفرصة للثأر منهم ، ووجدت كتبه ودعواته استجابة لدى أهل خراسان ، فثاروا على الحكم العربى فى عهد عثمان ، ورأى يزدجرد فى هذه الثورة الفرصة التى يجب أن تستغل ، لعلها تأتى بالنتيجة المرجوة ، وتحقق الأمل فى العودة إلى عرش الأجداد وملك الآباء ، فخرج من بلاد الترك ، ونزل مرو واجتمع بالأهالى ، ونظم صفوفهم وأعدهم لقتال العرب ، ولكن المسلمين كانوا أحرص على انتصارهم ، فقاوموا ثورة الأهالى ، وواجهوهم كعهدهم فى قوة وعزم ، واستطاعوا أن يقضوا على ثورتهم ، وأن تظل مقاليد الأمور فى أيديهم ، وأن تبقى أرض فارس كلها تحت سلطانهم ...

وهكذا فشلت الثورة وفشلت جهود يزدجرد بل انقلبت الأمور إلى عكس ما كان يريد فأسقط فى يده ، وحاول أن يعود إلى منفاه ، ولكن المسلمين كانوا قد بثوا العيون فى كل مكان بحثاً عنه ، فتعذر عليه الخروج ، فاختبأ فى طاحونة على شاطىء النهر ، وهناك لقى مصرعه .. واختلفت الروايات فى مصرعه ...

** قيل إن أهل خراسان أحاطوا به فى ملجئه وقتلوه وألقوا بجثته فى النهر ..

** وقيل إن صاحب الطاحونة قتله أثناء نومه طمعاً فى حُلّته ، وأن الترك خفوا لنجدته فوجدوه قتيلا ، فقتلوا صاحب الطاحونة وأهله انتقاماً له ، ثم حملوا جثته معهم إلى إصطخر ..

** وقيل إن صاحب الطاحونة أبلغ أمير مرو بمكانه فبعث الأمير ببعض جنده « إذهبوا فجيئونى برأسه » ، فدخل عليه الطحان وقتله ، وحزّ رأسه ودفع بها إلى الجند ، ثم ألقى بجثته فى النهر .

* * *

وبموت يزدجرد رأى أهل فارس أنه من الحكمة أن يسالموا الحكم العربى ، وأن يستسلموا له ، وألا يفكروا فى عدائه ... فمرت بهم الحياة رتيبة هادئة منتظمة ، ومن خلال نظم الحكم الإسلامى وقواعده أحسوا بعظمة الإسلام ، وأدركوا نبل مبادئه وأسسه وسمو أهدافه وغاياته ... وأيقنوا أنه الدين الكريم القويم الذى يسعى إلى خير الإنسان والإنسانية ، وإلى تقدم الفرد ورقيه ، وبعد أن عاشوا فى ظل سماحته وعدله وأمنه وخيره انفتحت قلوبهم له ، وآمنوا به بعمق وإدراك وفهم ، فدخلوا فيه أفواجاً ، ولم يمض وقت طويل حتى كانت فارس كلها تدين بالإسلام .

* * *

وانتصر المسلمون

انتصر المسلمون فى معاركهم ضد أهل العراق وفارس ...

وللنصر دائماً عوامل وأسباب ...

والذى يتابع تاريخ المسلمين منذ بدء الدعوة الإسلامية فى مكة ثم فى المدينة ، والذى يتابع أيضاً تاريخ فارس وأمجادها يصعب عليه الاقتناع بأن النصر فى معركة أو جملة معارك تقوم بين الطرفين يُعقد لواؤه للعرب ولكن حقيقة المعارك وما روته كتب السيرة تؤكد أن العرب كانوا هم المنتصرون رغم ...

** أنهم كانوا يحاربون فى أرض عدوهم ... أى كانت ميادين الحرب بعيدة عن قواعد إمدادهم ، وعن مراكز قيادتهم العليا ... وهذا يعنى أن الفرس — وهم يقاتلون فوق أرضهم — كانوا يتميزون عن أعدائهم بميزات متعددة ، أهمها سرعة الإمداد سواء بالرجال أو العتاد أو المؤن ، هذا فوق فهمهم ومعرفتهم بطبيعة الأرض التى يقاتلون عليها .

** أنهم كانوا حديثى الشأن بالحرب فهم قبل حرب الفرس خاضوا فعلا غمار معارك ولكن ضد أقوام لا يتميزون عنهم فى هذا الفن . . فهم قاتلوا القبائل العربية التى لم تكن تختلف عنهم فى فن المعركة أو السلاح المستخدم فيها ولكنهم فى قتالهم الفرس يواجهون عدواً فاقهم فى كل نواحى المعركة فناً وعدة وعدداً وممارسة سابقة على مستوى لم يعهده المسلمون من قبل .

ورغم هذا الفارق الكبير فقد خاض المسلمون المعارك فوق أرض

العراق وفارس ، وواجهوا جيوش الفرس على كثرة عددها ووفرة عدتها ، وعلى ما لديهم من خبرات سابقة فى مجالات الحرب ... وانتصر المسلمون ودانت لهم كل بلاد العراق وفارس .

كيف إذن انتصر المسلمون وهم يحاربون فى مثل هذه الظروف القاسية ؟؟

قلنا إن النصر له عوامل وأسباب ... وانتصار المسلمين كانت له عوامل عدة وأسباب مختلفة نتناولها بالإيضاح والشرح مكتفين بما يكون فى مكان الصدارة منها تاركين للقارىء الكريم فرصة البحث عن بقيتها فى صفحات هذا الكتاب .

١ — الإيمان المطلق برسالة الإسلام

كان المسلمون يخوضون غمار معاركهم المتعددة ضد الفرس وهم يعلمون أنهم أصحاب رسالة ودعاة حق ، وأنهم مكلفون بالدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه وصد أى عدوان عليه ، وكانوا يدركون تماماً أن القتال فى سبيل الدين واجب ، وأن الجهاد فى سبيل الله أمانة ، وأن الموت فى الميدان شرف لا يدانيه شرف وأن الحياة الآخرة خير وأبقى ، وأن الجنة للشهيد الذى يبذل دمه وماله ونفسه فى سبيل دينه . . . من خلال هذه المعانى كان المسلمون يخوضون المعارك وهم يطلبون أحد أمرين .. أما انتصار يفيد به الإسلام وإما موت كريم يفيد به المقاتل الشهيد . . . وتحت تأثير هذه المعانى خاضوا المعارك حاملين سيوفهم فى أيديهم وأرواحهم على أكفهم ، لا يبغون من الدنيا شيئاً وإنما يسعون إلى ملاقاة الله ... ومن هنا اندفع المسلمون فى قتال عدوهم بشدة وعنف ، فكانوا يواجهون شدائد المعركة بقلوب ثابتة لا تهتز ولا ترتجف ولا تخاف .

والذى يقرأ تاريخ هذه المعارك التى دارت فوق أرض فارس بين المسلمين والفرس يدرك بوضوح حقيقة الإيمان الذى ملأ قلوب المسلمين فجعلهم يتسابقون إلى القتال لا يفكرون فى العودة بقدر ما يفكرون فى نصرة الإسلام وخيره ومستقبله .

والصور عديدة . . .

** فأبو عبيد بن مسعود يقود جيشه الذى يواجه سلاحاً خطيراً لم يألفه من قبل وهو سلاح الفيلة الذى استخدمه الفرس فلا يخاف أبو عبيد منه ولا يخشاه ، وإنما يتقدم الصفوف ويأخذ على عاتقه أن يقتل الفيل ويهم به ويقتله ثم يُقتل وهو يعلم مقدما أنه سيموت بدليل أنه أوصى بالقيادة من بعده لأخيه الحكم ... هو إذن همّ بالفيل وهو يعلم مصيره ، ولكن إدراكه لهذا المصير لم يحل بينه وبين أن يحقق الأمل الكبير فى الانتصار على عدو دينه .

** والمثنى بن حارثة يخاطب الخليفة أبا بكر الصديق فيقول له « يا خليفة رسول الله استعملنى على قومى فإنّ فيهم إسلاما أقاتل بهم أهل فارس» ... وهذا القول يعنى أن الإسلام قد تمكن من رجال المثنى حتى أصبحوا قوة يُعمل حسابها، ويمكن بها القضاء على أهل فارس كما قال المثنى للخليفة « أكفيك أهل ناحيتى من العدو » ... وموقف آخر للمثنى حين استشهد أخوه مسعود فى موقعة الجسر ، فقد أراد أن يتخذ من استشهاد أخيه سبيلا لدعم الصفوف ووسيلة لإثارة المشاعر خلال المعركة فخاطب الجند « لا يرعكم مصرع أخى فإن مصارع خياركم هكذا » ... وموقف ثالث للمثنى يوضح مدى إيمانه العميق

بعظمة الرسالة التى يقاتل من أجلها فهو لم يحزن حين أمره أبو بكر أن يعمل جندياً تحت قيادة خالد وحين أمره عمر أن يعمل جندياً تحت إمرة أبى عبيد فقد نفّذ الأمر وأطاعه ، وأصبح جندياً يتلقى الأوامر بعد أن كان قائداً للجيش يأتمر الجميع بأمره .

** وهاهو ذا المغيرة بن شعبة يخاطبه يزدجرد فيقول محاولا الإساءة إليه وإلى المسلمين عامة «إنى لا أعلم أمة فى الأرض كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بَيْن منكم» ... هاهو ذا المغيرة يهزأ بيزدجرد وهو فى قصره وبين حرسه ، تحيط به مظاهر الملك والقوة والسلطان ، دون أن يهاب هذه المظاهر كلها« اختر إن شئت الجزية وإن شئت السيف أو تسلم فتنجى نفسك » ثم يقول « يدخل من قُتل منا الجنة ، ومن قُتل منكم النار ، ويظهر من بقى منا على من بقى منكم » .... بهذا الإيمان العميق يواجه المغيرة يزدجرد فلا يخشاه ولا يهابه وإنما يخاطبه كما يخاطب إنساناً يشعر أنه أضعف منه وأقل منزلة وأهون مكانة ، ولعل مبعث هذا الشعور من جانب المغيرة أنه رجل إمتلأ قلبه بالإيمان .

الأدلة كثيرة متعددة يلمسها القارىء دون ريب وهو يطالع صفحات هذا الكتاب ، ولهذا فلن نسترسل فى ذكرها مكتفين بهذه الأمثلة القليلة على سبيل المثال دون الحصر .

* * *

وإذا ما ألقينا نظرة على الجانب الآخر ونعنى به الجانب

الفارسى ، نحس فوراً أن الجيوش التى واجهت المسلمين — جيشاً وراء آخر — كانت تنقصها الدوافع النفسية التى تهيئها للمعركة ، رغم أن هذه الجيوش دخلت جميع المعارك دفاعا عن نفسها وكيانها وعن وطنها وأرضها .

فالثابت أن الإيمان لدى جيوش كسرى فارس لم يكن على ذات مستوى الإيمان الذى كان يملأ قلوب المسلمين .

والأمثلة أيضاً كثيرة متعددة ...

فنحن قد ذكرنا خلال الحديث عن المعارك أن رستم كان غير مطمئن لنتيجة القتال حتى أنه سعى بوسائل متعددة إلى إيقاف العمليات والوصول إلى اتفاق سلمى ،خوفاً من مواجهة المسلمين فينال على أيديهم الهزيمة المرّة التى كان يتوقعها ، وحتى أنه كان لا يود الخروج مع الجيوش حين دُعى لذلك رغم أن يزدجرد قال له « أنت رجل فارس اليوم » ... وهذا قول يثير حماسة القائد حين يصدر إليه من مولاه وملكه ، ولكن رستم أخذ يماطل أملا فى عدم الخروج لأنه كان يفتقد الإيمان ، ولأن قلبه كان واجفاً غير واثق من نتيجة اللقاء ولأنه كان يحرص على الحياة أكثر من حرصه على افتداء وطنه ولقد أدى به هذا الشعور إلى الهزيمة القاسية على يد المسلمين الميامين ، كما أودى بحياته فقتله هلال بن علقة خلال القادسية .

وإذا كان القائد — وهو المثل الذى ينسج الجند على منواله — على هذه الصورة من الضعف المعنوى فماذا ننتظر من الجند الذين يحاربون خلفه ؟

ومما لا يختلف فيه اثنان أن هذا الضعف المعنوى وهذا الإنهيار النفسى وهذا الجبن الذى استولى على رستم كان مسيطراً على جنده رغم كثرتهم ورغم عدتهم ورغم ماضيهم الطويل فى ميادين القتال ، فباتوا لا يجيدون قتالا ، ولا يحسنون لقاء ، ولا يكسبون معركة ، وصدق فيهم قول خالد « إنى أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب » .

لقد كان إيمان الجند المسلمين من أهم العوامل التى حققت لهم الانتصار العظيم فى العراق وبلاد فارس ، كما كان افتقار الفرس لمثل هذا الإيمان سلاحا خطيراً موجهاً ضدهم ، فهُزموا شر هزيمة وخسروا تاريخهم وملكهم وبلادهم .

٢ – القيادات الناجحة الرشيدة

كانت القيادة عند المسلمين على مستويين ...

* **القيادة العليا**... ومركزها المدينة ، وكان يتولاها الخليفة بوصفه المدبر الأول لشئون المسلمين ... تولاها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ، كل فى عهد ولايته ، وكان لكل منهم دور كبير فى إدارة المعارك .

* **القيادة العامة**... ومركزها جبهات القتال على اختلافها وكثرتها وقد تولى هذه القيادة عدد كبير من القادة المسلمين ، وكان لكل منهم دور هام وخطير فى نتيجة المعركة التى تولى فيها القيادة .

وسوف نتناول بالحديث السريع موقف القيادتين . . .

فالقيادة العليا... تولاها فى أول الأمر أبو بكر الصديق الذى أصبح خليفة المسلمين بعد وفاة الرسول ، وبعد أن تمت له بيعة السقيفة ثم البيعة العامة . . . وتعرضت الأمة العربية فى مستهل خلافته إلى فتنة كادت تؤثر تأثيراً بالغاً على حياة الإسلام والمسلمين ، ولكنه استطاع بإيمانه وبحزمه وبثقته فى الله تبارك وتعالى أن يصمد للفتنة ، وأن يقضى على مانعى الزكاة ، ثم على المرتدين ، وأن يوحد الجبهة الإسلامية فى الجزيرة العربية لتكون أمة واحدة قوية متماسكة .

وعندما استتب الأمر لأبى بكر فكر فى أن يصرف أذهان العرب فى شبه الجزيرة عن غاراتهم ، وفى أن يمهد الطريق لانتشار كلمة الله فى إمبراطورية الروم ، ولم تخطر بباله أن يحارب الفرس لسببين أولهما أن بلاده لا تتصل بفارس ، وثانيهما أن بلاد الفرس تتاخم المناطق التى ارتدت قبائلها فلم يكن فى استطاعته أن يعتمد على هذه القبائل أو أن يأمنها وهو يقاتل أهل فارس .

إلا أن أخبار المثنى بن حارثة وصلت إلى أبى بكر وعلم أن المثنى قد بلغ مصب دجلة والفرات ، فأخذ يتابع أخباره دون أن يفكر جدياً فى محاربة فارس ، حتى جاءه المثنى يوماً وقدّم له صورة عن الوضع الداخلى هناك ، فبدأ يفكر فى الأمر جدياً ويطيل التفكير حتى استقر رأيه أخيراً على توجيه جيش إلى بلاد فارس .

وأحس أبو بكر بأهمية الرأى الذى انتهى إليه ، ومن هنا أعطى للأمر أهميته ، وبذل جهداً كبيراً فى الإعداد للمعارك المنتظرة ، وكانت أولى خطواته فى هذا السبيل اختيار خالد ابن الوليد قائداً للحملة العربية الإسلامية .

ونجحت الحملة بقيادة خالد فى جميع المعارك التى التحمت فيها ووصف الخليفة أبو بكر هذه الانتصارات الرائعة فى قوله مخاطباً أهل العرب فى الجزيرة « عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله » ... ثم استدعى الموقف الحربى فى الشام أن ينضم خالد من العراق إلى جيوش المسلمين هناك فأمره أبو بكر بالتحرك إلى الشام وعين مكانه المثنى بن حارثة قائداً للجيش الإسلامى واستمرت عناية أبى بكر بالجيوش الإسلامية فى بلاد فارس حتى أنه حينما قدم عليه المثنى يطلب منه العون وهو على فراش الموت ، استدعى عمر بن الخطاب وأوصاه بأن يندب الناس مع المثنى ، ولا يشغله موته عن إمداد المثنى بحاجته من المقاتلين ، حتى يستطيع أن يتم مهمته « فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ، وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى ، ولا يشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم » ، كما أمره بأن يعيد الجند — الذين كانوا فى العراق وتحركوا تحت قيادة خالد إلى الشام — إلى العراق ليشاركوا فى القتال لأنهم على حد وصفه « أهل الضراوة بهم والجرأة عليهم » .

وتوفى أبو بكر وقد أدى رسالته كاملة بصفته القائد الأعلى لجيوش المسلمين وتولى الخلافة من بعده عمر بن الخطاب ، فأدرك منذ الوهلة الأولى خطورة الموقف وأهميته ، ولهذا قرر أن يشرف بنفسه على عمليات العراق وفارس ، وأن يتابع أحداثها وكأنه يعيش فى أرض المعارك حتى أنه أصدر أوامره إلى سعد ابن أبى وقاص أن يبعث إليه بصفة دائمة بتقرير كامل عن الموقف حتى يستطيع أن يقدره وأن يصدر تعليماته إليه فى ضوء دراسته للموقف « أكتب إلىّ بجميع أحوالكم وتفاصيلها

وكيف تنزلون؟ وأين يكون منكم عدوكم؟ واجعلنى بكتبك إلىّ كأنى أنظر إليكم، واجعلنى من أمركم على الجلية»... قول صريح واضح يؤكد مدى اهتمام القائد الأعلى بالمعارك الدائرة، ومدى تقديره لأهميتها، ومدى حرصه على أن يكون ملماً بالموقف من جميع زواياه، حتى يمكنه أن يضع الخطط الناجحة التى تضمن النصر وتؤكد الفوز.

وكان عمر يهتم بمعنويات جنده فهو يعلم أن الروح المعنوية هى سلاح بتار فى المعركة، ولهذا حرص على أن يقوّى معنويات جنده ويرتفع بها... فهو مثلا يخاطبهم عند التحرك إلى القادسية «لا يهولنك كثرة عَددهم وعُددهم، فإنهم قوم خدعة مكرة، وإن أنتم صبرتم وأحسنتم ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم»... هذا هو منطق القائد الأعلى وهذا هو أسلوبه فى مخاطبة جنده يهوّن لهم من شأن عدوهم، ويدعوهم إلى الصبر فى القتال ويعدهم بنصر الله الذى وعد به المؤمنين.

وكان عمر يحرص على أن يتولى بنفسه إعداد الإمدادات ويشرف على تجهيزها وتحركاتها، وكان يدعو الناس إلى الخروج ويحثهم عليه، ويذكرهم بواجبهم ومسئوليتهم حيال دينهم، فكانوا يستجيبون إليه[1].

ومن أخطر ما اهتم به عمر وضع الخطط، فكان يقوم بدراسة الموقف بعد الرجوع إلى الرسائل المتعددة التى كانت تصله من الميدان، ثم فى ضوء هذه الدراسة يقدر الموقف تقديراً سليماً صائباً، ثم يعد الخطة للجيوش الإسلامية، ويبعث

---

(١) راجع صفحة ١٢٠ من الكتاب

بهذه الخطة إلى قائد القوات ليقوم بتنفيذها ... فهو الذى أمر بالتحرك إلى القادسية ، وهو الذى أمر بالتقدم إلى المدائن ، وهو الذى أمر بأن يسير هاشم بن عتبة إلى جلولاء ، وعبد الله ابن المعتم إلى تكريت ، ثم إلى الحصنين ، وعمرو بن مالك إلى هيت ، وعتبة بن غزوان إلى البصرة ، والنعمان بن مقرن إلى الأهواز .

ننتهى من هـذا إلى أن القيادة العليا لقوات المسلمين رغم بُعد مركزها عن ميادين القتال وجبهات المعارك قد أولت الحملة الإسلامية اهتمامها وعنايتها وعاونتها معاونة صادقة حتى كسبت المعارك وأخضعت بلاد العراق وفارس ، وهزمت جيوش الفرس ذات التاريخ المجيد فى مجالات الحرب .

أما **القيادة العامة** للجيوش المقاتلة — وهى كما سبق القول — القيادات التى تولت العمليات المختلفة ، فقد تولى قيادة المسلمين رجال أشداء توفرت فيهم الشروط اللازمة للقائد الناجح ، وامتازوا جميعاً بالقدرة والطاقة والإمكانيـــات واشتهروا بالحكمة وحسن التصرف ، وبإجادة تقدير المواقف وبالمهارة فى تحريك الجيوش ووضع الخطط ، والسيطرة على المعركة فى مختلف ظروفها وإدارتها بحكمة وقدرة .

ولا شك فى أن هذه القيادات الناجحة الفذة كانت تخلق فى الجند الروح الحربية القوية الناهضة ، فالقيادة هى المثل الذى يتمسك به الجند ، وهى السبيل الذى يتخذونه ، فالجند دائماً يقلدون قادتهم ويسيرون على هديهم ويتمثلون بهم .

وكانت الثقة تربط بين القيادة فى الميدان وبين الجند ، وكان القائد حريصاً على أن تبقى ثقة جنوده به على مستوى المسئولية الملقاة على عاتقه ، وكان الجند حريصين على ثقة القيادة بهم ، ومن خلال هذا الحرص خاض الجميع — القادة والجند — مختلف المعارك مؤمنين برسالتهم واثقين فى النصر .

وبمراجعة هذه القيادات نجد أنها تتمثل فى خيرة الشباب المسلم . . .

** فالمثنى بن حارثة بطل مغوار كانت له مواقف بطولية فى الجسر وفى البويب . . .

** وأبو عبيد بن مسعود هو قاتل الفيل ..

** وخالد بن الوليد هو القائد الذى سمع حرقوص ابن النعمان بمسيره فأسرع إلى أهله وقد ملكه الفزع وقال لهم « اشربوا شرب وداع فما أرى أن تشربوا خمراً بعدها ، هذا خالد بعين التمر وقد بلغه جمعنا وليس بتاركنا » ... وهو أيضاً القائد الذى قتل هرمز قائد الفرس فى أول لقاء له معهم . . .

** والقعقاع هو المدد الذى أمد به أبو بكر خالداً فى العراق قائلا « لا يهزم جيش فيه مثل هذا » ...

** وسعد بن أبى وقاص هو « الأسد فى براثنه » على حد وصف عمر له ...

وغيرهم من القادة العرب الذين حملوا عبء مناهضة الفرس والقضاء عليهم ، فأتوا فى ميادين القتال وجبهاته بأعظم وأجل الأعمال ...

** فها هو ذا طليحة يدخل وحده معسكراً للأعداء فيقتل منهم من يعد بألف فارس ويسلب فرسانهم ثم يخرج سليما لم يمسه سوء ...

** وهاهوذا زهرة بن الحوية صاحب المواقف البطولية فى القادسية والمدائن وبهرسير وساباط ...

وحتى نساء المسلمين فقد كان لهن دور مشرف وكانت لهن أعمال مجيدة ، وقد أتين فى الميدان بأجل الأعمال شأنهن فى ذلك شأن أعظم الرجال ...

** فموقف سلمى فى القادسية معروف . . .

** وموقف نساء المسلمين فى منطقة الفرات الجنوبى حيث اشتد القتال بين المسلمين بقيادة مجاشع لإبن مسعود والمغيرة بن شعبة هو موقف مجيد سجله لهن التاريخ ...

* * *

وكان موقف القيـادة فى الجانب الآخر موقف ضعيف مهزوز يتصف بالجبن والخوف ... فيزدجرد لم يكن قادراً على تنظيم تحركات جنده ، وكان يلقى بالمسئولية كلها على عاتق القيادات الأخرى ، ولم يكن قادراً على توجيه دفة القتال ، بل كان همه الأكبر هو التحفظ على خزائنه وأمواله وثروته... هذا التحفظ الذى أثار عليه قومه فأجبروه يوم جمع خزائنه على أن يتركها ويفر من فارس إلى خاقان الترك ، فلما كُتب عليه أن يعود مرة أخرى ليقود قومه الذين ثاروا فى خُراسان ، لم يستطع أن يدير الأمور وأن يقود القوم فى محاولتهم الأخيرة لاسترداد

ملكهم وأرضهم ، فهرب واضطُر إلى الاختفاء فى طاحونة حيث قُتل ، فأضاع على نفسه فرصة الموت فى خلال القتال ، وحرم نفسه من شرف الاستشهاد .

أما قادته فلم تتغير صورتهم عن صورته فقد كانوا مثله تماماً يخشون المسلمين ويخوضون ضدهم المعارك فى حذر وخوف ولهذا كانوا إذا ما اشتد القتال وفقدوا إمكانيات النصر تزعزعت ثقتهم فى أنفسهم وأسرعوا يطلبون الصلح ويسلمون ما فى أيديهم من غنائم وأراضى للمسلمين ...

** لقد قُتل رستم وهو يحاول الفرار من المعركة رغم أنه كان رجل فارس كما وصفه يزدجرد

** ولقد استسلم الهرمزان حين حوصر داخل حصن تستر ، وطلب أن يترك أمره للخليفة . . .

** ولقد هرب الفيرزان من جلولاء — حين اشتد هجوم المسلمين — إلى حلوان . . .

** وكذلك فر مهران إلى خانقين فلحق به القعقاع وقتله ...

هذه هى نماذج لنوعين من القيادة ... نوع أعطى للمعركة كل ما عنده من جهد وصبر وروح ، ونوع كان إذا ما اشتد القتال خاف المعركة وفرّ مبتعداً عن لقاء عدوه ...

ولقد كان النصر للقيادة التى أدركت مهمتها وأحسنت أداءها ووهبتها حياتها وروحها وكل ما لديها من جهد .

٣ — موقف العرب غير المسلمين

تناولنا بالحديث فى الباب الأول قيام مملكة الحيرة على حدود العراق ... والمعترف به أن أفراد هذه المملكة ماكانوا يميلون إلى الفرس وإنما خضعوا لهم قسراً أو طمعاً فى الغنائم ... وكان سكان هذه المملكة أصلاً من العرب الذين هاجروا إلى هناك وعاشوا على شفا الصحراء بين البادية التى جذبتهم إليها فلم يستطيعوا مقاومة سحرها ، والحضر الذى استهواهم لينالوا رزقهم منه دون مشقة أوعناء ... ولقد ساعدتهم الظروف التى كانت تمر بها بلاد فارس على الاستقلال بالأمر غرب الفرات ما بين الأنبار والحيرة . . .

ورغم الصلات التى كانت تربط هؤلاء العرب بالفرس فإنهم لم يدينوا بمجوسية الفرس ، وإنما دانوا بالنصرانية ، وهى دين سماوى أصحابه أهل كتاب أقره الإسلام واعترف به .

ومن هنا كان هؤلاء العرب طلائعاً مهدت للفتح العربى لفارس ، فإنهم كانوا رغم إتصالهم بالفرس وإعجابهم بحضارتهم وتأثرهم بما كانوا عليه من تقدم وتطور متعلقين بحياتهم العربية فلم يغيروا من خصائصهم ، بل ظلت الطبيعة العربية مسيطرة على حواسهم ومشاعرهم ووجدانهم ... ولعل أسطع دليل على بقاء صفاتهم العربية أنهم حين شبت نيران الحرب بين العرب والفرس فى موقعة ذى قار انضموا لإخوانهم العرب ضد جيرانهم الفرس ، فقد عزّ عليهم أن يقاتلوا إخوانهم العرب وطغت عليهم مشاعر القومية والأصل واللغة ، وكان انضمامهم ذات أثر كبير فى الانتصار العربى العظيم فى ذى قار .

وعندما قامت الحرب بين المسلمين وفارس كان لهؤلاء دور كبير ، فقد دفعتهم عروبتهم الأصيلة إلى الوقوف إلى جانب إخوانهم العرب ضد أهل فارس ، إذ استجابوا لدعوة المثنى بالانضمام إليه ، فانضموا دون تردد ، وكان فى مقدمة المنضمين أنس بن هـــلال النمرى وأبو مردى الفهر التغلبى إذ حملا وقومهما على الفرس ، واستشهد منهم كثيرون ، وكان مقتل مهران قائد الفرس على يد غلام نصرانى من تغلب كان مشتركا فى القتال فلما أصبح قريباً من مهران قتله واستولى على فرسه .

وكان لنصارى العرب دور هام فى موقعة تكريت فقد اتصل بهم عبد الله بن معتم قائد المسلمين — وكان محاصراً الفرس فى داخل المدينة واستمر حصاره لهم أربعين يوماً — ودعاهم إلى معاونته ونصرته على أن يكون لهم ما للمسلمين ، وطلب منهم أن يراقبوا أبواب المدينة ، فقد كانت العلامات التى تجمعت لديه تفيد بأن المحاَصرين ينوون الهرب بسفنهم ، كما طلب منهم أن يقاتلوا الفرس حين خروجهم ، وتم تنفيذ الإتفاق تماماً ، حتى أن الروم اضطربوا وفتح المسلمون تكريت ولم يفلت واحد من الفرس فقد قُتلوا جميعاً .

لقد كان العرب النصارى على حدود فارس بمثابة الخطوط الدفاعية الأولى التى كانت تغطى وتحمى وتصد الضربات الأولى عن جيوش الفرس فلما انضموا إلى المسلمين فى قتالهم ضد الفرس إنهارت هذه الخطوط الدفاعية وكسب المسلمون هؤلاء العرب النصارى إلى جانبهم فزادت قوتهم بينما فقد الفرس هذه القوة التى كانوا يعتمدون عليها اعتماداً كبيراً .

ولعل أهم ما يذكر لهؤلاء العرب النصارى أنهم بعد أن قدّموا كل معاونتهم للمسلمين واستشهد منهم خلال المعارك عدد كبير ، آمنوا بأن الإسلام دين حق وعدل وإنصاف ، فدخلوا فيه وأعلنوا إيمانهم ، وأصبحوا قوة للإسلام وللمسلمين وعاونوا معاونة صادقة فى إحراز النصر وتأكيده ، ومما يؤكد ذلك أنهم استجابوا لدعوة عبد الله بن معتم « اشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأقروا بما جاء به من عند الله » .

٤ — مبادىء الإسلام الخالدة

إسترعى الإسلام سمع الناس فدانوا به ،لأنه يصور مثل الإنسانية الأعلى ، ويسمو بالحرية وبالكرامة الإنسانية إلى أرفع الذرا فهو لا يجعل للناس إلهاً غير الله ، هم عباده وحده جلّ شأنه ، لا يملك أحد غيره لهم نفعاً ولا ضرا ولا مثوبة ولا عقاباً .

وكانت رسالة الإسلام موضع التفكير فى كل مكان ذهب إليه المسلمون ، وكان انتصار المسلمين حجة على صلاحية هذه الرسالة كنظام للحياة الروحية والحياة الإجتماعية ، ولقد أصبحت المبادىء التى تقوم عليها رسالة الإسلام على كل لسان فى البلاد التى دخلها المسلمون ومنها بلاد العراق وفارس ، فإن الناس فى هذه البلاد كانوا يدينون بالمسيحية وبالمجوسية ، وكان الخلاف بين المذهبين شديداً ، وكان الناس بسبب هذا الخلاف يلاقون ألواناً من البطش ، فكان ذلك دافعاً لهم ليفكروا فى دين جديد يدعو إلى التآخى والتسامح والعدل والرحمة والإنسانية والمساواة .

لم يكره المسلمون — وهم يحاربون فى بلاد العراق وفارس — واحداً من سكان هذه البلاد على إعتناق الإسلام ، بل جعل المسلمون حرية العقيدة أساساً لدعوتهم ، إرتكازاً على تعاليم الإسلام التى تنص صراحة على أن يُترك الناس أحراراً فى عباداتهم ، فلا يُكرهون على الخروج من دينهم والتحول عنه ، بل كانوا يدعونهم إلى واحدة من ثلاث ... « نحن ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ولكم مالنا وعليكم ما علينا ، فإن أبيتم فأدّوا الجزية فإن أبيتم إلى ما دعونا فانذروا بحرب من الله ورسوله » .

ولقد نُص صراحة على حرية العقيدة فى جميع المعاهدات التى أُبرمت بين المسلمين وأهل فارس ، وكانت دعوة المسلمين واضحة ، فمن تمسك بدينه ومذهبه من أعدائهم فعليهم أن يؤدوا الجزية لقاء منعهم لهم وحمايتهم ، أما من دخل فى الإسلام منهم ، فقد سقطت عنهم الجزية ، وأصبحوا متساوين مع المسلمين ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، يصلون فى جماعتهم ، ويشاركونهم فى القتال ، ويقاسمونهم المغانم ، ويرتبطون معهم بآصرة النسب .

ولعل أصدق برهان على ما نذهب إليه ما أصبح عليه الهرمزان حين أعلن إسلامه ، فقد صفح عنه عمر حين لقيه فى المدينة ، وفرض له ألفين ، وأنزله المدينة ، وازدادت ثقة عمر به ، وصار لايفارقه ، وكان يستشيره فى كثير من الأمور ، فلا يضن عليه الهرمزان بالمشورة .

جاء الإسلام إلى بلاد العراق وفارس فى وقت كان

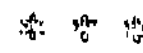
الخلاف فيه بين الناس محتدماً ، وكانت الأمور مضطربة والحكم سيئاً ، ودسائس البلاد متلاحقة ، والإضطهاد الدينى قد بلغ مرحلة لاتحتمل ، والظلم منتشراً ، والفساد متصلا بكل أجهزة الدولة والناس نتيجة لهذا الاضطراب الاجتماعى يبحثون عن منفذ يقيهم الشرور والفتن .

فلما جاءهم المسلمون ، واتصل أهل العراق وفارس بهم ، وقفوا على أسرار الدعوة المحمدية ، وعلى أصول ومبادىء الإسلام .. فآمنوا بالدين الجديد ودخلوا فيه برغبتهم وعن إيمان ، وأحسوا وهم يخطون خطواتهم الأولى فى حياتهم الجديدة بالأمان والعدل والإستقرار ، فتعلموا اللغة العربية — لغة القرآن — ليزدادوا فقهاً فى دينهم الجديد وليعرفوا لغة حكامهم.

ولقد زاد فى إقبال أهل العراق وفارس على الإسلام ما فرضه الإسلام من مساواة بين المؤمنين على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وعاداتهم ، وماقرره من أن المؤمنين إخوة يحب كلٌ لأخيه ما يحب لنفسه ... هذه المساواة وهذه الأخوة كانت من أهم العوامل التى دفعت بأهل العراق وفارس إلى أحضان الإسلام .

إن هذه المبادىء التى جاء الإسلام مبشراً بها وداعياً إليها ألانت قلوب الناس وارتقت بأفكارهم وسمت بأحاسيسهم ، وجعلتهم يدركون الفارق الكبير بين الدين الذى جاءهم وبين المذاهب المختلفة التى يعتنقونها والتى جعلت حياتهم جحيماً وعذاباً وفُرقة وانقساماً .

كانت هـــذه المبادىء برداً وسلاماً على أهل العراق وفارس فاقتنعوا بها وبالتالى اقتنعوا بصدق الدعوة الإسلامية وبسمو أفكارها ومبادئها ، فدخلوا فى الإسلام الذى مهّد لهم حياة أفضل تقوم على الترابط والتآخى والمحبة والتراحم .



إن العوامل والأسباب التى تحدثنا عنها بإفاضة ليست هى كل عوامل النصر وأسبابه ، فهناك — كما سبق القول — أسباب وعوامل أخرى من اليسير على القارىء أن يلمسها ... مثل ...

* وحدة الصف العربى داخل الجزيرة .
* القوى المعنوية وضمان النصر .
* التناسق المتكامل بين عمليات العراق والشام .
* سرعة الإمداد فى الوقت المناسب .
* اختيار زمن المعركة ومكانها .
* المحافظة على الغرض الرئيسى من القتال .
* تأمين طريق العودة وسلامة القوات .
* المهارة الفردية وقدرات المحاربين .
* خفة الحركة والقدرة على المناورة .
* المهارة فى إدارة المعركة .

ختـام

أما بعد ...

فإننى حين أصل إلى نهاية الكتاب أكون قد خطوت خطوة جديدة على طريق نشر التاريخ الإسلامى من زاويته العسكرية ، فقد أخذت على عاتقى أن أشارك الكتاب المسلمين الذين يتناولون تاريخ الإسلام من زواياه الأخرى فى مؤلفـاتهم ... أشاركهم تقرباً لله تبارك وتعالى ، وخدمة للدين الحنيف الذى أدين به ، وأملا فى أن يدرك المسلمون أمور دينهم ، فيسيرون على الدرب الذى سار عليه الصالحون من المسلمين الأولين ، فيحققون مجداً جديداً يتصل بمجد السابقين .

وإن غاية ما أرجوه هو أن أكون قد وفقت فى تأريخ الفتح الإسلامى للعراق وفارس ، وأن أكون قد أبرزت عظمة الفتح فى ملامحه الأصيلة ، وحققت الفائدة المرجوة من نشر هذه الأحداث الرائعة التى تمثل حقبة مشرقة فى تاريخ الإسلام .

وأرجو أن يتقبل الله منى هذا الجهد ، وأن يأخذ بيدنا على الطريق ، وأن يمدنا بالعون لنتابع خطواتنا .

والله المستعان ؟

محمد فرج

سجل المراجع

(رتبت المراجع حسب الحروف الأبجدية)

أسد الغابة فى معرفة الصحابة ... ...ابن الأثير

الأنور المحمدية فى المواهب اللدنية ... ...البنهـــانى

الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ... ...ابن عبد البر

البداية والنهاية فى التاريخ ... ...أبو الفداء

التيجان فى ملوك حمير... ... ...الحميرى

الصديق أبو بكر ... ...محمد حسين هيكل

العبقرية العسكرية فى غزوات الرسول ... ... محمد فرج

العقد الفريد ... ...ابن عبد ربه

الفاروق عمر ... ... محمد حسين هيكل

الفتوحات الإسلامية بعد الفتوحات النبوية ... ...ابن دحلان

الـكامل فى التاريخ ... ...ابن الأثير

المثنى به حارثة ... ...محمد فرج

المسالك والممالك ... ...الاصطخرى

أيام العرب فى الجاهلية ... ... .جاد المولى

بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ... ... .الألوسى

تاريخ الإسلام ... ... حسن إبراهيم

تاريخ العرب القدامى ... ... .محمد فخر الدين

تاريخ العرب قبل الإسلام ... ...جورجى زيدان

تاريخ الرسل والملوك ... ... الطبرى

تاريخ عمر بن الخطاب ... ...ابن الجوزى

تجارب الأمم ... ...ابن مسكويه
خالد بن الوليد ... ... صادق عرجون
سيرة ابن هشام ... ...ابن هشام
سيف الله خالد ... ...محمد فرج
عبقرية عمر ... ... .عباس العقاد
عيون الأخبار ... ...ابن قتيبة
عيون الأخبار ... ...الدينوري
فتوح البلدان... .. .. البلاذري
قادة الفتح العربي للعراق وفارس ... ...محمود شيت خطاب
قيام الدولة العربية الإسلامية ... ...جمال الدين سرور
معجم البلدان ... ...ياقوت الحموي
مروج الذهب... ... ...المسعودي

للمؤلف

كتب فى التاريخ

جبابرة حرب ... ... الناشر ... ... دار الفكر العربى*

محمد المحارب ... ...
- الطبعة الأولى ... الناشر ... ... دار الفكر العربى*
- الطبعة الثانية ... الناشر ... ... شركة التوزيع المصرية*
- الطبعة الثالثة ... الناشر ... ... دار الفكر العربى*

العبقرية العسكرية فى غزوات الرسول ... ...
- الطبعة الأولى
- الطبعة الثانية

الناشر ... ... دار الفكر العربى*

سيف الله خالد ... ... الناشر ... ... دار الفكر العربى*

عمرو بن العاص ... ... الناشر ... ... دار الفكر العربى

السلام والحرب فى الإسلام ... ... الناشر ... ... دار الفكر العربى*

المثنى بن حارثة الشيبانى ... ... الناشر ... ... سلسلة أعلام العرب

أحاديث فى الحرب ... ... الناشر ... ... سلسلة اخترنا للجندى

السلام فى الإسلام ... ... الناشر ... ... سلسلة دراسات إسلامية

حروب الردة ... ... الناشر ... ... سلسلة دراسات إسلامية

من معارك الإسلام الخالدة ... ... الناشر ... ... سلسلة من الشرق والغرب

فتح العرب للعراق وفارس ... ... الناشر ... ... دار الفكر العربى

كتب فى السياسة

الأمة العربية على الطريق إلى وحدة الهدف ... ... الناشر ... ... دار الفكر العربى

نهاية الطاغية ... ... الناشر ... ... دار النـداء*

قصـة الجلاء ... ...
- الطبعة الأولى ... الناشر ... ... إدارة الثقافة بالجيش (بتكليف خاص)
- الطبعة الثانية ... الناشر ... ... دار الفكر العربى*

الإشـاعات ... ... الناشر ... ... إدارة الشئون العامـة والتوجيه المعنوى*

النضال الشعبى فى سورية وقصة الانقلاب ... ... الناشر ... ... سلسلة كتب قومية*

العدوان الثلاثى ... ... الناشر ... ... سلسلة كتب قومية

النضال الشعبى ضد حملة فريزر ... ... الناشر ... ... سلسلة كتب قومية

النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية ... ... الناشر ... ... سلسلة كتب ثقافية*
التطور السياسي في الهند والصين ... ... الناشر ... ... سلسلة كتب سياسية
الثورة المصرية وأثرها في التطور السياسي العربي ... الناشر ... ... إدارة الشئون العامة والتوجيه المعنوى
القوات المسلحة فى ضـوء الميثاق ... ... الناشر .. ... سلسلة اخترنا للجندى*
عنيات ... ... الناشر ... ... سلسلة اخترنا للجندى
دراسات من الميثاق ... ... مع عـدد من الـكتاب } المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
الحلف الإسـلامى ... ... مع عـدد من الـكتاب

كتب فى القصـة

قلوب محطمة ... ... الناشر ... ... دار الفكر العربى*
هـذه هى الحياه . ... الناشر ... .. دار النشر الحديثة*
بطولة فدائيـة ... ... الناشر ... ... دار الفكر العربى
الناس سواسية ... ... الناشر .. ... دار الفكر العربى

كتب تحت الطبع

فلسطين ... عربية
دراسات فى المدرسة العسكرية الإسلامية .

* هذه الـكتب نفدت

فهرس

الباب الأول

دراسة تمهيدية فى العلاقات بين العرب والفرس

الباب الثانى

التمهيد لفتح العراق

صفحة

الباب الثالث

بداية الفتح العربى

الباب الرابع

الانتصار العظيم فى بابل

الباب الخامس

هزيمة المسلمين فى الجسر

صفحة

الباب السادس

الثأر العربى فى البويب

الباب السابع

الضربة القاصمة فى القادسية

صفحة

الباب الثامن

نهاية المطاف فى بلاد العراق

الباب التاسع

فتح الفتوح ونهاية الدولة الساسانية

الباب العاشر